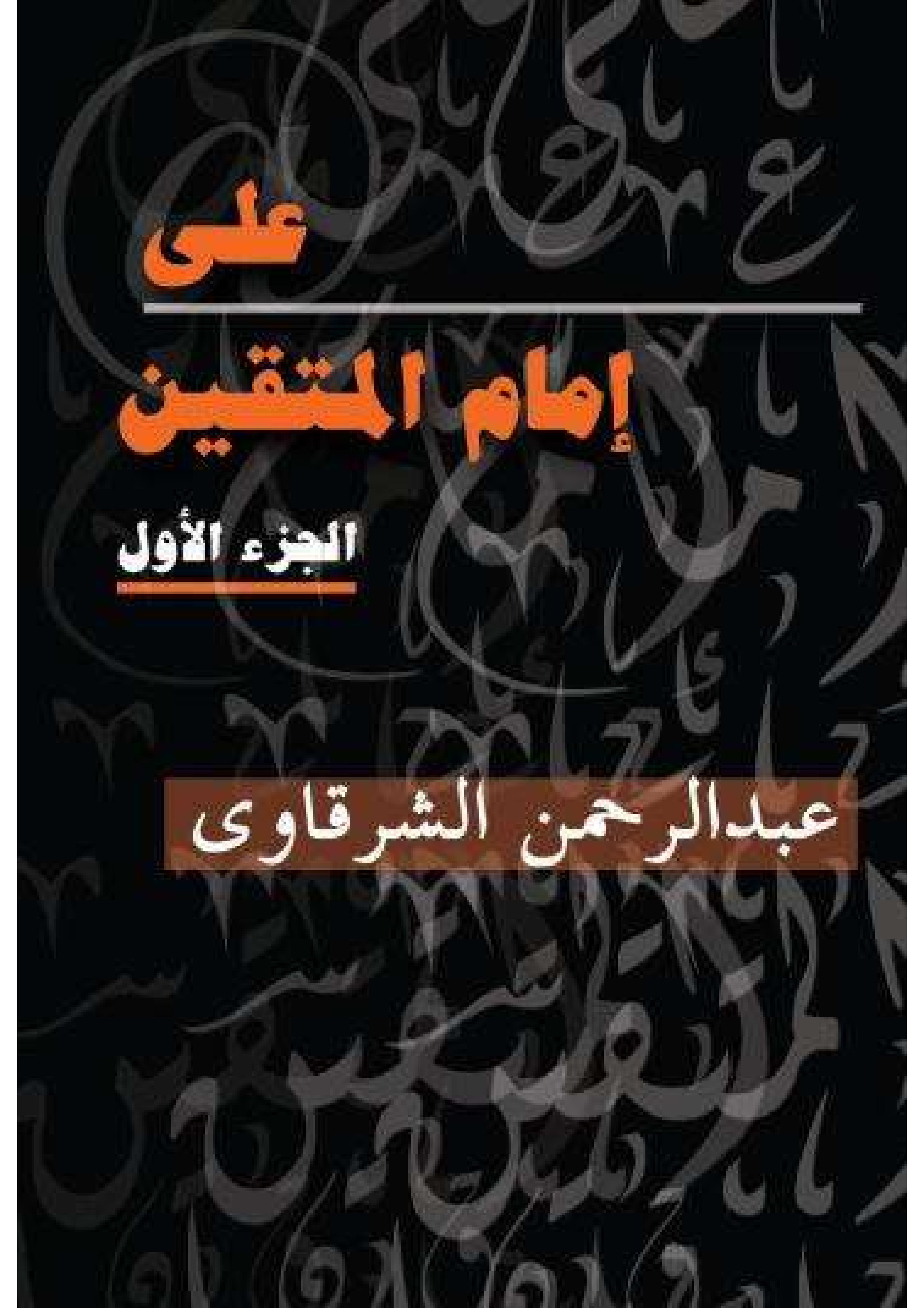

على
إمام المتقين
الجزء الأول
عبدالرحمن الشرقاوى

الفهرس

إهـــداء

إلى أخي الدكتور عبد الغفار

كنت تشفق على ونحن صغار من أن يصرفني الأدب عن طلب العلم، فلما أنهيت دراستي بكلية الحقوق، خفت أن يصرفني الأدب عن الأشغال بالقانون، كما كان يريد أبونا رحمه الله..

فلما أدركتني حرفة الأدب، عانيت أنت ما جرته على الحرفة من عسف وسخط وكيد..

ثم تعودت أن تلومني لأني رفضت كثيرا المناصب الكبرى والرياسية لكي أتفرغ للأدب وحده، مما يتطلبه من انشغال البال بالقراءة والتفكير والتأمل وهموم التعبير!.. ولكم شق عليك هذا..!

عسى أن تجد في هذه الصفحات بعض العوض عما سببه لك اشتغالي بالأدب من متاعب، ومشقات!

إنها صفحات عن إنسان عظيم، تعودنا أن نحبه منذ الصغر، وحفزنا عنه كلماته الجليلة، وما زالت قلوبنا تخفق

بحبه، لا لأن آباءنا علمونا أننا من ذرية ابنه الحسين فحسب، ولكن لأننا حين تعرفنا عليه، أكبرنا فيه تلك الفضائل الرائعة التي تجعل الإنسان قادرا على أن يدافع عن الحق والحرية والعدل، مهما تكن المعاناة، ومهما تكن صولة الباطل..

أخوك المطيع

(عبد الرحمن)

مقدمة

ليس هذا الكتاب بحثًا تاريخيا، ولا هو كتاب سـيرة، ولا هو مفاضلة بين الصحابة رضي الله عـنهم.. ولا هـو بدفاع عن حق أحد في الخلافة قبل الآخر!!

فمن كان يلتمس في هذا الكتاب شيئًا من هذا فليعدل عنه إلى غيره..

ما أردت بهذا الكتاب إلا أن أصطنع شكلاً فنيا أقرب إلى الفن القصصي أعتمد فيه على حقائق التاريخ الثابتـة، لأعرض مبادئ الإسلام وقيمه، من خلال تصوير فنى للإمام على رضي الله عنه..

ذلك أن الإمام على تجسدت فيه أخـلاق الإسـلام، ومثله، فقد تعهده الرسول طفلاً وربته صبيا، وثقفـه فتـى، وقال عنه: أنا مدينة العلم وعلى بابها.

ثم إن عليا قد كرم الله وجهه: فلم يسـجد لغيـر الله تعالى، وما دخل قلبه منذ الطفولة شيء غير الإسـلام.. ثـم كان هو المجاهد العظيم في سبيل الله، وما صارع أحـدا إلا صرعه.. وقد علم الصحابة رضي الله عـنهم مكانـة على عند الرسول صلى ألله عليه وسلم ❒ .. وأنهم ومعهـم

المسلمون في كل مكان وزمان ليقولون في كل صلاة: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.. وبارك على محمد وعلى آل محمد.

***

كنت أنشر هذا الكتاب في جريدة الأهرام كل أربعاء منذ رمضان الماضي، وعندما وصلت إلى موقف علي وأبي ذر من المال، كتب الصديق ثروت أباظة معلنا خلافه معي حول هذا الموقف من المال، وزعم أنه موقف الشيوعية لا موقف الإسلام!. فرددت عليه.. وكان هذا الخلاف في ظل ظليل من الاحترام، والود المتبادل.. ولكن الصديق ثروت لم يكد يعلن رأيه، حتى انفجرت ضدي ثورة سماها الأستاذ الجليل الدكتور محمد الطيب النجار ثورة ظالمة!!

وكان الذين أشعلوها كانوا ينتظرون إشارة البدء، فقد استغلوا كلام الصديق ثروت أباظة، وأولوه ضدي، مما اضطره إلى أن يكتب مرة أخرى ليزجهم وينهاهم عن سوء استغلال خلاف الرأي فيما بيننا!

وقد رأيت أن الأمانة تحتم على أن أضم إلى الكتاب ما دار من جدال حوله.. حتى ما وجهه إلى البعض من

افتراءات واتهامات جائرة أثبتها، وأثبت ردى عليها في آخر الكتاب..

وفي الحق اني كنت قد تلقيت رسائل من بعض القراء تتضمن بعض الملاحظات، فرأيت أن أحرر الكتاب من كل ما يحتمل سوء الفهم، أو سوء التأويل، آخذًا بنصيحة قراء أعتز بتقديرهم.. كان ذلك كله قبل أن تقوم الثورة الظالمة على الكتاب..

وإن تعجب فعجب أن يتخيل أحد مهما يكن حظه من الفهم اني أتجشم هذه المشقة لأسي إلى أحد من الصحابة أو أشوه صورته!!

ولكني أسوق ما لا بد أن أسوقه من قصص الخلاف بين الصحابة لأن هذا الخلاف أثر تأثيرا في شخصية الإمام على ومواقفه، وشحذ اجتهاده ليضع أحكاما ما كان يعرفها المسلمون من قبل، وما كانوا ليعرفوها لولا هذا الخلاف!

وقد ظلت هذه الأحكام هي التي تطبق حتى اليوم كلما تحاربت فئتان من المسلمين منذ الفتنة الكبرى.

ولا ريب أن للصحابة احترامهم الذي يجب أن يلتزمه كل مسلم!!

ولقد كان في قصصهم عبرة!.. والعبرة يستوعبها أولو الألباب!!

***

ولقد أجمع أئمة الإسلام على أن أحكام قتال أهل البغي إنما وضعها الإمام على خلال حروب الفتنة الكبرى.. وفصل الإمام الشافعى ذلك في موسوعته " الأم ".. وهذه نتيجة انتهي إليها أئمة أهل السنة من قبله، ووصى بها الإمام أحمد بن حنبل أصحابه واتباعه من بعده، فقال لهم: " ما ابتلى أحد قبل أمير المؤمنين عِلي بن أبي طالب رضي الله عنه بقتال أهل البغي ".

وما أظن أن أحدا يستطيع أن يتهم أئمة الدين من أهل السنة بإهانة الصحابة!!

واليقين أن الإمام الشافعى والإمام أحمد، وغيرهما من أئمة أهل السنة، أكثر حرصا على الصحابة وأشد معرفة بمكانتهم، من العلماء المعاصرين!..

وأود آخر الأمر أن أؤكد للذين اتهمونى بالأخذ بالروايات الضعيفة أو بالاعتماد على كتب غلاة الشيعة.. أود أؤكد لهم أنهم لم ينصفوا أنفسهم، إذ خالفوا الحقيقة!! فقد

تحريت ألا أعتمد إلا على المراجع الصحاح الموثوق بها من كتب وموسوعات أهل السنة وحدهم، لأسد الذرائع أمام من يحالون إثارة الفرقة، أو إيقاظ الفتنة النائمة بين الشيعة والسنة، لا لأني أشك فيما كتبه مؤرخو الشيعة وفيهم مؤرخون ثقات!

من أجل ذلك حرصت على أن أضع ثبتًا بالمراجع في آخر الكتاب، مخالفًا بذلك ما اتبعه من قبل، عسى أن يجهد المشككون أنفسهم في البحث فيعلموا ويتقنوا، ويبذلوا في سبيل ذلك بعض العرق، بدلاً من أن يريحوا أنفسهم بتوجيه الاتهام ويتعبوا الآخرين، وبدلاً من أن يجهدوا القراء بإثارة الزوابع بغبارها الذي يخفي الحقيقة عن العيون.

***

وأود آخر الأمر أن أؤكد أننا في مصر لا نعرف هذا الخلاف الغريب بين المذاهب الإسلامية.. نحن لا نعرف غير الكتاب والسنة وما أجمع عليه أئمة الدين، وما استنبطوه من أحكام..

إن الصلاة الواحدة لتقام عدة مرات في بعض بلادنا الإسلامية، لأن اتباع كل مذهب لا يصلون إلا خلف إمام من

أهل المذهب!!.. وإن اتباع بعض المذاهب السنية لا يتزاوجون في بعض تلك البلاد الإسلامية..

أما نحن في مصر فنحن أهل السنة، ومريدون ومحبون لآل البيت في الوقت نفسه.. ولا نجد في هذا تناقضا!!

ونحن نصلى وراء الإمام الصالح شيعيا كان أم سنيا.. مالكيا كان أم حنيفا أم شافعيا أم حنبليا أم ظاهريا.. ونحن ننتمي إلى الإسلام، ونحترم كل أئمتة على السواء، لا نفرق بين أحد منهم ولا نعرف هذا الخلاف بين المذاهب.

والقانون المصرى أخذ في الأحوال الشخصية من فقه الشيعة الزيدية، كما أخذ من فقه الشيعة الإمامية الاثنى عشرية، زمن فقه كل من الأئمة: مالك، وأبي حنيفة، والشافعى، وابن حنبل، وابن حزم الظاهرى، وابن تيميه (الحنبلى)..

وفي الحق أن الذين يثيرون هذه الخلافات بين المذاهب الإسلامية يضرون الأمة والإسلام جميعا..

إن المسلمين في حاجة إلى أن يجتمعوا على كلم سواء، وإلى أن يرجعوا إلى النبع النوراني الأصيل: كتاب

الله وسنة رسوله.. ولئن فعلوا ذلك، إنهم إن شاء الله لصائرون إلى فلاح، ليعودوا كما كانوا بنعمة الله إخوانًا..

وبعد.. فأرجو أن أكون قد وفقت في رسم صورة مضيئة للإسلام، ولقدرته على مواجهة مشكلات العصر، من خلال تصويرى للإمام على بطلاً خارقًا، ومفكرا، وحيكما، وعالما، وزاهدا، وإنسانًا عظيما..

ويا لهذا البطل المثالى الذي كان يواجه بنبالة الفروسية، وبعظمة الوهد، وبسمو الفكر، كل ما طالعته به الحياة الجديدة من أطماع، وجحود، ودسائس، وحيل، وأباطيل!!

وأنا أدعو الله مخلصا أن ينتفع القراء بهذا الكتاب.. وفي سبيل الله ما كابدت فيه من مشقة وجهد وكيد!!.. وفقنا الله إلى ما فيه خير الإسلام والأمة، والإنسانية، والله ولي التوفيق.

عبد الرحمن الشرقاوي

تعمدت ألا أذكر الأجزاء أو الصفحات في المراجع اتباعا لرأي أستأذنا الشيخ محمد أبو زهرة الذي درس لي الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق.

وكان يرى ألا يكتب شيئًا بأسماء المراجع أو أرقام الصفحات، ومن أراد أن يأخذ منه وجب عليه أن يجد ويعرق ويتعب كما صنع.. وأنا أوجه هذا للمنكرين أو للطاعنين في المراجع.. فليرجعوا إلى هذه الموضوعات، وليبدلوا بعض ما بذلت من جهد، وما أنفقت من وقت، وما سفحت من عرق!!

الفصل الأول في

أحضان النبوة

قال له رسول الله ❐: " يا على، ألا أدلك على خير أخلاق الأولين والآخرين؟ "

قال: " بلى يا رسول الله " قال: " تعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وتصل قطعك ".

وأوصاه الرسول حين زوجه ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنهما، قال " يا على! لا تغضب، إذا غضبت فاقعد وتذكر قدرة الله تعالى على العباد، وحلمه عنهم، وإذا قيل لك: اتق الله فأترك غضبك عنك، وأرجع لحلمك".

وعلمه الرسول أن: " من كظم غيظًا وهو يقدر على إنقاذه ملأه الله إيماناً وأمناً، ومن وضع ثوب جمال تواضعا لله وهو يقدر عليه كساه الله تعالى حلة الكرامة ".

وعلمه ❐ أن: " من استأجر أجيرا فظلمه ولم يوفه أجره، فأنا خصمه يوم القيامة.

ومن أكن خصمه فأنا أخصمه (أى أغلبه) ".

على هذه التعاليم التي تلقاها منذ نعومة أظفاره، عاش عِلي بن أبي طالب.

ولكم عفا عمن ظلمه، ووصل من قطعه، وأعطى من حرمه!! ولكم كظم من غيظ!

ولكم ناضل لكي يوفي الأجراء أجورهم، قبل أن يجف عرقهم!!

وواجه بكل هذه الفضائل التي تعلمها من النبي عليه الصلاة والسلام عصرا شرسا تنهار فيه قيم لتسود قيم جديدة!!

فهو عصر تضمحل فيه الإمامة بجلال تقواها، لتنشأ فيه الملكية بأطماعها وقبضتها وطغواها!! حيث انتهت الخلافة الراشدة، وبدأ الملك العضوض!!

هو عِلي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. وأمه فاطة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

فهو أول هاشمي يولد من أبوين هاشميين، إذ كان بنو هاشم قد تعودوا أن يصهروا إلى أسر أخرى من قريش، قبل أن يتزوج أبو طالب من بنت عمه فاطمة بنت أسد!!

وتروى فاطمة بنت أسد: " بينا أنا أسوق هديا (ما يهدى إلى الكعبة من النعم) إلى هبل (كبير آلهة المشركين

وهو أول صنم نصب بمكة) إذ استقبلنى رسول الله ، وهو يومئذ غلام شاب قبل البعثة فقال لي:

" يا أماه إني أعلمك شيئًا فهل تكتمينه على؟ ". قلت: " نعم "

قال: " اذهبي بهذا القربان فقولي: كفرت بهبل، آمنت بالله وحده لا شريك له ".

فقلت: " أعمل ذلك لما أعلمه من صدقك يا محمد ".

ففعلت ذلك.

فلما كان بعد أربعة أشهر، ومحمد يأكل معي ومع عمه أبو طالب، إذ نظر إلى وقال: " يا أم مالك! مالي أراك حائلة اللون؟ ".

ثم قال لأبي طالب: " إن كانت حاملاً أنثى فزوجنيها".

فقال أبو طالب: " إن كان ذكرا فهو لك عبد، وإن كان أنثى فهو لك جارية وزوجة ".

فلما وضعته – في الكعبة – جعلته في غشاوة، فقال أبو طالب: " لا تفتحوها حتى يجئ محمد فيأخذ حقه ".

فجاء محمد ففتح الغشاوة فأخرج منها غلاما حسناً فشاله بيده، وسماه وأصلح أمره، ثم إنه لقمه لسانه عليًا،

فمازال يمصه حتى نام ".

هذا هو ما روته فاطمة أم عِلي عن مولده.

وفي الحق أنها سمت الوليد " حيدرة " بمعنــي أسـد على اسم أبيها، ولكن غلب عليه اسم " عِلي " الذي سماه بـه محمد.

كان الرسول – عليه الصلاة والسلام – يعيش فـي كنف عمه أبي طالب، فقد كفل محمدا وهو صبي يتـيم منـذ وفاة جده عبد المطلب، وكان يعامل أبا طالب كما يعامل ابن أبا، ويعامل فاطمة بنت أسد كما يعامل ابن بر أما!

هكذا فتح عِلي بن أبي طالب عينيه أول ما فتحهمـا على ابن عمه محمد، الذي أصبح فيما بعد رسول الله.. عليه الصلاة والسلام.

منه تعلم أولى الكلمات، وأولى الخطوات..

حتى إذا شب محمد، تزوج من خديجة بنت خويلد، ترك بيت عمه أبي طالـب ليعـيس فـي بيـت الزوجيـة. ومع ذلك فقد ظل يبر عمه أبا طالب وزوجة عمـه فاطمة، ويرعى ابنهما

علِيا.. ثم إن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، لكن هذه الأزمـة التي طحنت قريشًا، كانت نعمة من الله على الصبي عِلي بن

أبي طالب. فقد كان أبو طالب كثير العيال، فقال رسول الله ❐ للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم: " إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه لنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً، فنكفلهما عنه ".

فقال العباس: " نعم ".

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: " إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه".

فقال لهما أبو طالب: " إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما ".

وكان عقيل ضعيفًا، سقيم البدن.

فأخذ محمد علِيا وهو أصغر أبناء أبي طالب، فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرا إليه، وهو أكبر من عِلي بعشر سنين.

فلم يزل عِلي مع محمد حتى بعثه الله تبارك وتعالى رسولاً نبيا، فاتبعه عِلي رضي الله عنه، وآمن به وصدقه. ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

وكان رسول الله ❐ إذا حضرت الصلاة – وهي التعبد قبل أن تفرض الصلاة ليلة الإسراء – خرج ومعه عِلي بن أبي طالب فيصليان، فإذا أمسيا رجعا..

فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا.

ثم إن أبا طالب عثر عليهما وهما يصليان، فقال لرسول الله ❐ : " يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ " فقال: " أي عم، هذا دين الله ودين ملائكته، ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم، بعثنى الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عم، أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه ".

فأقسم له أن يحميه ما بقي حيا مهما كان من أمر فلا يخلص إليه أحد بسوء..! فقال:

" يا أبت، آمنت بالله وبرسول الله، وصدقته بما جاء به وصليت معه الله واتبعته ". فقال له: " أما إنه لم يدعك إلا إلى خير، فالزمه ".

أما فاطمة بنت أسد فأسلمت، فكانت أول امرأة تسلم بعد أم المؤمنين خديجة رضي الله عنهما..

ثم إن أبا طالب وابنه جعفر أتيا النبي عليه الصلاة والسلام في داره، فوجداه يتعبد، وعن يمينه عِلي، فقال أبو طالب لابنه جعفر: " صِلْ جناح ابن عمك "، فصلّ عن يساره.

على أن أبا طالب كتم إسلامه إيثارا للسلامة، لكيلا يصطدم بشراسة الملأ من قريش الذين كانوا يرون في الدين الجديد خطرا كبيرا لا لأنه يخرجهم عما ألفوه، وعما وجدوا عليه آباءهم من عبادة الأصنام والأوثان فحسب، بل لأنه سيفسد عليهم أمر الكعبة والتجارة، فيما تزدهر التجارة في مكة إلا لأن قصادها من أرجاء الجزيرة يأتونها لعبادة الأوثان المنصوبة في الكعبة.. فكيف إذا صرفهم الدين الجديد عن عبادة هذه الأوثان، وعن إتيان مكة والكعبة؟!

ولم يعد أبو طالب يتعبد للأصنام وللأوثان، وإن ظل على كتمان إسلامه، ولكنه بسط حمايته على ابن أخيه محمد.

وكان أبو طالب رجلاً مهابا شريفاً في قومه، له عليهم حقوق، فمنع محمدا أن يصل إليه ما يسوءه..

***

نشأ عِلي بن أبي طالب إذن في حجر النبي ، ولم يفارقه حتى اختاره الله إلى جواره، وفي هذا يقول عِلي لقومه: " تعلمون موضعي من رسول الله ، بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره، ويكنفني فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرقه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلاً في فعل، وكنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما، ويأمرني بهذا الاقتداء ".

وبهذا العلم وهذا الاقتداء، لم يحن على بن طالب وجهه لصنم أو وثن قط، فقد كرم الله وجهه، فلم يحنه لغير الله تعالى.. وانفرد بهذه الخصلة إذ كان أول من أسلم من الذكور، وأول من صلى منهم خلف رسول الله ..

وكرم الله وجهه فلم يقع على عورة قط، وكان إذا سقط خصمه في الصراع، وأدرك أنه هالك بسيف عِلي، كشف الخصم عن عورته، فأشاح عِلي بوجهه تعففًا، بل شاعت في وجهه الكريم أمارات الإشفاق، فيتركه!

وكرم الله وجهه، كان على سمرته كالقمر المنير كما يقول معاصروه..

ما أجهز على جريح قط، وبهذا كان يأمر جنده في كل المواقع والحروب: " لا تجهزوا على جريح "!

بهذه النبالة كابد عصرا من اللؤم عندما وَلِيَ أمر المؤمنين، بعد الرسول ﷺ وثلاثة خلفاء راشدين رضي الله عنهم!

وكان رضي الله عنه كثير التبسم، ينزع أحيانًا إلى السخرية، ولكنها ليست سخرية المرور المحروم من طيبات الدنيا، بل سخرية من عرف الدنيا فزهد فيها، وسما عليها.. فهي سخرية تريح القلب بحلاوة الدعابة، ودفء الإيمان، وتقنع العقل بأن العظمة تنبع من الاستغناء عن الزخرف، لا من استجداء الأبهة!..

كان قوى البنية، عريض المنكبين، ممتلئ الجسم، عظيم العينين، كثير الشعر، عريض اللحية، رِبعة في الرجال لا بالطويل ولا بالقصير. في زمن كان طوال رجاله في مثل قامة الجمل، حتى ليقال أن من هؤلاء الطوال من كان يقبل امرأته وهي في هودجها على ظهر بعير!! ومنهم من كان إذا ركب جواده كادت قدماه تمسان الأرض..!

وكان كرم الله وجهه ضخم عضلة الذراع، ضخم عضلة الساق، إذا أمسك بخصمه كاد يحبس أنفاسه. فيما صارع أحدا إلا صرعه، يتدفق بيانه كالسيل، جذاب الحديث، قوى الحجة، ما جادل أحدا إلا أسكته..

كان يسرع في سيره، وقد انكفأ إلى الأمام، فإذا سار إلى الحرب هرول.. متشبها في مشيته بالرسول ، الذي جعله أسوته منذ نشأ.

وعندما تقدم به العمر، دهمه الصلع، وابيضت لحيته العريضة، وما في رأسه من شعر، واستعمل الخضاب مرة لكنه تركه، لأنه يخفي حقيقة شيبته، ويخالف صراحة طبعه، ويغير مظهره!!

ولأنه أسلم وهوصبي لم يبلغ الحلم، ولأنه لزم الرسول، فقد كان يشعر إلى أغوار قلبه بكرامة الإنسان الذي علا على الشهوات، والتزم مكارم الأخلاق..

ولقد ظن الزبير بن العوام، وكان من سنه وابن عمته، أن اعتزاز عِلي بقوته الروحية والبدنية وبطهارته هو الزهو والخيلاء..

حتى لقد مر رسول الله ﷺ وبصحبته الزبير بن العوام فلقيا عِلي بن أبي طالب في بعض شأنه، فضحك له الرسول، وضحك عِلي محييا ولم يقدم على الرسول مسلما.. فقال الزبير: " لا تدع ابن أبي طالب زهوه "! ".

قال رسول الله ﷺ على مسمع من على والقوم:

" إنه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم "..!!

وقد بلغ من عمق تأثير عِلي بن أبي طالب على الناس أنه اشترى عبدا، فعلمه الإسلام وأعتقه، ولكن العبد لزمه.. حتى إذا مات النجاشى ملك الحبشة، واضطربت الأمور من بعده، اكتشف الملأ من الحبشة أن هذا العبد هو ابن للنجاشى قد خطفه تجار الرقيق وهو غلام وباعوه في مكة!! فجاءه الملأ من الحبشة يعرضون عليه ملك الحبشة خلفًا لأبيه النجاشي، لكنه رفض الملك وآثر البقاء على الإسلام في صحبة عِلي !!

أراد الرسول ﷺ أن يبعثه إلى اليمن بعد إسلامه ليقضي بين الناس، فقال " يا رسول الله إنى لا أدري ما القضاء ".

ضرب الرسول يده في صدر عِلي□ وقال: " اللهم اهد قلبه وسود لسانه " قال عِلي□: " فما شككت بعدها في قضاء بين اثنين ".

وكان هو الذي أقنع أهل اليمن جميعا بالإسلام من قبل. وعندما كتب إلى الرسول بذلك، سجد الله شكرا، ودعا لعِلي □ ولأهل اليمن.. وكان أول من أسلم من أهل اليمن هم هذان الذين أمهم على في الصلاة، ثم تبعهم بقية أهل اليمن. فقال الرسول: سلام على همذان.. سلام على همذان..

ولقد قال الرسول لصحابته حين اطلع على فتاوى عِلي □ وقضائه في اليمن: " على □ أقضاكم ".

وكان عمر يكرر: " على □ أقضانا ".

وحين أصبح عمر أمير المؤمنين كان يستعيذ من معضلة ليس لها أبو الحسن، أى عِلي□ بن أبي طالب.. ولقد استشاره أبو بكر من قبل، وعثمان من بعد، رضي الله عنهم جميعا..

ويروى أن أحد الصحابة سأل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن حكم المسح على الخفين في الوضوء،

متى يجوز بدلاً من غسل القدمين؟ فقالت له: " إيــتِ عِليــا

فسله".

وعن سعيد بن المسيب: " ما كان أحد من النـاس يقول سلونى غير عِلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنـه. فما من آية نزلت يجهل كيف نزلت، وماذا تعني ".

وقد سألت عائشة النـاس: " مـن أفتـاكم بصـوم عاشوراء؟ " قالوا: " على ".

قالت: " أما إنه لأعلم الناس بالسنة ".

وقال عنه أحد الصحابة. " إن علِيا عليه السلام كـان له ما شئت من ضرس قاطع في العلم، وكان له البسطة فـي العشيرة، والقدم في الإسلام، والصهر لرسول الله ﷺ، والفقه في المسألة، والنجدة في الحرب، والجود في الماعون ".

***

قال معاوية لرجل من أصحاب على بعد مصرعه: " صف لى عليا " فقال الرجل واسمه ضرار: " أعفنى " قـال معاوية: " لتصفنه ". قال: " أما إذ لا بد من وصفه، فكـان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عـدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطلق الحكمة مـن نواحيـه،

ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، كان غزير العبرة. طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن. وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه. ونحن والله – مع تقريبه إيانا وقربه منا – لا نكاد نكلمه هيبة له. يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطمع القوى في باطله، ولا ييئس الضعيف من عدله. وأشهد اني لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، قابضا على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا غرى غيري، أإلى تعرضت أم إلى تشوفت!؟ هيهات هيهات! قد باينتك ثلاثًا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك قليل. آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق ".

فبكى معاوية حتى اخضلت لحيته وقال: " رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ "

قال: " حزن من ذبح وحيدها في حجرها ".

ولما بلغ معاوية قتل عِلي قال: " ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب " فقال له أخوه عتبة بن أبي سفيان: " لا يسمع هذا منك أهل الشام " فقال له: " دعك مني ".

ويروى عن الرسول ❐ أنه قال لوفد ثقيف بعد أن خدعوه: " لتسلمن أو لأبعثن رجلاً مثل نفسي فليضربن أعناقكم، وليسبين ذراريكم، وليأخذن أموالكم ".. قال عمر: " واالله ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ. وجعلت أنصب صدر رجاء أن يقول: " هو هذا ". قال: فالتفت إلى عِلي رضي االله عنه فأخذ بيده ثم قال: " هو هذا، هو هذا ".

***

كان يكنى أبا الحسن فابنه الأكبر اسمه الحسن، كما كان يكنى أبا تراب.

قيل أن الرسول عليه الصلاة والسلام أتاه، فلم يجده في بيته، فسأل فاطمة: " أين ابن عمك " قالت: " في المسجد ". فوجده الرسول مضطجعا في المسجد، وقد سقطت عباءته والتراب يغطى ظهره، فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يزيل التراب عن ظهره وهو يدعوه مبتسما: " اجلس أبا تراب ".

وكناه الرسوم أبا تراب لسبب آخر. فقد كان على كرم االله وجهه إذا غضب من زوجته فاطمة الزهراء رضياالله عنها، لم يغلظ لها القول، بل اضطجع على تراب

المسجد، فيعرف الرسول إذا رأي التراب عليه أن بينه وبين فاطمة ما يستوجب التدخل للمصالحة!..

***

وإذا كان عِلي□ بن أبي طالب هو أول من أسلم من الصبيان، فإن أبا بكر هو أول عربي أسلم من الرجال، وزيد بن حارثة مولي الرسول هو أول من أسلم من الموالي..

وكان على يرعى لهما وقارهما.. فقد كان يحب ما يحبه الرسول الذي رباه، ومن يحبه الرسول ❐ كان آثر عنده من كل فرد سواه..

لهذا أحب أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

قال كرم الله وجه: بينما أنا جالس مع رسول الله ❐ إذ أقبل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقال: " يا على هذان سيدا كهول أهل الجنة إلا النبيين والمرسلين عليهم السلام. ولا تخبرهما يا على ".

وقال ابن عباس رضي الله عنه: " وضع عمر رضي الله عنه على سريره، فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع، فلم يرعني إلا رجل قد أخذ بمنكبي من ورائي، فالتفت، فإذا عِلي□ بن أبي طالب كرم الله وجهه يترحم على

عمر رضي الله عنه، وقال: " ألله ما خلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله تعالى بمثل عمله منك يا عمر.. وأيم الله إن كنت لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبك، وذاك اني كنت سمعت رسول الله ❐ يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وكنت أنا وتبو بكر وعمر، وإن كنت لأظن أن يجعلك الله تعالى معهما ".

ورأى رسول الله ❐ يعطف على أبي ذر الغفارى وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي فرق لهم، وصحبهم وأولادهم تأييده بعد الرسول، حتى ماتوا، رضي الله عنهم.

بل إنه دافع عن عمار في حياة الرسول، فقد أمر الرسول ببناء مسجد عندما استقروا بيثرب، وأمر المهاجرين والأنصار جميعا أن يعملوا في بناء المسجد. ونشط الرسول للعمل معهم، إلا نفرا من المهاجرين اعتزلوا العمل واشتطوا على غيرهم في إلقاء الأوامر فحملوا عمار بن ياسر ما لا يطيق من التراب والأحجار واللبنات، فمضى إلى الرسول شاكيا: " يا رسول الله إنهم قتلونى، يحملون على ما لا يحملون " فنفض الرسول عن رأس عمار التراب وقال: " إنهم لا يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية ".

فأقبل على إلى عمار يترضاه، ويشجعه، وارتجز مداعبا وساخرا بمن لا يعملون:

لا يستوى من يعمر المساجدا
يدأب فيها قائما وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

فغاظ هذا الرجل القاعدين، وسر عمار بن ياسر، فرده، فجاءه أحد القاعدين وفي يده عصا وقال: " سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية، واالله اني أراني سأعرض هذه العصا لأنفك ". فكفه عِلي بن أبي طالب عن عمار. وغضب رسول االله وقال: " ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار "؟

***

أخي رسول االله عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والمهاجرين، والمهاجرين والأنصار، " ليذهب عن المهاجرين وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويؤنس بعضهم ببعض ".

قال الرسول: " تآخوا في االله أخوين أخوين ". ثم أخذ بيد على فقال: " خذا أخي في الدنيا والآخرة ".

وفي الحق أنه كان له أخـًا وابنـًا وعونـًا..

ظل كذلك إلى آخر عهد الرسول بالحياة، منذ ذلـك اليوم الذي دعا فيه الرسول عشيرته الأقربين إلى الإسـلام، فصدوه، وسخروا به، ثم كرر الدعوة إليهم، فلم يلتفتوا إليـه، إلا عِلي بن أبي طالب، وهو إذ ذاك صبي دون الحلم!..

سمع الرسول يقول لعشيرته: " ما أعلم أحـدا مـن الرجال جاء قومه بأفضل مما جئتكم به. فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر؟ ". فإنتفض الصبي الذي تشـرب الإسـلام مـن الرسول، وهو يرى العشيرة الأقربين ينصرفون عن رسـول الله، صاح الصبي بصوته الذي كان ما يزال بعد ناعما، وهو يلوح بذراعه في الهواء كأنه يتحدى المجهول: " أنا يا رسول الله عونك. أنا حرب على من حاربت! "..

وضحكت العشيرة!

غير أنها لم تضحك طويلاً!

فما هي إلا سنوات قلائل، حتى أصبح علـى فتـى فتيان بني هاشم، يحمل لواء الرسول فـي كـل الغـزوات، ويشهد معه المشاهد إلا تبوك! ذلك أن الرسول استخلفه مكانه على المدينة.

ثم إن الرسول ❐ حين نزلت الآية الكريمة: " يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ". دعا عليا وفاطمة والحسن والحسين وألقى عليهم برده قائلاً: " يارب هؤلاء هم أهل بيتي ".

وحين نزلت آية المباهلة: " قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ". إلى آخر الآية الكريمة. جمع الرسول علِيا وفاطمة وأولادهما، وقال: " اللهم هؤلاء هم أبنائي ".

ويوم غدير خم والنبي عليه الصلاة والسلام بين صحابته، أمسك بيد عِلي ورفعها وقال: " من كنت مولاه فعلى مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ".

فقال عمر بن الخطاب، وكانت بينه وبين على مودة ودعابة: " هنيئا لك يا ابن أبي طالب. أصبحت مولاي ومولي كل مؤمن، ومؤمنة "!.

وفي غزوة خيبر قال الرسول: " لأعطين الراية غدا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ليس بفرار، يفتح الله على يديه ".

فتمني كل الفرسان من الصحابة أن يعطيهم الرسول الراية، وقال عمر: " ما تمنيت الإمارة إلا تلك الليلة ". وفي الصباح دعا الرسول بأصغر فرسان الله: عِلي بن أبي طالب، فأعطاه الراية، ففتح الله عليه.

وقال رسول الله حين زوج ابنته فاطمة الزهراء عِلي بن أبي طالب، قال لها:

" زوجك سيد في الدنيا والآخرة ".

وجعل يدعو لهما كما لم يدع الله لأحد غيرهما.

وقد تزوجا في السنة الثانية للهجرة على أثاث قليل خشن. وكانت تطحن له الشعير والقمح وتصنع الخبز وكان على يساعدها في عمل المنزل..

تعود أن يشترك في عمل المنزل أسوة برسول الله.

وعندما نزل الكوفة، وتولي أمر المؤمنين بعد عثمان، عاش في أدنى بيت من بيوت المسلمين في الكوفة.

وكان يدير طاحونة اليد بنفسه، يطحن عليها الشعير والقمح، ليصنع منه أهل بيته الخبز..

ولم يتبدل ولم يتغير، وهو يحكم أكبر دولة، وأغنى دولة عرفها ذلك الزمان!!..

ذلك أنه يملك خصالاً من الزهد امتاز بها، وهي خصال وفرت له خصائص الإمامة، لا سيما الملك!

وفي الحق أنه كان متعدد المواهب بحيث يصعب أن نحصيها عدا.

ومع ذلك فقد حاول الأولون حصر مناقبه.

قال ابن عباس: " لعِلي أربع خصال ليست لأحد غيره: هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله ، وهو الذي كان لواء الرسول إليه في كل زحف، وهو الذي صبر معه يوم فر عنه غيره. وهو الذي غسله وأدخله قبره ".

أما حسن البصرى فقد سأله رجل عن عِلي بن أبي طالب فقال: " كان والله سهما صائبا من مرامي الله على عدوه، وكان رباني هذه الأمة، وذا فضلها، وذا سابقتها، وذا قرابتها من رسول . أعطى القرآن عزائمه، ففاز منه برياض مونقة. ذلك عِلي ابن أبي طالب رضي الله عنه يالكع! "

وفي الحق أنه شهد منذ صباه نزول آيات القرآن الكريم، منذ كان في حجر النبوة، وتفقه في أسباب النزول، والتفسير، وعايش السنة الشريفة عملاً وقولاً فتفقه فيها

جميعا.. حتى لقد صح ما قالـه فيه الرسول: " أنا مدينة العلم وعلى بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه ".

***

وقال الإمام أحمد بن حنبل: " لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعِلي من مناقب. فمناقبه كثيرة ".

وزاد غيره: " وسبب ذلك بغض بني أمية له، فكان كل من عنده علم عن شيء من مناقبه من الصحابة يثبته. وكلما أراد بنو أمية إخماده، وهددوا من حدث بمناقبه لا يزداد إلا انتشارا ".

على أن هذا الفارس الذي حمل راية الرسول في بدر وهو ابن عشرين عاما، والذي ما بارزه أحدا إلا قتله.. هذا الفارس الشجاع ذو القوة البدنية الخارقة، كان يتمتع بقوة ذهنية خارقة أيضًا.

فمن روائع بلاغته، ومن فيض حكمته، ومن نفحات عقله نشأت علوم كثيرة.. كعلوم الفقه والنحو والحساب والزهد والتصوف الواعى والكلام، وغير ذلك من علوم الدين والدنيا.

وكان ذا هيبة خاصة تجعل الناس يتحرزون أمامه من الخطأ.

عندما علمت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بمصرع الإمام على كرم الله وجهه قالت: فالتصنع العرب ما شاءت، فليس لها أحد ينهاها ".

لقد كان يملك هذه الطاقة الخارقة على الصبر، كما تعلم منذ طفولته في حجر النبوة.

فعندما تخلف بعض الناس عن بيعته أبي أن يذلهم، واكتفي بقوله عنهم: " أولئك قوم خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل.. تخلفوا عن الحق، ولم يقوموا مع الباطل ".

على أن لكل صفة نادرة من هذه الصفات لشأنًا عظيما فيما سيستقبله كرم الله وجهه من أيام حياته..

ومن هذه الصفات ما روى عن رسول الله ❐ كما أثبته الإمام أحمد بن حنبل في مسنده بسند جيد: " قيل: يا رسول الله من تؤمر بعدك؟ قال: إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أمينا زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة، وإن تؤمروا عمر تجدوه قويا أمينا لا يخالف في الله لومة لائم، وإن تؤمروا

عليا وما أراكم فاعِلين تجدوه هاديا مهديا يأخذكم بالطريق المستقيم ".

كان ❒ حريصا عليه، وكان به حفيا.

ولكنه لم يوص به خليفة له.

ولم يوص بأحد يخلفه.

بل ترك الأمر للمسلمين على نحو ما جاء في الحديث السابق، يختارون حاكمهم بمحض إرادتهم الحرة.

***

وكان على كرم الله وجهه – على ما عرف به من حياء – جسورا في الحق، لا يتهيب في سبيل تحرى الحقيقة شيئًا، لا يستحيى من البحث والتقصى، فلا يظلم أحدا. فهو لا يريد أن يحكم بمظاهر الأمور، لأن من الظاهر ما يظلم!..

لما هاجر، وهو دون العشرين، إلى يثرب بعد الرسول ❒ بثلاثة أيام نزل بقباء وهي على أول الطريق إلى يثرب، وأقام بها ليلتين. ويروى كرم الله وجهه أنه كانت بقباء امرأة لا روج لها، مسلمة. قال: رأيت إنسانًا يأتيها في جوف الليل فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه فيعطيها شيئًا

فتأخذه. فاستربت بشأنه فقلت لها: يا أمة الله، من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة، فتخرجين إليه فيعطيك شيئًا لا أدري ما هو وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هـذا سهل بن حنيف، قد عرف اني امرأة لا أحد لى، فإذا أمسـى غدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها فقال: احتطبـي بها ".

منذ طلع عمره تعـود كـرم الله وجهـه أن يقـتحم الضباب على الريب ليجلوا الحقيقة، ويزيل الريبة.

وهذا النهج في علاج الأمور، وتقصى الحقيقة فيمـا وراء المظاهر سيعين على إقامة العدل في عهد عمر حـين يغدو على صاحب الشورى في أمور الفقه والقضاء، حتـى ليقول عمر " لولا على لهلك عمر ".

على أن خير ما يمكن أن نجمل فيه مناقب على كرم الله وجهه وخصائصه، هو ما كتبه الزمخشري عـن مناقبـهفيما صنفه عن مناقب العشرة الكـرام البـررة (المبشـرين بالجنة)..

أجمل الزمخشري مناقب عِلي بن أبي طالب كرم الله وجهه في ثمان عشرة خاصة نوجزها فيما يلي:

الخاصة الأولى: أنه أول من أسلم من الصبيان وأول من يدخل الجنة في هذه الأمة، وقال رسول الله ❐ " يا على إنك أول من يقرع باب الجنة فتدخلها بغير حساب بعدي ".

الخاصة الثانية: إنه المتخلف على الودائع من قبل رسول الله ❐ في وقت الهجرة وبقي بمكة ثلاث ليال بأيامها حتى رد ما كان عند الرسول من ودائع لأصحابها. ثم خلفه الرسول ❐ على العيال والنساء بالمدينة في وقت الخروج إلى غزوة تبوك حتى بكى رضي الله عنه – قال: " يا رسول الله إن قريشًا تقول إن رسول الله قد استقله فتركه ".

فقال النبي: " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ".

الخاصة الثالثة: أن النبي ❐ لما أخي المهاجرين والأنصار جعل علِيا أخا نفسه الكريمة، وقال له " أنت أخي وصاحبى في الدنيا والآخرة ".

الخاصة الرابعة: أنه الممدوح بالسيادة لما روى: أن النبي ❐ قال لفاطمة رضي الله عنها: " زوجك سيد في الدنيا والآخرة ".

الخاصة الخامسة: أنه ولي الله وولي رسوله، وولـي المؤمنين. قال الله تعالى:" إنما وليكم الله ورسوله والـذين آمنوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون " (المائدة – الآية ٥٥).

نزلت الآية الكريمة في حق على كان يصلي فـي المسجد وهو راكع، قام سائل يسأل، فمد على يده إلى خلفـه وأومأ إلى السائل بخاتمه، فأخذه من أصبعه.

وقد قال الرسول ❐ : " من كنت مولاه فعلى مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ".

وهذا الحديث الشريف في مسند الإمـام أحمـد بـن حنبل.

وفيه روايات مختلفة منها أن الرسول ❐ قال للنـاس يوم غدير خم (وخم اسم الغدير) قال: " اللهم مـن كنـت مولاه فعِلي مولاه. اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه ".

وزاد أحد رواة الحديث: " وانصر من نصره واخذل من خذله ".

الخاصة السادسة: أنه أقضى الصحابة. لقول الرسول ❐ : أقضاكم عِلي ".

الخاصة السابعة: أنه محبوب المؤمنين ومبغوض المنافقين.

قال له النبي ﷺ : " لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق" (وهذا الحديث أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده، وأخرجه كثير غيره مع اختلاف في الألفاظ).

الخاصة الثامنة: أن رسول الله ﷺ انقطع عن أصحابه لأجل على فنادى الناس بعضهم بعضا: " أفيكم رسول الله ﷺ؟ ". حتى جاء الرسول ومعه عِلي بن أبي طالب، فقالوا: " يا رسزل الله فقدناك ". فقال: " إن أبا الحسن وجد مغصا في بطنه فتخلفنا عليه "...

الخاصة التاسعة: أنه باب مدينة العِلْم كما جاء في الحديث الشريف: أنا مدينة العلم وعلى بابها (الحديث).

الخاصة العاشرة: أنه ذو الأذن الواعية.

روى أنه لما نزل قوله تعالى: " وتعيها أذن واعية " (سورة الحاقة مكية الآية ٢١)

قال رسول الله ﷺ : " سألت الله – عز وجل – أن يجعلها أذنك يا عِلي ".

قال عِلي : " فيما نسيت شيئًا بعد ذلك وما كان لي أن أنسى ".

وشرح الومخشرى عبارة " أذن واعية " في تفسيره المعروف باسم " الكشاف عن حقـًائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل ": " أذن واعية من شأنها أن تعى وتحفظ ما سمعن به ولا تضيعه بترك العمل. وكل ما حفظته من نفسك فقد وعيته وما حفظته من غير نفسك فقد أوعيته ".

أي أن الرسول دعا له بالتفوق في الفهم والوعى والعمل. هذا ما لم يدع به لغيره بل اختصه به هو وحده.

ونلاحظ أن الزمخشري لم ينفرد بهذا التفسير فقد جاء في تفسير ابن كثير أن رسول الله قال: لما نزلت عليه هذه الآية: " سألت ربي أن يجعلها أذن علـى ". فكان عِلي يقول: " ما سمعن من رسول الله شيئًا قط فنسيته " وفي تفسير ابن جرير أن رسول الله قال لعِلـي: " انـي أمرت أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك، وأن تعى، وحق لك أن تعى ". فنزلت الآية.

الخاصة الحادية عشرة: إنه جمع ثلاث مفاخر لم تجمع لأحد سواه. لما روى أن الرسول قال له: " يا على! أعطيت ثلاثا لم يعطها أحد غيرك: صهرا مثلي، وزوجة مثل فاطمة، وولدين مثل الحسن والحسين".

الخاصة الثانية عشرة: أنه صعد على منكبي رسول الله ❐. لما روى على كرم الله وجه في قصة قمع الأصنام.

قال: " انطلق رسول الله ❐ إلى الكعبة فقال لـى: " اجلس " فجلست، فصعد على منكبي.

فقال لي: " انهض "، فنهضت. فعرف ضعفي تحته.

قال لي " اجلس " فجلست.

ثم نهض بى رسول الله ❐ فخيل إلى أنني لو شئت نلت أفق السماء. فصعدت إلى الكعبة.

وتنحى رسول الله ❐ وقال: " الق صنمهم الأكبر، صنم قريش ".

وكان من نحاس موتد بأوتاد من حديد في الأرض. فقال. فقال رسول الله ❐: " عالجه ".

فجعلت أعالجه، حتى استمكنت منه فقال: " أقذفه "، فقذفته حتى انكسر.

ونزلت من فوق الكعبة، انطلقت أنا والنبي ❐ نسعى، وخشينا أن يرانا أحد من قريش وغيرهم ".

الخاصة الثالثة عشرة: أنه حاز سهم جبريل عليه السلام، منغنائم تبوك.

روى أن رسول الله ﷺ لما غزا تبوك، استخلف عليًا على المدينة.

فلما نصره الله ورسوله وغنم المسلمون أموال المشركين ورقابهم، جلس رسول الله ﷺ وجعل يقسم السهام على المسلمين سهمًا سهمًا.

ودفع إلى عِلي بن أبي طالب سهمين.

فقام أحد الصحابة يسأل: " يا رسول الله! أوحي نزل من السماء أم أمر من نفسك؟ ".

فقال رسول الله ﷺ: أنشدكم الله! هل رأيتم في رأس ميمنتكم صاحب الفرس الأغر المحجل والعمامة الخضراء، لها ذؤابتان مرخاتان على كتفيه، بيده حربه، قد حمل على الميمنة فأزالها، وحمل على الميسرة فأزالها، وحمل على القلب فأزاله ".

قالوا: " نعم لقد رأينا ".

قال " هو جبريل، وإنه أمرني أن أدفع بسهمه لعِلي ".

الخاصة الرابعة عشرة: أن النظر إلى وجهه عبادة. لما روت عائشة – رضي الله عنها – قالت: " رأيت أبي يديم النظر إلى وجه عِلي – رضي الله عنهما – فسألته

عن ذلك، فقال: " ما يمنعني من ذلك ورسـول الله يقـول: " النظر إلى وجه على عبادة "؟

الخاصة الخامسة عشر: أنه أحب الخلق إلى الله بعد رسول الله ❐ لنا روى أنس ابن مالك الأنصاري رضــي الله عنه قال: " أهدى إلى رسول الله ❐ فرخان مشويان، فقال: " اللهم سق أحب خلقك إليك، ليأكل معي":

قال أنس: وكنت على الباب فجاء رجل فردته، رجاء أن يجئ رجل من الأنصار.

ثم جاء على رضي الله عنه فأذنت له، فقال رسـول الله ❐: " لتأكل يا على، فإنت أحب خلق الله إليه، فقد دعوت الله تعالى أن يسوق أحب خلقه إليه ". (أخرجه عدد من أهل الثقة من رواة الأحاديث مع اختلاف في الألفاظ).

الخاصة السادسـة عشـرة: أن الرسـول ❐ سـماه يعسوب المؤمنين.. واليعسوب أمير النحل الذي تنقـاد إليـه ويقوم بمصالحها، ويرجع إليه في أمورها.

وقد قال على كرم الله وجهه في ثنائه علىأبي بكـر رضي الله عنه: " كنت للدين يعسوبا أولاً حين نفر الناس منه ".

وفي الحديث الشريف رواية أخرى اعتمد عليها عِلي كرم الله وجهه فقال: " أنا يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الكافرين والمنافقين ".

الخاصة السابعة عشرة: أن النبـي سماه رزأ الأرض (مهموز وغير مهموز وهي مهموزة تعني الصوت والصوت جمال الإنسان، فكأنه قال تعالى أنت جمال الأرض أو صوت الأرض. والرزا بغير همزة هو الرجل المنفرد الوحيد، فكأنه قال: أنت وتد الأرض وهو صفة مدح).

الخاصة الثامنة عشر: أن النبي تولي تسميته، وأمصه لسانه.

هذا هو موجز ما جمعه الزمخشري من مناقب على كرم الله وجهه، فيما جمعه عن خصائص العشرة الكرام البررة المبشرين بالجنة، وهم الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى، ثم طلحة والزبير بـن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد ابن أبي وقاص , وسعيد بـن زيد بن عمر بن نفيل، وأبو عبيدة الجراح.

وهؤلاء الذين نزل فيهم قوله تعال (في سورة التوبة آية ١٠٠): " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصـار

والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ".

صدق الله العظيم

***

وقصارى ما يقال في فضائل عِلي□ كرم الله وجهه، أنه تعلمها من الرسول ❒، منذ نشأ في حجر الرسول، وترعرع في أحضان النبوة..

الرسول ❒ هو الذي أسماه..

وهو الذي كناه.

وهوالذي أطلق عليه، حين نضجت مناقبه " إمام المتقين ".

الفصل الثاني

لا فتى إلا عِلي !

غدا على رسول الله بعض كبار المهاجرين والأنصار يخطبون إليه ابنته فاطمة، ، فسكت عنهم الواحد بعد الآخر. حتى جاءه عِلي فوافق على مهر قليل، سأل النبي فيه عليا إن كان يطيقه، وإلا خففه عنه، فأبدى عِلي سروره، وانطلق يدبر المهر.

دعا الرسول عدد من المهاجرين والأنصار فقال لهم: " إن الله جعل المصاهرة سببا لاحقًا، وأمرا مفترضا أوشج به الأرحام، وألزم الأنام، فقال عز من قائل: (وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا) فأمر الله تعالى يجرى إلى قضائه، وقضاؤه يجرى إلى قدره، ولكل أجل كتاب (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة بنت خديجة من عِلي ابن أبي طالب، فأشهدوا أني زوجته على أربعمائة مثقال فضة ".

ثم أهداهما عليه الصلاة والسلام بساطًا من الصوف الأبيض.

وخفت نساء الأنصار الثريات، فأهدين فاطمة رداءين جميلين للزفاف، وبعض حقائق من الطيب والعطور، وأقرضتها بعض الحلي من الذهب والجواهر النادرة.

وأمر رسول الله زوجتيه عائشة وأم سلمة أن تجهزا فاطمة حتى يدخلاها إلى علي، وأن يقوما منها مقام أمها خديجة رحمها الله. فعمدتا إلى بيت ففرشتاه رملاً ليناً من أعراض البطحاء، ثم إلى وسادتين فرشتاهما ليفا نفشتاه بأيديهما، وعمدتا إلى عود فعرضتاه في جانب البيت لتلقى عليه الثياب وتعلق القربة. وقالتا بعد العرس: " ما رأينا عرسا أحسن من عرس فاطمة ".

وما كان جهاز فاطمة الزهراء بنت رسول الله ❐ إلا سريرا من الخوص مشدودا بالحبال، ووسادتين حشوهما ليف، وبساط صوف، وجلد كبش يقلب على صوفه فيصير فراشا، وإناء سمن جاف يطبخ به، وقربة للماء، وجرة وكوزا، ورملاً مبسوطاً..!!

وقال الرسول ❐ : " يا عِلي. إنه لابد للعروس من وليمة ". فقال أحد أغنياء الأنصار: " عندي كبش " فأعده صاحبه، ودعا علي رهطاً من المهاجرين والأنصار،

وأحضروا الطيب والزبيب والتمر، ولما طعم المدعوون وانصرفوا، ولم يبق إلا عِلي ، ذهب رسول الله ❐ ينادي ابنته فاطمة، وكان النساء قد انصرفن عنها بعد انتهاء الوليمة، فوجد معها امرأة، فسألها الرسول عما يبقيها، قالت: " أنا التي أحرس ابنتك، إن الفتاة ليلة بنائها (زفافها) لا بد لها من امرأة قريبة منها إن عرضت لها حاجة أو أرادت أمرا أفضت بذلك إليها). فقال للمرأة، وهي أسماء بنت عيسي: " فإني أسأل إلهي أن يحرسك من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك من الشيطان الرجيم ".

ثم جاءت العروس فاطمة، وقد طيبها النساء بما جئن به إليها من طيب، وزينَها وألبسنها بما أهدينها من ثياب جديدة، وحليتها بأغلى حليهن على أن تردها إذا كان الغد!!

فلما رأت فاطمة عريسها علِيا جالسا إلى جوار أبيها ❐ بكت!

وخشي أبوها أن يكون سبب بكائها أنه زوجها فتى لا مال له آثره بها، وفضله على خطاب كثيرين ردهم من قبل من أغنياء المهاجرين والأنصار، وإن كانوا جميعا لفي سن أبيها!! وعلى وحدة أقربهم إلى سنها.

سألها أبوها عما يبكيها.

فلم تجب!..

ما يبكي عروسا ليلة زفافها؟!

لعلها تذكرت أمها الراحلة السيدة الطاهرة أم المؤمنين خديجة!.. فتمنت لو أنها كانت معها بدل أسماء بنت عميس، في هذه الليلة الفريدة من العمر!!.. ولو أن خديجة أمها هي التي جهزتها بدل زوجتى أبيها!!

وحاول الرسول أن يكفكف دمع ابنته بلا جدوى، فقد ظلت دموعها تسيل في صمت، وأخذه عليها إشفاق حزين..

فأقسم لها إنه لم يألُ جهدا ليختار لها أصلح الأزواج، وما اختار لها إلا خير فتيان بني هاشم.. وأضاف: " والذي نفسي بيده لقد زوجتك فتى سعيدا في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين ".

وطلب الرسول ﷺ من أسماء أن تأتيه باناء ماء معطر.. فرش مزنه على جلد فاطمة وجلده، وعلى رأسه وقال: " اللهم إنها مني وإني منها، اللهم كما أذهبت عني الرجس وطهرتنى فطهرها. اللهم اني أعيذها وذريتها بك من الشيطان الرجيم ".

ثم صنع بعِلي كما صنع بفاطمة، ودعا له كما دعـا لها.

وقال: " اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الـرجس وطهرهم تطهيرا " فقال على: " يا رسول الله أنا أحب إليك أم هي؟ " قال: " هي أحب إلى منك، وأنت أعز على منها ". ثم قال: " اللهم إني أعيذه بك وبذريته من الشيطان الرجيم ". ثم دعا لهما وهو يتركهمـا وحـدهما: " جمـع الله شملهما وأسعد جدكما وبارك عليكما، وأخرج منكمـا كثيـرا طيبًا ".

***

وتعود الرسول أن يزورها، وكان كلما وجد عليهمـا آثار الفقر والزهد واسي ابنته.. وبشرها أنها ستكون من خير نساء الجنة.. قال: " حسبك إن خير نساء العالمين مريم ابنـة عمران، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون. فإنت منهن ".

كان إذا أوصى عِليا بها قال: " فاطمة بضـعة منـي يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها ".

وفي الحق أن علِيا وضعها على العين والرأس، وأحسن معاملته.. بل لقد حمل عنها عبء كثير من أعمال البيت!

وقبل أن تعود الغزوات بالغنائم، ويأخذ منها نصيبه، كان يعمل ويؤجر نفسه ويكسب من كد يده، ويعود بما كسب، فيشتري منه ما يقيم الأود.. وعندما رزقا بالبنين ثقلت أعباء الحياة عليهما، وشق عليها عمل المنزل، وما من أحد يساعدها غير زوجها...

ولقد أجهدتها الرحى التي تطحن بها الشعير، وأجهدها عمل المنزل وتربية الأولاد، فسألت أباها بعد إحدى الغزوات التي غنموا فيها كثيرا أن يمنحها ما يساعدها، ولكنه ما كان ليعطيها غير ما يستحقه زوجه!..

ولقد تأخر بلال يوما عن الأذان، فسأله الرسول عما أخره فأخبره أنه مر بدار عِلي فوجد فاطمة مجهدة تدير الرحى، وابنها الحسن يبكي، فآثر أن يدير الرحى ويطحن عنها الشعير، لتتفرغ هي لإرضاع الطفل!!

ومرض الحسن والحسين، مهما صبيان، فعادهما جدهما ومعه بعض صحابته. ونبه وهو على باب دارهما أن

معه غرباء، ورمي إليها بردته وهي خلف الباب لتغطى بها من جسمها ما لا ينبغي أن يراه الغريب!

وقال أحد الصحابة لعِلي: " يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك نذرا ". فقال عِلي: " إن برئا مما بهما صمت الله عز وجل ثلاثة أيام شكرا ". وقالت فاطمة كذلك. وقال الغلامان كذلك. لما برئا أصبح الجميع صياما وما في الدار شيء من طعام يفطرون عليه.

فغدا عِلي بن أبي طالب على جار يهودي له يدعى شمعون، كان يعالج الصوف، فقال له: " هل لك أن تعطيني جزة من الصوف تغزلها لك بنت محمد بثلاثة أصواع شعير؟ " قال: " نعم". فأعطاه فجاء بالصوف والشعير، فأخبر فاطمة، فقبلت وأطاعت. ثم غزلت ثلث الصوف، ,أخذت صاعا من شعير فطحنته وعجنته وخبزته... وصل على المغرب بالمسجد مع رسول الله، ثم أتى منزله ليفطر، فوضع الخوان فجلسوا فأول لقمة كسرها عِلي، إذا مسكين واقف على الباب فقال: " يا أهل بيت محمد. أنا مسكين من مساكين المسلمين. أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة ".

فدفع عِلي الطعام إلى المسكين. وباتوا جياعا، وأصبحوا صياما!.

وفي اليوم التالي طحنت فاطمة الصاع الثاني، وخبزته، ووضعت الطعام ليفطروا، إذ وقف بالباب يتيم من أولاد المهاجرين استشهد أبوه، فأعطوه الطعام!. وفي اليوم الثالث طحنت آخر صاع وخبزته، وعند المغرب وضعت الطعام، إذ وقف بالباب أسير يقول " السلام عليكم أهل بيت النبوة، تأتسروننا ولا تطعموننا. أطعموني فإنا أسير " فأطعموه الطعام..!

وأقبل عِلي ومعه الحسن والحسين يرتعشان كالفرخين من شدة الجوع على رسول الله فقال: " يا أبا الحسن! لشد ما يسوءنى ما أدرككم. انطلقوا بنا إلى ابنتي فاطمة ". فانطلقوا إليها وهي في محرابها، وهي قد غرت عيناها من شدة الجوع، فقال عليه الصلاة والسلام: واغوثاه! ..." ثم ضمها إليه.

فإنزل الله تعالى آيات من سورة الإنسان.. أولها الآية.. " هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورا ". إلى قوله تعالى: وجزاهم بما صبروا جنة

وحريرا". وفيها يتحدث سبحانه وتعالى عن الأبرار: "يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ".

***

على أن حياة الشظف لم تشغل علِيا ولا فاطمة عن المتاع العقلي والروحي وما كان يجدانه في تدارس القرآن، وتعمق معانيه، وفي تدبر السنة الشريفة وفي التفكير في خلق السموات والأرض كما أمر الله عباده أول الألباب.

كان على يستشير امرأته، ويبرها، ويسكن إليها، ويستقيم على طريق الهداية كما أمر الله ورسوله.

وما انفك الرسول ❐ يوصي الرجال بحقوق النساء، ويحسن صحبتهن، ورعايتهن.

وعِلي وفاطمة يتبادلان المعارف، ولا يأنف أحدهما أن يستقي من الآخر علما لا يعلمه.

وإن هذا التقدير للنساء هو من تقاليد الفرسان ومن آداب الفتوة التي كان يحرص عليها عِلي كرم الله وجهه. وهو أفتى فرسان الله، وأحرص الناس على اتباع الرسول.

ويروى عنه أنه قال: " قال لنـا رسـول الله ذات يوم: أى شيء خير للمرأة؟.

فلم يكن عندنا لذلك جواب. فلما رجعت إلى فاطمة قلت: يـا بنت محمد! إن رسول الله سألنا عن مسألة فلم ندر كيـف نجيبه. فقالت: وعن أى شيء سألكم؟ فقلت قال:أى شيء خير للمرأة؟. قالت: فيما تدرون ما الجواب؟ قلت لها: لا. فقالت: ليس خير للمرأة من أن لا ترى رجلاً ولا يراها! فلما كـان العشي جلسنا إلى رسول الله فقلت له: يا رسول الله إنـك سألتنا عن مسألة فلم نجبك عليها. ليس للمرأة شيء خير من ألا ترى رجلاً ولا يراها. قال: ومن قال ذلك؟ قلت: فاطمـة قال: صدقت فاطمة إنها بضعة منه ".

ولقد أهدى إلى عِلي وفاطمة بعض الفالوذج فأطعماه أولادهما ولم يطعما منه. وقال عِلي وقد وضعه أمامه: " إنك طيب الريح واللون طيب الطعم، لكني أكره أن أعود نفسـي ما لم تعتده " (والفالوذج حلو تصنع مـن الـدقيق والمـاء والعسل).

وكان الرسول كلما عاين زهده وورعـه، أثنـى عليه، ودعا الله له ولزوجه وبنيه.. قال له يوما: " يا علـى!

إن االله تعالى قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إلـى أالله تعالى منها وهي زينة الأبرار عند االله عز وجل: الزهـد في الدنيا، فجعلك لا ترزأ (أى تصيب) من الدنيا شـيئًا ولا ترزأ منك الدنيا شيئًا، ووهب لك حب المسـاكين، فجعلـك ترضي عنهم اتباعا ويرضونك إماما، فطوبى لمـن أحبـك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب عليك. فأمـا الـذين أحبوك وصدقوا فيك فهم (في الآخرة) جيرانك فـي دارك ورفقاؤك في قصرك، وأما الذين أبغضوك وكذبوا عليك فحق على االله أن يوقفهم موقف الكذابين ".

كان عليه الصلاة والسلام عندما يأخذ عِليا وفاطمـة بآداب الدين يطرح لهما السؤال فإذا وافق الجواب ما يرد أن يعلمهما أياه استحسنه، وإلا صححه.. سأله الرسول يوما: " يا عِلي! كيف أنت إذا زهد الناس في الآخرة ورغبـوا فـي الدنيا، وأكلوا التراث أكلاً لما، وأحبوا المال حبا جما؟ ".

قال على: " أتركهم وما اختاروا وأختار االله ورسوله والدار الآخرة وأصبر على مصيبات الدنيا وبلواهـا حتـى ألحق بك إن شاء االله تعالى ". قال الرسول: " صدقت. اللهـم افعل ذلك به ".

وما كان زهد على في الدنيا زهد هارب منها، ولكنه زهد المنشغل عن إسعاد نفسه بمتاعها، إلى إسعاد الآخرين، من أجل ذلك أحب من اللباس أخشنها وهو الصوف!!

وإنه في أغوار نفسه ليشعر بالرضا كلما أمكنه أن يسد حاجة لمحتاج، ولو بكل ما عنده، واثقًا في أن الله سيعوضه خيرا.. فما هو زهد العازف عن الحياة، ولكنها تقوى العارف بالله!

جلس في سوق المدينة المنورة ومعه ابنه الحسن وهوصغير، ومر سائل مسكين، فرق على له فقال للحسن: " اذهب إلى أمك فقل لها: تركت عندك سنة درتهم. فهات منها درهما ". فذهب الحسن إلى أمه ثم رجع إلى أبيه فقال: " أمي تقول لك إنما تركت ستة دراهم للدقيق ". فقال على: " لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده، قل لها ابعثى بالدراهم الستة جميعا. فبعثت بها إليه فدفعها كلها إلى السائل وبعد لحظات مر به رجل معه جمل يبيعه. فقال على: " بكم الجمل؟ " قال الرجل: " بمائة وأربعين درهما". قال على إنه يشتري الجمل، ولكنه سيدفع ثمنه بعد حين! فوافق صاحب الجمل، وتركه لعِلي ومضى. ثم أقبل

رجل آخر فقال: " لمن هذا البعير؟ ". قال عِلي " لي ". قال الرجل: " أتبيعه ". قال: " بكم؟ ". قال: "بمائتى درهم ". فأخذ الرجل البعير وأعطى علِيا المائتين، فأعطى صاحب الجمل – حين عاد إليه – حثه، وهو مائة وأربعون درهما. وجاء بستين درهما إلى فاطمة. فقالت " ما هذا؟ ". قال: " هذا ما وعدنا الله على لسان نبيه ❐ من جاء بالحسنة فلها عشر أمثالها ".

عربد عليه أحد حساده، فنصحه بعض أن يشكوه إلى رسول الله ❐ فقال: " اني لأستحى من الله أن يكون هناك ذنب أعظم من عفوى، أو جهل أعظم من حلمي، أو عورة لا يداريها سترى، أو خلة (الحاجة والفقر) لا يسدها جودي ".

وكان أحيانًا لا يجد عملاً يقتاب منه إلا أن يملأ الدلو في بستان أحد الأغنياء من يهود المدينة، ليروى به البستان، وكان اليهودي يعطيه في كل دلو تمرة، فيعود إلى فاطمة بترم يطعمها هي وأولادها، وربما أهدى من الرسول إذا أصابته عليه الصلاة والسلام خصاصة.. ولكم كانت تصيبه!!.. هكذا كان يؤتى ماله يتزكى، وما لأحد عنده من

نعمة تجزى، إلا ابتغاء ربه الأعلى، ولسوف يرضى.. وفي الحق أنه كان عند ربه مرضيا.

***

على أن هذا الزاهد الذي يكاد يذوي من الجوع، كانت تعتريه القوة إذا انشغل بالعلم الذي تلقاه عن رسول الله، أو بالجهاد في سبيل الله.. كانت تتلبسه الشجاعة والقدرة البدنية الخارقة، في المواقع التي شهدها مع الرسول منذ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير!

إن عليا لمن أفتى فرسان الله. كان في نحو العشرين، يوم بدر.. وتقدم أقوى فرسان قريش يتحدون المسلمين، ويستفزون محمدا، ويطلبون أقوى فرسانه للمبارزة.

برز من صناديد المشركين عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد فقالوا: " من يبارز؟.

فخرج مع امسلمين فتية من الأنصار، فقال عتبة: " لا نريد هؤلاء، ولكن يبارزنا من بني أعمامنا من بني عبد المطلب ". فقال رسول الله ❐ : " قم يا حمزة، قم يا عبيدة، قم يا على ". فبرز حمزة لعتبة فقتله، وبرز على الوليد بن عتبة فقتله،

وقتل عبيدة بن الحارث شيبة بمساعدة حمزة وعلى، بعد أن قطع شيبة رجل حمزة.

ونزلت في ذلك الآية الكريمة " أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ". فالذين آمنوا هم حمزة وعِلي وعبيدة بن الحارث. و " المفسدون في الأرض " هم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة.

وعندما التحم الجمعان فعل حمزة وعلى في جيش المشركين الأفاعيل، كما أبلى المجاهدون في سبي ل االله بلاء حسنًا.

قال على: " قاتلت يوم بدر قتالاً ثم جئت إلى النبي فإذا هو ساجد يقول: يا حى يا قيوم. ثم ذهبت فقاتلت ثم جئت فإذا النبي ساجداً يقول: يا حى يا قيوم ففتح االله عز وجل عليه ".

وفي يوم بدر قتل على أصحاب ألوية قريش، فأبصر الرسول جماعة من مشركي قريش فقال لعِلي: "أحمل عليهم " فحمل عليهم ففرق جمعهم، وفروا، وقتل منهم سيد بني جمح. ثم أبصر الرسول جماعة أحرى من المشركين

فقال لعِلي : " أحمل عليهم " فحمل عليهم ففرقهم وقتل منهم سيد بني عامر بن لؤى.

وفي يوم بدر قتل على كثيرا من زعماء قريش، أما في يوم أحد فقد أصابته ست عشرة ضربة، وظل يطعن ويتلقى الطعنات، فيعالج، ويعود للطعان، وخرج إليه طلحة ابن أبي طلحة صاحب لواء المشركين فقال: " يا أصحاب محمد تزعمون أن الله يعجلنا بأسيافكم إلى النار ويجعلكم بأسيافنا إلى الجنة فأيكم يبرز إلي؟ " فبرز إليه علِي ابن أبي طالب وقال: " والله لا أفارقك حتى أعجلك بسيفي إلى النار". فاختلفا ضربتين، فضربه علِي فسقط إلى الأرض جريحا، وبانت عورته. فتوسل إلى عِلي :

" أنشدك الله والرحم يا ابن العم ". فانصرف عِلي عنه. فقال المسلمون: " يا عِلي هلا أجهزت عليه؟ ". فقال "ناشدني الله! ولن يعيش ". وظل طلحة ينزف حتى مات من ساعته.

وعاد من أُحد بصحبة الرسول ، وسيفاهما يقطران دما، فصليا بالمسجد، ثم دفعا بسيفيهما إلى فاطمة فغسلت عنهما الدماء. وعاد الرسول إلى بيته.

وفي غزوة الخندق واجه عمرو بن ود وهو مقاتل غادر فاتك من رءوس المشركين، وفارس لم يبارز أحد إلا صرعه. كان عمرو يقف على رأس خيله يتحدى المسلمين، فقال عِلي □ له: " يا عمرو قد كنت تعاهد الله لقريش ألا يدعوك رجل إلى إحدى خلتين إلا قبلت منه إحداهما ". فقال عمرو: " أجل ". فقال له عِلي □: " فإني أدعوك إلى الله عز وجل وإلى رسوله وإلى الإسلام ". فقال عمرو: " لا حاجة لى في ذلك ". فقال عِلي□: " فإني أدعوك إلى البراز ". فقال عمرو مستخفًا بصغر سن عِلي □: " يا ابن أخي لم؟ فوالله ما أحب أن أقتلك ". فقال على ساخرا في دعابة: " لكني والله أحب أن أقتلك "!! فأعرض عمرو، استخفافًا به، ثم أقبل على المسلمين مستهزئًا يقول: " من يبارز؟ ".

فقال عِلي□ للرسول: " أنا له يا نبي الله ". فقال الرسول: " إنه عمرو بن ود. اجلس ".

فجلس عِلي□ يكظم غيظه، ومضى عمرو بن ود يتبختر مزهوا يتنزى أمام المسلمين. ثم نادى في إزدراء على الجميع: " ألا رجل؟ " فاستأذن على الرسول ❐ أن يبارزه، فأذن له.

فمشى إليه على وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز إني

لأرجوك أن أقيم عليك نائحة الجنائز

فقال عمرو ساخرا: " من أنت؟ " قال على: " أنا علي ابن أبي طالب ". فقال عمرو: " عندك من أعمامك من هو أسن منك يا ابن أخي، فانصرف فإني أكره أن أهريق دمط ". فقال على: " ولكني واالله ما أكره أن أهريق دمك". فسل عمرو سيفه كأنه شعلة نار، ثم أندفع نحو على مغضبا، واستقبله على بدرقته فضربه في الدرقة فشقها وأثبت فيها السيف، وأصاب رأس على فشجه شجا يسيرا.. وضربه على كرم الله وجهه على حبل العاتق فسقط عمرو وثار العجاج، وبانت سوءة عمرو. وسمع رسول الله ❐ التكبير، فعرف أن عليا

قتل عمرو بن ود. وأقبل عِلي رضي الله عنه على رسول ❐ ووجهه يتهلل. فعانقه الرسول ودعا له.

فقال عمر بن الخطاب لعِلي: " هل استلبت درعه، فليس للعرب درع خير منها؟. فقال: " ضربته فاتقاني بسوءته فاستحييت أن أستلبه!! ".

وعن غزوة خيبر يروى أبو رافع مـولي الرسـول قال: " خرجنا مع عِلي حين بعثه رسول الله برايته، فلمـا دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجـل مـن يهود فطرح ترسه من يده، فتناول عـِلــي بابــا كــان عنـد الحصن، فترس به نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتـل حتـى

فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتنى في نفر مع سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه!".

كان على رأس هذا الحصن أحد شجعان يهود واسمه مرحب، وهو الذي طرح الترس من يد عِلي ، فإنقض عليـه كرم الله وجهه وبارزة متحصنًا بباب الحصن الثقيل، وطالت المبارزة، حتى أهوى على بسيفه على وجه مرحب، وسقط الحصن واستأذن من فيه، وغنم منه المسلمون مغانم كثيرة.

من أجل ذلك صاح نفر مـن المعجبين بـه مـن المسلمين: " لا فتى إلا على "!..

وكان هذا النداء يرج الآفاق كلما اشتبك في قتال، فيلهب منه الحماسة ويثير الحمية..

وقد شهدت أم سلمة (أم المؤمنين) رضي الله عنها غزوة خيبر فقالت: " سمعت وقع سيف عِلي بن أبي طالب في أسنان مرحب "!.

وقال عِلي بن أبي طالب: " والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدية ولكن بقوة ربانية ".

وفي يوم حنين كان عِلي بن أبي طالب من أشد الناس قتالاً بي يدي الرسول.

وعندما حاصر الرسول بني قريظة، وكان اللواء بيد عِلي صاح يستحث جنده: " يا كتيبة الإيمان ". ثم تقدم هو والزبير بن العوام وقال: " والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم ".

وقد أفاد الله من هذه الغزوات على المجاهدين وفي طليعتهم على، ولكنه كان يتصدق بكل ما يصل إليه، ولا يبقي في داره إلا ما يكفى الطعام والكساء: الطعام الذي يقيم الأود، والكساء النظيف الذي لا زخرف فيه ولا أبهة.

***

وبعثه الرسول أول مرة إلى اليمن في شهر رمضان من السنة العاشرة من الهجرة. عقد له اللواء، وعممه بيده وقال: " امض لا تلتفت، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ". فخرج في ثلاثمائة فارس، فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا ورموا بالنبل، ثم حمل عليهم بأصحابه. فتفرقوا وانهزموا، فكف عن مطاردتهم، ودعاهم إلى الإسلام، فأسرعوا وأجابوا، بايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام، وتبعهم أهل البلاد وقدوا حلالاً من الخز وأنعاما وأموا ًلا كثيرة لعِلي وقالوا: " هذه صدقاتنا فخذ منه حق الله "

وجمع على كرم الله وجهه الغنائم الكثيرة وقسم على أصحابه نصيبهم منها، وعاد بالباقي إلى رسول ، فوافاه بمكة حين وافاه الحج.

وعجل إلى الرسول، وترك عِلي جنده رجلاً من أصحابه. فعمد الرجل إلى الحلل التي كانت في الغنائم والتي حمله على معه لتكون من أموال المسلمين فكسا كل رجل من الجند حلة خز، فلما دنا الجيش خرج على ليلقاهم فإذا عليه الحلل. قال: " ويلك! ما هذا؟ ". قال " كسوت القوة ليتجملوا ". قال: " انزعها ويلك قبل أن تنتهي إلى رسول الله ! "

فإنتزع الحلل من الناس، وأعادها إلى مكانها مـن الغنـائم.

فاشتكى الناس علِيا فقام ❐ خطيبًا فقال: " يا أيـهـا النـاس لا

تشكو عليا فوالله إنه ليخشوشن في سبيل الله ".

***

الفصل الثالثزهد

العارفين

خرج أبو سفيان من مكة، حتى قدم على رسول الله ❐ في المدينة ليسترضيه، بعد أن نقضت قريش صلح الحديبية الذي أبرمته مع الرسول، ففتكت بحلفائه من خزاعة، عسى أن يصرف الرسول عما قد يرد به على نقض الصلح!.

فدخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة زوج الرسول، فلما ذهب يجلس على الفراش طوبة عنه، فقال: " يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ " قالت: " بل هو فراش رسول الله ❐، وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ❐ " قال: " والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر".

ثم خرج حتى أتى رسول الله ❐ فكلمه، فلم يرد عليه شيئًا.

ثم ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه واستشفع به عند رسول الله ❐، فقال: " ما أنا بفاعل ".

ثم أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكلمه، فقال: " أأنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ!؟ فو الله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به! ".

ثم خرج فدخل عِليّ عِليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وعنده فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها، وعندها ابنها الحسن بن على، وهو غلام يدب بين يديها. فقال: " يا عِليّ إنك أمس القوم بي وإني قد رحما،

جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائبا، فاشفع لي إلى رسول الله " فقال: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ". (يعني فتح مكة).

فالتفت إلى فاطمة فقال: " يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ ". قالت " والله ما بلغ ابني أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ ". قال: "يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت على فانصحني ". قال: والله ما أعلم لك شيئًا يغنى عنك شيئًا، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين

الناس، ثم الحق بأرضك ". قال: " أو ترى ذلك مغنيا عنـي شيئًا؟ ". قال: " لا واالله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك".

وهكذا رق عِلي بن أبي طالب، أسد االله وسيف الإسلام، لأبي سفيان عدو االله والإسلام، ورفق به، إذ وجده يتمرغ في الذلة والاستعطاف!

ذلك أن علِيا تعود أن يأخذ بيد من يسقط أمامه، أو بالقليل يدعه فلا يجهز عليه!.. كان شعاره: أحسن كما تحب أن يحسن الناس إليك. ومن ظن بك خيرا فصدق ظنه ".

إغاثة الملهوف، والرفق بالضعيف، والنجدة، والعطف على المستعطف... ثم الاكتفاء بما يسد الحاجة مهما تقبل الدنيا... كل أولئك كانت خصائص فتوته، وأخلاقه التي لابسها ولابسته حتى أوشكت أن تكون خليقة لا تخلقًا، وطبعا لا تطبعا!..

كان يقول لمن حوله: " أعينوا الضعيف، وانصروا المظلوم، وتعاونوا " ويقول: " البغي والزور يزريان بالمرء " ويقول: " الفقر منقصة للدين داعية للمقت ". ويقول: " من

كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب ".

ولقد كاد بعض هذه الفضائل أن يورده موارد الحتوف، في مواطن كثيرة مما يستقبله من الحوادث والرجال.. ولكنه ما نبا بهاتيك الفضائل، ولا نبت عنه!

حين رزق الله المسلمين غنائم كثيرة، اتسع رزق المجاهدين منهم، واتخذ بعضهم المزارع، والدور الكبيرة، وفاخر الرياش.. أما هو ونفر من كبار الصحابة رضي الله عنهم، فقد كانوا يتصدقون بما يغنمون!.

وما كان على لينتظر حتى يسأل سائل، بل كان يبحث هو نفسه عن صاحب الحاجة، والمسكين، واليتيم، والفقير والمحروم، يمضي إليهم هو ويعطيهم من ماله ما يعتقد أنه حق لهم معلوم. وكان يقول: السخاء ما كان ابتداء أما ما كان عن مسألة حياه وتذمم (فرار من الذم).

هكذا كان يؤتى ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى.. ولسوف يرضى! وقد جعله ربه راضيا.

واشد ما كان يرضي إذ يسعد الآخرين!!.. وكان عند ربه مرضيا!..

أرضى الله ورسوله، فأرضاه الله ورسوله.. وما كان سلوكه زهد العاجز عن المتاع الحلال، ولا زهد العازف عن الحياة، بل زهد العارف بالله!..

كان يعظ الناس بقوله: " لا يرجون أحد منكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه ".

وبقوله: " من أصلح سريرته أصلح ألله علانيته ".

وبقوله: " الصبر شجاعة.. أطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين "..

وبقوله: " أعلموا أن ما نقص في الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص في الآخرة وزاد في الدنيا، فكم من منقوص رابح ومزيد خاسر، إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه، فذروا ما قل لما كثر، وما أحل لكم مما حرم عليكم، وذروا ما ضاق لما اتسع. فالله قد نكفل لكم بالرزق وأمركم بالعمل. فلا يكونن المضمون لكم طلبه أول بكم من المفروض عليكم عمله.. ما فات من الرزق يرجى غدا زيادته، وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته.

الرجاء مع الجائى (ما سيجئ)، واليأس مع الماضي، فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وانتم مسلمون ".

كما كان يعظ بقوله: " اتقوا الله تقية ذي لب شغل التفكر قلبه... اتقوه تقية من سمع فخشع، واقترف فاعترف، ووجل فعمل، ورجع فتاب واقتدى فاحتذى... أيها الناس، الزهادة قصر الأمل، والشرك عند النعم، والورع عن المحارم اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل.... طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والقرآن

شعارا، والدعاء دثارا. ثم قرضوا الدنيا قرضا على مزنهج المسيح (أى مزقوها كما يمزق المقراض الثوب على طريقة المسيح عليه السلام في الزهد

" رب عالم قتله جهله، وعلمه لم ينفعه (لأنه لا يعمل به)... من أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعاداها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب وما بينهما، كلما قرب من واحد بعد عن الآخر، وهما ضرتان!... إن تقوى الله مفتاح سداد وذخيرة ومعاد ".

***

ذات صباح لم يجد ما يلبسه إلا لباسا من الصوف به خروق، فرقعه ولبسه وخرج إلى الناس، فلما لامه نفر من أصدقائه من فتيان المهاجرين والأنصار لم يبسط لهم عذره: إنه لم يجد غيره، ولكنه تبسم وقال لهم: " إن لبس هذه المرقعة من الصوف تقمع في الإنسان ما قد يشعر به من كبر، وتقهره على أن يتواضع الله، وتحمله على الخشوع حملاً! ".

فتنتقل هذه المقولة من جيل إلى جيل، وتعرف الأمة الإسلامية بعد ذلك نفرا من الزهاد والأتقياء يلبسون المرقعات من الصوف، وينتسبون إلى الصوف، فستسمون " الصوف أو المتصوفة "!

وفي الحق أن العمل لإصلاح الدنيا وعمارتها لا العزوف عن العمل واعتزال الدنيا، كان جوهريا زهد علي وتقواه.. والعمل الصالح الذي يحض عليه، ليس هو أداء العبادات المفروضة فحسب، وإنما هو العمل المنتج في المعاملات.. هو العمل الذي به عمارة الأرض، وعليه تقوم مصالح العباد..

من أجل ذلك اهتم بألوان النشاط الإنساني التي تخدم المجتمع وانشغل بها وحض عليها.. يدوية كانت أم فكرية!..

إنه ينكر الانقطاع عن الدنيا زاهدا فيها كما يـرفض الانقطاع لها انشغالاً بها.. من أجل ذلك عرف الزهد بقوله: " الزهد كلمة بين كلمتين في القرآن. قال سبحانه: " لكـي لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور "، فمن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه "..

ويقول: " للمؤمن ثلاث ساعات، فساعة يناجى فيهـا ربه، وساعة يرم فيهل معاشه، وساعة يخلى فيها بين نفسـه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل. وليس للعاقل أن يكون شاخصا إلا في ثلاث : مرة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذة فـي غير محرم ".

وقد تعلم من أستاذه العظيم رسول الله □، فيما تعلـم من معاني القرآن أن الله لا يكتفي من العبد المطيـع التقـي بالإمان وحده، بل الله يقرن الإيمان بالعمل.. فكلما ذكـر الله تعالى الإيمان في آية عطف عليه العمل الصـالح: " الـذين آمنوا وعملوا الصالحات ".

أما الإيمان فمعروف، وفيه أداء العبادات المفروضة، وأما العمل الصالح فهو ما ينهض بأدائه وإتقانه كل إنسان في أية جماعة إنسانية من أعمال مشروعة تكفل لـه معاشـه، وتحقق المصلحة للأمة جميعا..

لقد تعلم على من أستاذه العظيم رسول الله ❐ أن من يسعى في طلب الرزق خير ممن ينقطع للعبادة، وأن طلـب العلم فريضة، وأن العمل شرف وإتقانه واجب شـرعى، وأن الجهاد في سبيل الله والعمل لعمارة الأرض وإسعاد النـاس، والجهد في تحقيق الأمة، هي من أفضل ما يتقرب به العبـد الصالح إلى الله، وهي الأعمال التي يحبها الله، كان يعلـم أن العبادة ليست مظهرا إنما هي ما يضئ به القلـب ويخشـع. وكان يقول: " ليست الصلاة قيامك وقعودك إنمـا الصـلاة إخلاصك ".

وكان رسول الله ❐ يعلم أصحابه جميعا هذه التعاليم، ولا يكثر من الموعظة " مخافة السآمة عليهم ". كما قال لهم عليه الصلاة والسلام. ولكنه كان يأخذ علِيا بشيء من في الموعظة لا يخاف الإكثار عليه الملل أو السأم، ذلك أنه تعود أن

يعلمه ويربيه منذ ولد، فما من حرج أن يأخذه ببعض المشقة التي لا يأخذ بها الآخرين!

وكان الرسول ❐ حين يعلم أصحابه لا يكتفي بإلقاء المواعظ والتعاليم، بل يعمد أحيانًا إلى الحوار، لإيقاظ الفكر، وتنشيط العقل، وإرساء المبادئ.

بينما كان رسول الله ❐ في مسجده في رهط من صحابته إذ قرأ بعضهم القرآن واحدا بعد واحد، وكان الرسول يطلب القراءة من أصحاب الأصوات الجميلة ومنهم عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه حتى إذا بلغ ابن مسعود قوله تعالى من سورة النساء: " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ". فاضت عينا الرسول بالدموع، فأشار إلى القارئ أن يسكت.. وعرت الرسول رعدة مما استشعر من ضخامة مسئوليته أن يكون شهيدا على المؤمنين، وكان كلما سمع هذه الآية أخذ يبكي حتى يبلل الدمع لحيته!..

ثم إنه ❐ طلب من قراء آخرين أن يتلون آيات من القرآن. فقرا أحدهم من سورة أخرى حتى الآية: "وذكرهم

بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ". فقال رسول الله مفسرا: " أيام الله هي نعماؤه ".

ثم قرأ الثالث من سورة لقمان حتى بلغ الآية: " وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة ". فقال الرسول يحاور هذا النفر من صحابته: " قولوا الآن قولكم: ما أول نعمة رغبكم الله فيها وبلاكم بها؟ " فذكروا نعمة الله التي أنعم عليهم بها من العافية والمال والذرية والأزواج والعلم، فقبل منهم الرسول ما قالوه " ولم يستزد واحدا منهم إلا عِليا.

التفت الرسول عليه الصلاة والسلام إلى عِلي بن أبي طالب، وهو في هذا الرهط أولهم إسلاما وأصغرهم سناً، وقال: " يا أبا الحسن قل فقد قال أصحابك ". فقال: " وكيف لي بالقول فداك أبي وأمي ,إنما هدانا الله بك؟! " قال: " ومع ذلك فهات، فل ما أول نعمة بلاك الله عز وجل وأنعم عليك بها؟ قال: " أن خلقنى جل ثناؤه ولم أك شيئًا مذكورا ". ولم يكتف الرسول بهذا الجواب بل قال: " صدقت فما الثانية؟ " قال:" أن أحبني إذ خلقنى فجعلني حيا لا ميتًا ". قال: " صدقت فما الثالثة "؟ قال:" أن أنشاني – فله الحمد – في أحسن صورة وأعدل تركيب ". قال: " صدقت فما الرابعة؟ "

قال: " أن جعلني متفكرا راغبا، لا ساهيا ". قال: " صدقت فما الخامسة؟ " قال: " أن جعل لى مشاعر أدرك بها ما ابتغيت وجعل لى سراجا منيرا (أى عقلاً يكشف الحق والباطل والحسن والقبح) ". قال: " صدقت فما السادسة؟ " قال:أن هداني لدبنه ولم يضلني عن سبيله ". قال: " صدقت فما السابعة؟ " قال: " أن جعل لى مردا في حياة لا انقطاع لها ". قال: " صدقت فما الثامنة؟ " قل: " أن جعلني ملكًا مالكًا لا مملوكا ". قال: " صدقت فما التاسعة؟ " قال: " أن سخر لى سماءه وأرضه وما فيها وما بينهما من خلقه ". قال: " صدقت فما العاشرة؟ " فأطرق على قليلاً ثم قال في دعابة:"، خلقنى ذكرا ولم يخلقنى أنثى ". فضحكوا حتى بدت نواجذهم. قال الرسول: " وما بهد هذا؟ " قال: " كثرت نعم الله يا نبي الله فطابت، وإن تعدوا نعمة الله الله لا تحصوها ". فتبسم رسول الله في رضا عنه وقال: " ليهنئك الحكمة، ليهنئم العلم يا أبا الحسن أنت وارث علمي والمبين لأمتى ما اختلفت فيه بعدي. من أحبك لدينك وأخذ بسبيلك فهو ممن هي إلى صراط مستقيم. ومن رغب عن هداك وأبغضك لقي الله يوم القيامة لا خلاق له ".

وفي الحق أن علِيًا كان يبذل علمه، فإذا جلس في المسجد أو طاف بالأسواق قال للناس: " أسألونى " , وما كان على الرغم من سعة علمه يحمل ذرة من الغرور..!

بل كان يبدى كثيرا من الاحترام للصحابة الذين يكبرونه سنا.. ولقد سئل عن عثمان فقال: " ذاك امرؤ يدعى فلا السماء ذا النورين، وهو أوصلنا للرحم ". لأن عثمان قد تزوج بنت الرسول، فلما ماتت تزوج بنتً ثانية فكنيته ذو النورين.

***

وقد أنزل الله قرآنًا في عدد من الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، كما أنزل الله في على كرم الله وجهه بعض الآيات..

ونزلت آيات كثيرة في أهل الكتاب، وكفار مكة، وفي غيرهم ممن خالفوا الرسول وشاقوه، وفيهم المنافقون والمرجفون في المدينة..

وكان عِلي بحكم صلته بالرسول عليه الصلاة والسلام، يعرف أين وكيف نزلت هذه الآيات جميعا، وفيمن

نزلت، وفيم نزلت.. فهو إلى خبرته بها، قد تعلم من أستاذه العظيم أسرارها، وله أذن واعية!..

ومن أجل ذلك استفتاه الصحابة في أمور الدنيا والدين.. وكان هو يبذل الفتيا قبل أن يسأل إن عرضت أمامه مشكلة.

وكان الرسول طيلة حياته يشجعه على الفتيا، ويقر آراءه، ويستحسنها.

وعندما قبض الرسول ﷺ، وولي أمر المؤمنين خليفته أبو بكر رضي الله عنه، كان في نحو الثلاثين، بين رهط من الصحابة سن الواحد منهم يكاد أن يكون ضعف

سنه!.. وعلى الرغم من هذا وعلى الرغم من كل شيء فقد حرص
الخليفة الأول أبو بكر الصديق على أن يستشير عِليا، وعلى أن يقر به.

كان أبو بكر يجمع كبار الصحابة وفي طليعتهم عمر وعثمان وعلى، كلما عرضت له حالة لا يجد لها حلاً في كتاب الله ولا في سنة رسوله.

من أجل ذلك احتفظ بهؤلاء الثلاثة إلى جواره في المدينة المنورة عاصمة الدولة الجديدة، لحاجته إلى رأيهم، وإلى حكمتهم وعلمهم وحسن بصرهم بالأمور، على الرغم من حاجة المغازى والفتوحات إلى سواعدهم وبسالتهم.

***

وأثناء خلافة أبي بكر انشغل على بالعلم، والتعليم، والنظر في أمور الدين والدنيا، وبكتابة القرآن في المصحف بترتيب الآيات والسور، كما تعلم هو وغيره من الرسول.

وتحلق شداة العلم حوله عقب كل صلاة في مسجد رسول الله.

كان الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهم يعرفون مكانة على من النبي، ويشعرون برضا الله ورسوله عنه، ويعون ما نزل فيه كرم الله وجه من قرآن.

ويحدثون الناس بفضل على، وبمكانته في قلب الرسول..

وقد أنزلت على الرسول آيات ينسحب حكم التكريم فيها على أكثر من واحد من الصحابة رضي الله عنهم، فوثق هذا الاشتراك ما يحمل منهم لصاحبه من تقدير ومودة.

ذلك كقوله تعالى في سورة البقرة: " الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ".

فقد نزلت في أبي بكر الصديق، وعِلِي بن أبي طالب معا.. وذلك حين تصدق أبو بكر رضي الله عنه بأربعين ألف دينار: عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة في السر، وعشرة في العلانية، كما تصدق في الوقت نفسه على كرم الله وجهه بأربعة دراهم ما كان يملك سواها، تصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهارا، وبدرهم سرا، وبدرهم علانية!..

كما نزل في على كرم الله وجهه قوله تعالى في سورة الحاقة: " وتعيها أذن واعية ". قال رسول الله ﷺ: "يا عِلِي إن الله أمرني أن أدنيك وأعلمك لتهي ". فكان كرم الله وجهه يقول: " ما سمعت من رسول ﷺ شيئًا فنسيته ".

وشجر بين عِلِي بن أبي طالب وبين الوليد بن عقبة بن معيط من فتيان قريش خلاف يوم بدر، وكان على بطل

بدر في نحو العشرين.. فقال له الوليد: " أسكت فإنك صبي، أنا أشب منك شبابا، ,أجلد منك جلدا، ,اذرب منك لسانًا، وأشجع منك جنانًا، فنزلت الآية الكريمة: " أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقا لا يستوون " (سورة السجدة).

ونزلت فيه آية من سورة مريم: " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ".

كان على يدعو الله بدعاء أوصاه به الرسول ❐ : " اللهم اجعل لي عندك عهدا، واجعل لى في صدور المؤمنين مودة " ولكم قال له الرسول: لا يحبك إى مؤمن ولا يبغضك إلا منافق.

ومان على إذا أقبل على أحد من الصحابة قال الصحابي: " جاء خير البرية ". فهو من الذين نزلت فيهم الآية الكريمة: " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية "..

قال أحد الصحابة لعِلي: " أنا خير منك فإنا أسقى الحجيج ". وافتخر الآخر بأن له ولقومه عمارة البيت الحرام، فقال لهما على أنه سبقهما إلى الإسلام والهجرة والجهاد في سبيل الله. ثم روى للنبي ما حدث فنزلت الآية الكريمة: "

أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر... " إلى آخر الآية في سورة التوبة.

وعندما نزلت: " فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون". (سورة النحل)، قال على: " نحن أهل الذكر اسألونا ".

ونزلت في حمزة وعِلي وأبي جهل الآية الكريمة: "أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين " (سورة القصص).

ولما نزلت الآية الكريمة: " قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربي " سئل الرسول: من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم. قال: " عِلي وفاطمة وولدهما ".

أما الآية الكريمة: " إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا " فقد اتفق الطبرى وابن كثير والسيوطي على أنها نزلت في عِلي .

ومشى عِلي بن أبي طالب ومعه نفر من المسلمين في أحد طرقات المدينة فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: " رأينا اليوم الأصلع ". وقبل أن يصل على ومن معه من الصحابة إلى

رسول الله أنزلت عليه الآية: " إن الذين أجرموا كانوا من الذين يضحكون " (سورة المطففين).

كما أنزلت أيضاً: " والذين يؤذون المؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثما مبيناً ".

وعندما نزلت الآية الكريمة: " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " قال رسول الله بعد أن دعا علِيا وفاطمة والحسن والحسين، وغطاهم بكساء: اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وقد نزلت الآية والرسول عند زوجة أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها.

وقال عِلي: " إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي. وما يعمل بها أحد بعدي. هي آية النجوى: "يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ". كان عندي دينار فصرفته عشرة دراهم، فكنت كلما ناجيت الرسول قدمت بين يدي درهما (أى تصدق بدرهم) ثم نسخت الآية فلم يعمل بها أحد ".

هذه الآية الكريمة التي أجمع أئمة التفسير على نزولها في على كرم الله وجهه (مثل الطبري والسيوطي

والزمخشري والرازي).. وهناك آيات أخرى انفرد بذكرها مفسر أو اتفق عليها اثنان فحسب.

***

وأيا ما يكون من أمر، فقد كان الصحابة يعرفون هذه الآيات جميعا، ويعرفون لعلي قدره..

لذلك اعتبره كبار الصحابة من أهل الذكر كما أسلفنا،

ولم يكونوا منفكين عن سؤال منذ قضى الرسول.

على هذا سار أبو بكر وعمر وعثمان وأبوعبيدة الجراح وسعد بن أبي وقاص وبلال وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي.

وكان لسلمان مكانة خاصة عند الصحابة، وعند على بالذات... ذلك أنه يوم حاصر الأحزاب المدينة، أقترح على الرسول حفر الخندق، وهي مكيدة ما كانت تكيدها العرب، وقد تعلمها سلمان الفارسي من قومه في فارس.. وقد أذهل هذا الخندق أحزاب المشركين الزاحفين على المدينة.. وامتنع المسلمون في الخندق وخلفه، فلم يجز إليهم أحد، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وعاد الأحزاب خائبين..

فتفاخر المهاجرون والأنصار بسلمان الفارسي، حتى لقد تنازعوا فيه، وتصايح بعضهم على بعض كل يدعيه لنفسه.. قال المهاجرون: " هو منا "، وقال الأنصار: " بل منا نحن الأنصار " وأوشك الأمر أن يفسد بينهم في تنافسهم على سلمان.. فقال الرسول ❐ " سلمان منا أهل البيت ".

واستقرت هذه العبارة من عِلي بن أبي طالب في أذن واعية..

فقرب منه سلمان، وعامله إلى آخر العمر كواحد عزيز عليه من أهل البيت، وظل يوده حتى آخر عمره.. كتب إليه يعظه: أما بعد يا سليمان، فإنما مثل الدنيا مثل الحية، لين مسها، قاتل سمها، فأعرض عما يعجبك فيها لقلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها، لما أيقنت به من فراقها وتصرف حالاتها، وكن آنس ما تكون بها احذر ما تكون منها... فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخصته عنه إلى محذور، أو إلى إيناس أزالته إلى إيحاش، والسلام.

ويعمق فهم على كرم الله وجه للآية الكريمة: " إن أكرمكم عند الله أنقاكم بالتزامه المبدأ الشريف: " لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ". لم يتعصب لعربي، كما

كانت العصبية القبلية تفرض عليه.. بل آثر بعض ال (وهم أهل البلاد الأخرى) على غيرهم من العرب!!

ويغضب منه بعض العرب الذين يعتمدون على أصولهم وأنسابهم لا على أعمالهم.. ويحبه ويتحمس له كل الموالي يأتون الله بقلب سليم.. ويقدمون أعمالهم لا أحسابهم، بين يدي الله ورسوله.

وعلى الرغم من كل حرج وعناء، يظل عِلي بن أبي طالب على موقفه متمسكًا بالقرآن والسنة فيما فضل الله به الناس بعضهم على بعض.

والتقوى هي أساس المفاضلة.

ويظل شعار على: " قيمة امرئ، فلا يأتي الناس ربهم بأعمالهم، ويأتي بعض العرب بالإحساب و الأنساب"!

*****

الفصل الرابع

مع الصديق

قال عِلي بن أبي طالب: لا يفضلنى أحد علــى أبــي بكر وعمر إلا جلدته جلد المفترى ".

قال الحسن البصرى إن عِلي بن أبي طالب رضــي الله عنه قال: " إن رسول الله ❐ مرض ليالي وأياما، ينــادي بالصلاة فيقول: " مروا أبا بكر يصلي بالناس " فلمـا قـبض رسول الله ❐، نظرت فإذا الصلاة علم الإسلام وقوام الدين، فرضينا لدنيانا ما رضي رسول الله ❐ لديننا فبايعنا أبا بكـر ".

على أن الأمر لم يكن سهلاً.. فقـد زلزلـت أرض الجزيرة العربية زلزا ًلاشديداً حين تـوفي الرسـول عليـه الصلاة والسلام.. فارتد عن الإسلام أقوام كلت بصـائرهم، ومرضت أهاؤهم، وقامت قبائل أخرى ترفض إيتاء الزكـاة، وتعترف ببقية أركان الإسلام!..

وقام رجال ونساء يدعون النبوة، ورصوا كلامــا مسـجوعا وأسموه كتبا منزلة!.. وتصدعت الألفـة، وتفـرق الشـمل، وانقطع نظام الناس.

وفي المدينة نفسها اضطرب الناس وذهلوا عن أنفسهم وتشبعوا وتمزقوا، وغضب عمر بالقتل من زعم أن محمدا قد مات، ويقول لهم: " إنما رفع إلى ربه كما رفع المسيح عيسي أن مريم، وسيعود بعد حين، أو كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ".

أما أبو بكر فقد وقف يخطب الناس، ويقول لهم: "من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت " فتذكروا قوله تعالى: " وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزى الله الشاكرين ".

وثاب عمر، ثم أجهش بالبكاء وهو يقو: " لكأني لم أسمع هذه الآية من قبل قط. إنا الله وإنا إليه راجعون "!

وكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية قد نزلت حتى تلاها أبو بكر!!

أما عِلي فإنه انشغل بتجهيز الرسول ❐.. ودموعه تفيض على وجهه في صمت وهو يتمتم: " بأبي أنت وأمي يا

رسول الله طبت حيًا وطبت ميتاً. لولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع!!.. بأبي أنت وأمي.. إن الصبر لجميل إلا عنك، وإن الجزع لقبيح إلا عليك.. اذكرنا عند ربك واجعلنا من همك ".

وإن عِليا ليذكر ما قاله يوم نزلت الآية: " أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ".. لقد مات يومئذ حين سمع هذه الآية لأول مرة " والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت".

وكان الرسول قبل أن يقبض بأيام قد أوصى ألا يحجب عنه أحد من الأنصار. فلما جاءه نفر منهم قال لهم الغلام: " عنده نساؤه ". فسمع الرسول وهو في فراشه بكاءهم فقال: " من هؤلاء؟ " قيل له: " الأنصار رضي الله عنهم يبكون ". فخرج ﷺ متوكئًا على عمه العباس وعِلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، فدخل المسجد من باب حجرة عائشة رضي الله عنها حيث كان يرقد في مرضه الأخير، واجتمع رهط الأنصار ومعهم رهط من المهاجرين كانوا يتحسسون من خير مرضه، فقال عليه الصلاة والسلام: " إنه لم يمت نبي قط إلا خلف وراءه تركة، وإن تركتى فيكم الأنصار

رضي الله عنهم. أوصيكم بتقوى الله والإحسان إليهم، فقد علمتهم أنهم شاطروكم وواسوكم في العسر واليسر، نصروكم في النشاط والكسل، فاعرفوا لهم حقهم واقبلوا من محسنهم، وتجاوزا على مسيئهم ".

فلما توفى رسول الله ﷺ، وقبل أن تشيع جنازته، وهو ما يزال مسجى في بيته وقد أغلق أهله دونه الباب، اجتمع حى من الأنصار هم الخزرج، بقيادة سعد بن عبادة رضي الله عنه، في سقيفة بني ساعدة، وخف إليهم رجال الأوس، كان بين الأوس والخزرج عداء وتنافس قبل الإسلام، ولكن الإسلام ألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا[1]. ولما اكتمل الأنصار تحدث سعد بصوت ضعيف وكان مريضا، فكان ابنه يحفظ ما يقول ويبلغ عنه قومه. قال سعد: " يا معشر الأنصار إن لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب. إن رسول الله لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأوثان، فما آمن به إلا قليل، وما كانزا يقدرون أن يمنعوه ولا يعرفوا دينه حتى أراد الله تعالى لكم الفضيلة، وخصكم بالنعمة، ورزقكم الإيمان به وبرسوله ﷺ، والمنع له ولأصحابه

والإعزاز لدينه، والجهاد لأعدائه، حتى استقاموا لأمر الله تعالى طوعا وكرها، حتى أثخن الله تعالى لنبيكم بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه وهو راض عنكم قرير العين بكم، فشدوا أيديكم بهذا الأمر، فإنكم أحق الناس وأولادهم به ". فأجابوه جميعا: " وفقت في القول، وأصبت في الرأي، ولن نعدو ما رأيت توليتك هذا الأمر".

فأتى الخبر أبا بكر، ففزع أشد الفزع، فأسرع ومعه عمر إلى سقيفه بني ساعدة، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح، فانطلقوا جميعا – رضي الله عنهم – حتى دخلوا السقيفة.

فوقف أبو بكر يخطب الناس: " إن الله بعث محمدا ❐ بالهدى ودين الحق، فدعا إلى الإسلام، فأخذ الله بنواصينا وقلوبنا إلى ما دعا إليه، فكنا معشر المهاجرين أول الناس إسلاماُ، والناس لنا فيه تبع، ونحن عشيرة رسول الله ❐، وأنتم أيضا والله الذين آووا ونصروا.. والله ما كنا في خير قط إلا كنتم معنا فيه، فأنتم أحب الناس إلينا، وأكرمهم علينا،

وأحق الناس بالرضا بقضاء الله تعالى.. وأنتم أحق الناس ألا يكون هذا الأمر واختلافه على أيديكم، وأبعد ألا تحسدوا

إخوانكم على خير ساقه الله تعالى إليهم. وإنما أدعوكم إلــى أبي عبيدة أو عمر، وكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر ".

فقال عمر وأبو عبيدة: " ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر فإنت أحق الناس بهذا الأمر ".

فقال الأنصار: " والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم وإنا لكما وصفت يا أبا بكر والحمد الله، ولا أحـد مـن خلق الله أحب إلينا منكم. ولكننا نشفق، مما بعد اليوم، ونحذر أن يغلب على هذا الأمر من ليس منا وليس منكم، فلو جعلتم اليوم رجلاً منا ورجلاً منكم بايعنا ورضينا، كان ذلك أجـدر أن يعدل في أمة محمد ، وأن يكون بعضنا يتبـع بعضـا فيشفق القرشي أن يزيغ فيقبض عليه الأنصـاري، ويشـفق الأنصاري أن يزيغ فيقبض عليه القرشي ".

فقال أبو بكر: خص الله تعالى المهـاجرين الأوائـل ورضي الله عنهم بتصديق رسوله ، والإيمان به، والمواساة له، والصبر معه على الشدة من قومهم وإزالهـم وتكـذيبهم إياهم، وكل الناس مخالف لهم، زار عليهم، فلـم يستوحشـوا لقلة عددهم وإزراء الناس بهم، فهـم أول مـن آمـن بـالله ورسوله، وهم أولياء وعشيرته، وأحق النـاس بـالأمر مـن

بعده، لا ينازعهم فيه إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضله، ولا النعمة العظيمة لهم في الإسلام، رضيكم الله تعالى أنصارا لدينه ورسوله، وجعل إليكم مهاجرته فليس بعد المهاجرين الأولىن أحد عندنا بمنزلتكم. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ".

فقام عن الأنصار الحباب بن المنذر فقال: " يا معشر الأنصار. لن يصدر الناس إلا عن رأيكم. أنتم أهل العزة والثروة، وأولو العدد والنجدة، أنتم أهل الإيواء والنصرة، وإليكم كانت الهجرة، وإنما ينظر الناس ما تصنعون، فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، وتقطع أموركم. والله ما عبدوا الله علانية إلا في بلادكم، ولا جمعت الصلاة إلا في مساجدكم، ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيافكم. فأنتم أعظم الناس نصيبا في هذا الأمر، وإن أبى القوم فمنا أمير ومنهم أمير ".

فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال " " هيهات! لا يجتمع سيفإن في غمد! والله لا ترضي العرب أن نؤمركم ونبيها من غيركم. ولكن العرب لا ينبغي أن تولي هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم، ولنا بذلك على من

يخالفنا من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين. من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن عشيرته وأولياؤه، إلا مدلٍ بباطلٍ أو متجانف لإثم، أو متورط في هلكة؟ ".

واحتدم الخلاف، حتى أوشك رجال أن يسلوا فيه السيوف!

فوقف أبو عبيدة وقال: " يا معشر الأنصار أنتم أول من نصر وآوى، فلا تكونوا أول من يبدل ويغير ".

ثم إن الأوس لما رأوا ما كان من أمر الخزرج، وما تطلبه من تأمير سعد بن عبادة ولو بحد السيف، خافوا الخزرج على أنفسهم وقال بعضهم لبعض: " يا معشر الأوس، والله لئن وليتموها سعد بن عبادة فاز بها الخزرج، ولا جعلوا لكم فيها نصيبا أبدا ".

وقام أبو بكر يدعو إلى الرفق في الدال، وإلى مبايعة أحد من المهاجرين الأوائل خليفة لرسول الله.

وعاد يقترح عليهم عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح.

قال: " هذا عمر ,أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا ".

فقالا: " والله لا نتولي هذا الأمر إليك، وأنت أفضل

المهاجرين، وثاني اثنين إذ هما في الغار، خليفة رسول الله ❒ في الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر إليك؟ ابسط يدك نبايعك "!

فقال زعيم الأوس لقومه من الأنصار: " والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة، لازالت لهم بذلك عليكم الفضيلة. فقوموا فبايعوا أبا بكر ".

فقاموا فبايعوه، وانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا اجتمعوا له من أمرهم.

فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطئون سعد بن عبادة.

***

وعلمت فاطمة الزهراء بما يحدث في السقيفة وأبوها ❒ لم يدفن بعد، فبكت أحر بكاء!.

فلما جاءها بعض الصحابة معزين وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة قالت: " تركتم رسوب الله ❒ جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم ولم تستأمرونا ".

فبكى أبو بكر حتى علا نشيجه!.. وبكى من كان في الدار من المهاجرين يساعدون علِيا في تجهيز الرسول وفيهم سلمان الفارسي وأبو ذر والمقداد والزبير وعمار..

***

أما علِي بن أبي طالب فجلس في بيته أياما فأتاه عمر

فقال له: " تخلفت عن بيعة أبي بكر ". فقال: " أقسمت حين قبض رسول الله ﷺ ألا أرتدى برداء إلا إلى الصلاة المكتوبة حتى أجمع القرآن، فإني خشيت أن ينفلت".

عكف عِلي على القرآن يكتبه كما تعلمه من الرسول، وجاءه أبو سفيان فقال له: " غلبكم على هذا الأمر أرذل بيت في قريش! أما والله لأملأنها خيلاً ورجلاً "!.

واقترح عليه أن يبايعه. فقال له على: " ما زلت عدو الإسلام وأهليه! فما ضر ذلك الإسلام وأهله شيئًا!.. إنا رأينا أبا بكر لها أهلاً. إنما تريد الفتنة ".

ولما سمع على ما حدث في السقيفة سأل: " ما قالت الأنصار؟ قالوا: " قالت منا أمير ومنكم أمير ". قال: " هلا احتججتم عليهم بأن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم؟ "

قالوا: وما في هذا م الحجة عليهم. قال: "لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم ".

وبعد أن تمت البيعة لأبي بكر رضي الله، خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: " أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم. فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف قوى عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة في عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله ".

وبلغ أبا عبيدة أن عِلي بن أبي طالب قال لبعض المهاجرين الذين بايعوا أبا بكر: " زعمتم لصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار. إن كانت الإمامة في قريش، فإنا أحق قريش بها،

وإلا فالأنصار على دعواهم.. نحن أولى برسول الله حياً أو ميتًا فإنصفونا إن كنتم مؤمنين ".

لما نقل إلى أبي عبيدة أن عليًا يقول ذلك، أرسل إليه من ينصحه بالبيعة ويقنعه أن قريشاً ما كانت لتبايع عليًا، وسيفه ما زال يقطر من دماء سادتها الذين قتلهم يوم بدر، وفي المغازي الأخرى.

وأرسل إليه من ينصحه بأن يخرج من داره فيبايع..

ولكن عِلي بن أبي طالب، كان لا يخرج إلا إلى الصلاة، وقد فرغ قلبه من كل هموم الدنيا وانشغل بكتابة

المصحف. وجاء بعض الأنصار وابن عمته الزبير بن العوام وفتيان بني هاشم ليبايعوه فأبي، وطالبهم ألا يختلفوا بعد

البيعة لأبي بكر فتفشل ريحهم..

فأتاه أبو عبيدة في منزله فقال له: " يا ابن عم، إنك حديث السن، وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم، ومعرفتهم بالأمور. فسلم لأبي بكر هذا الأمر، فإنك إن تعيش ويطل بك بقاء، فإنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق، في فضلك ودينك، وعلمك وفهمك، وسابقتك ونسبك وصهرك ": فقال

على: " حلفت ألا أخرج من بيتي ولا أضع ثوبي على عاتقي حتى أجمع القرآن ".

فما أن فرغ كرم الله وجهه من جمع القرآن، حتى أتاه أبو بكر.

كان في الدار مع على جمع من بني هاشم، فقال على: " أما بعد يا أبا بكر فإنه لم يمنعنا أن نبايعك إنكار لفضيلتك، ولا نفاسة عليك، ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقا ".

ثم ذكر عِلي قرابته من رسول الله..

فلم يزل يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر، وقال: " لقرابة رسول الله أحب إلى أن أصل من قرابتي. إني والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته إن شاء الله تعالى". فقال عِلي: " موعدك غدا في المسجد الجامع للبيعة إن شاء الله ".

فلما كان الغد، قام عِلي في المسجد فذكر فضائل أبي بكر، وبايعه.

فأقبل الصحابة عِلي عِلي بن أبي طالب، وهو حينئذ أصغرهم سنا، فهو في نحو الثلاثين من عمره، فأثنوا عِلي
حكمته، وقالوا له: " أحسنت يا أبا الحسن وأصبت".

وطاب أبو بكر نفسا، وقر عيناً.

***

ولكن خلافاً فقهيا انفجر بغتة بين أبي بكر من ناحية، وعِلي وفاطمة من ناحية أخرى، رضي الله عنهم جميعا، وإن مس هذا الخلاف مصالح فاطمة وعِلي ..!

كان الخلاف حول " فدك ".

وفدك قرية بخيبر، وعندما فرغ رسول الله من خيبر، وكانت راية المسلمين لعِلي بن أبي طالب، قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، فبعثوا إلى رسول الله يصالحونه عِلي النصف من فدك، فقبل ذلك منهم، ولم يغزهم، وكانت فدك لرسول الله خاصة فهي فئ خصة به الله، لأن المسلمين لم يأخذوها بقتلا فلا تقسم قسمة الغنائم.. لأنها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب.. وكان الصحابة من قبل قد طلبوا من الرسول أن يقسم الفئ بينهم كما قسم الغنيمة بينهم، فذكر الله الفرق بين الأمرين في (سورة الحشر).

وقد غرس ❐ بعض النخيل في فدك، وجعلها لفاطمة الزهرء. فكانت هي التي تتصرف فيها، وكانت تتصدق بكل خراجها بعد أن تستبقي ما يسد حاجة عام..

ورأى أبو بكر أن تكون فدك بيد ولي الأمر، أى بيده يوزع خراجها عِلي الناس، واحتج أبو بكر لرأيه بأنه سمع رسول ❐ يقول: " إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة ".

وأفتى عِلي بأن الأنبياء يورثون. واستشهد بقوله تعالى: " وورث سليمان داود " وقوله تعالى على لسان زكريا. " فهب لي من لدنك وليا يرثني.... ". واحتج عليه بأن الحديث الشريف الذي يرويه أبو بكر هو من أحاديث الآحاد التي ينفرد بروايتها واحد فحسب من الصحابة، وأحاديث الآحاد لا تقيد حكما أطلقه القرآن، ولو أن الرسول أراد أن يخصص أو يقيد هذا الحكم القرآني لأخبر ورثته أنهم لن يرثوه.

ثم إن فاطمة قالت أن أباها وهبها أرض " فدك " فهي إن لم تكن إرثًا فهي هبة..

فطلب منها شهودا، فاستشهدت بعِلي وأم أيمن، فقال: " لا بد من رجل وأمراتين أو رجلين ". وأفتى عِلِي بأن الشهادة تصح برجل وامرأة واحدة، مع حلف اليمين. بل بشاهد واحد، ويمين..

ولكن أبا بكر رد هذا الرأي..

ونزع " فدك " من تحت يدي فاطمة، واستشار في ذلك عمر فأيده.

وتحدثت المدينة عن غضب فاطمة..

فقال عمر لأبي بكر: " انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها ".

فانطلقا جميعا، فاستأذنا على فاطمة، فلم تأذن لهما، فأتيا عليا فكلماه فأدخلهما عليها.

فلما قعدا عندها تكلم أبو بكر فقال: " يا حبيبة رسول الله، والله إن قرابة رسول الله أحب إلى من قرابتي، وإنك لأحب إلى من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات أبوك أني مت، ولا أبقي بعده. أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله؟ إلا أني سمعت أباك رسول الله يقول: " نحن الأنبياء لا نورث ذهبا ولا فضة

ولا دارا ولا عقارا، وإنما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة. وما تركناه فهو صدقة.

فقالت فاطمة لأبي بكر وعمر: " أرأيتكما أن حديثكما حديثا عن رسول الله ❐ تعرفإنه وتعملان به؟ " قالا: " نعم".

فقالت: " نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: رضا فاطمة من رضاى , وسخط فاطمة من سخطى، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أرضي فاطة ابنتي فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟.

قالا: " نعم سمعناه من رسول الله ❐ ".

قالت: فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه ".

فقال أبو بكر: " أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة ".

فقالت لأبي بك: " والله لا أكلمك أبدا " قال: " والله لا أهجرك أبدا. والله ما أجد أعز عِلي منك فقرا، ولا أحب إلى منك غني، ولكني سمعت رسول الله ❐ يقول: إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة ".

قم خرج أبو بكر باكيا ومعه عمر مطرقاً، فذهبا إلى المسجد فاجتمعا بالناس فقال أبو بكر: " يا أيها الناس أقيلوني! يبيت كل رجل منكم معانقاً حليلته، مسرورا بأهله وتركتموني وما أنا فيه!.. لا حاجة لي في بيعتكم".

فقال له الناس: " إن هذا الأمر لا يستقيم، وأنت أعلمنا بذلك. إنه إن كان هذا لم يقم الله دين ".

قال: " والله لولا ذلك وما أخافه من رخاؤه هذه العروة ما بت ليلة ولي في عنق مسلم بيعة، بعد ما سمعت ورأيت من فاطمة ".

وقال له عِلي: " لا نقيلك ولا نستقيلك أبدا. وقد قدمك رسول الله ❐ لتوحيد ديننا، من ذا الذي يؤخرك لتوجيه دنيانا؟ ".

فأما فدك فإنتهي أمرها إلى أن امتلكها مروان، وورثها عنه ابنه عبد العزيز، ثم عمر ابن عبد العزيز خامس الراشدين، فأمر عامله عِلي المدينة أن يعيدها إلى ورثة فاطمة، فتلكأ العامل وبعث يسأل أى الورثة، فهم متفرقون في الأرض؟ فرد عليه الخليفة غاضبا مؤنبا: "لو أنني قلت لك

تصدق بشاة لأرسلت إلى تسألني أشاة سوداء أم بيضاء! افعل ما تؤمر! ".

***

عِلي أن هذا الخلاف لم يفسد ما بين أبي بكر وعِلـي رضي الله عنهما، فقد قربه أبو بكر وجعله من أهل مشورته، وأبقاه هو وعمر معه في المدينة يسألهما ويحاورهما في أحكام الشريعة، حتى يطمئن قلبه إلى الرأي الصواب فيما يعرض من قضايا وأحداث.

***

كان أول ما فعله أبو بكر هو إنقاذ جيش يقوده أسامة، وهو جيش جهزه الرسول ومات ❐ قلب أن يبرح المدينة.

وودع أبو بكر الجيش ماشيا، وأسامة على جواده.. فطلب أسامة منه أن يركب، وإلا نزل هو، قال له: " لا تنزل ولا أركب. ما ضر لو عفرت قدمي ساعة في سبيل الله ".

ثم جاءت وفود من العرب تطلب إعفاءها من الزكاة. وجاءت أخبار عن رجال ونساء في بعض أطراف جزيرة

العرب يدعون النبوة، وتابعهم بعض الأعراب، والأعـراب أشد كفرا..

خرجوا عِلى الإسلام جميعا، وما بقي على الإسـلام من العرب غير قريش في مكة، وثقيف بالطائف!!

ودعا أبو بكر الصحابة وشاورهم في الأمر، فأجمعوا على أن يحاربوا الذين خرجوا من الإسلام واتبعـوا أدعيـاء النبوة.

أما الذين امتنعوا عن الزكاة فقد اختلفت فيهم الآراء: فرأي أبو بكر أن يحاربهم لأنهم امتنعوا عما كانوا يؤدونـه لرسول الله ❐.

ورأى عِلِي أن السكوت عنهم خروج عِلـى السـنة، وأن الزكاة تقرن بالصلاة، فمن يمتنع عنها يهدر ركنًا مـن أركان الدين، ولا صلاة له.

ورأى عمر أن يسكت الخليفة عنهم، فهم مـن أهـل الشهادة والشهادة تعصم دماءهم.

ولكن أبا بكر وعلِيا رأيا أن الشهادة يجب أن تـؤدى بحقها، وحقها الصلاة والزكاة والصوم وحـج البيـت مـن استطاع إليه سبيلا

واقتنع الصحابة جميعا آخر الأمر بأن حرب مانعى الزكاة واجب شرعى وجهاد في سبيل الله.

وأعد أبو بكر جيشاً، وخرج شاهرا سيفه راكبا بعيره.. فقال له عِلي : " يا خليفة رسول الله. أقول لك كما قيل لرسول الله يوم أحد. أغمد سيفك ولا تفجعنا بنفسك، فو الله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعد نظام أبدا ".

ومضى الجيش.. وقاده أبو بكر في أول حملة، فإنتصر عِلي بعض أهل الردة، ثم عاد إلى المدينة، فما زال يسر الحملات حتى انتصر عِلي المرتدين ومدعي النبوة جميعا. ثم إن أبا بكر تطلع إلى نشر الإسلام خارج بلاد العرب، حيث كانت الشعوب المغلوبة تئن تحت وطأة الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، وترنو إلى فجر التحرير الذي يبزغ من الدين الجديد.

وبدأت الفتوحات الإسلامية المظفرة، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

وتوالت الأموال على خزائن الدولة من الغنائم والجزية والخراج..

وانتعش المجتمع الإسلامي، وبانـت فيـه مظـاهر الغنـي.

وبدأ بعض الصحابة يقتنون الدور الفاخرة والضـياع المثمرة والخيل المطهمة!.

ولم ترق هذه المظاهر للخليفة ولا لعمر ولا لعِلـي!

أما أبو بكر وعمر فقد حذرا من غمرة الدنيا...

وأما عِلي فقد انشغل بالعلم والتعِليم وتفقيه الناس في أمور الدين والدنيا، وبالفتيا كلما استفتاه أحد أو سأله خليفـة رسول الله.

وشاعت فتاوى عِلي ، وأصبح فقهه حجة منذ أخذ به الخليفة.

وكانت بعض هذه للآراء قد أفتى بها عِلي في زمـن الرسول فأقرها ...

فقد جاء رجل إلى الرسول وعِلي يومئذ باليمن فقـال الرجل: " شهدت علِيا أتى في ثلاثة نفر أدعو ولـد امـرأة. فطلب عِلي من كل واحد منهم أن يدع الولد للآخـر، فـأبوا

جميعا قال: أنتم شركاء مشاكسون. وسـأقرع بيـنكم فـأيكم

أصابته القرعة فهو له وعليه ثلثا الدية ". فضحك رسول الله ❐ حتى بدت نواجذه. وقال: " ما أعلم فيها إلا ما قاله عِلي ".

وكان رسول الله جالسا مـع عِلــي وجماعـة مـن الصحابة فجاء خصمان فقال أحدهما: " يا رسول الله إن لــي حمارا، وإن لهذا بقرة، وإن بقرته قتلت حماري ". فقال رجل من الحاضرين: " لا ضمان على البهائم " فقال ❐ : " اقـض بينهما يا عِلي " فقال عِلي لهما: " أكانا مرسلين أم مشدودين أم كان أحدهما مشدودا والثاني مرسلا؟ " فقالا: " كان الحمار مشدودا والبقرة مرسلة وصاحبها معها ". فقال عِلي : " علـى صاحب البقرة ضمان الحمار ". (أى تعويضه).

فأقر رسول الله ❐ حكمه وأمضى قضاءه.

وكان ❐ ينصح الصحابة باستشارة عِلــي كـرم الله وجهه ويقول لهم: " عِلي أقضاكم ".

من أجل ذلك حرص خلفاء الرسول عِلي استفتائه. وحين قاد خالد بن الوليد أحد جيوش الفتح المظفرة كتب إلى الخليفة أبي بكر: " وجدت فـي بعض ضـواحى العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة فما عقابه؟ ".. ولم يجـد أبو بكر نصا في القرآن ولا في السـنة عـن جـزاء هـذه

الجريمة.. فجمع نفرا من الصحابة فسألهم، وفيهم عِلي بن أبي طالب، وكان أشدهم يومئذ قولاً، قال: " إن هذا ذنب لم تعص به أمة من قبل إلا قوم لوط، فعمل بها ما قد علمتم فأحرقهم الله تعالى وأحرق ديارهم. أرى أن تحرقوه بالنار ".

فكتب أبو بكر إلى خالد " أحرقه بالنار ".

وسئل عن فداء أسرى المسلمين الجرحى من أيدي المرتدين فقال : " نفادى من كانت جراحاته بين يديه دون من كانت من ورائه، فإنه فار ".

وفي الحق أن اجتهاده كان دائما في الأمور المشكلة والقضايا الصعبة.

من ذلك أن رجلاً فر من رجل يريد قتله، فأمسكه له آخر حتى أدركه فقتله، وبقربه رجل ينظر إليهما، وهو يقدر علىا إنقاذه. ولكنه وقف ينظر. فأفتى عِلي كرم الله وجه بأن يقتل القاتل، ويحبس الممسك حتى يموت، وتفقأ عين الناظر الذي وقف ينظر إلى الجريمة، ولم يمنع وقوعها وهو قاد على ذلك بلا حرج!..

ومن ذلك أن رجلين، احتار عِلي الناس، فأصابا منهم أموالاً طائلة وذلك أن كل واحد منهما كان يبيع الآخر عِلي

أنه عبد، ثم يهربا من بلد إلى بلد، يكرران الفعل نفسه، فحكم بقطع أيديهما، لأنهما سارقان لأموال الناس.

ومن ذلك أن امرأة تزوجت، فلما كانت ليلة زفافهما أدخلت صديقها مخدعها سرا، ودخل الزوج المخدع فوجد العشيق فاقتتلا، فقتل الزوج غريمه فقتلت المرأة زوجها. فقضى بقتل المرأة في زوجها الذي قتلته، وبدية العشيق على المرأة، لأنها هي التي عرضته لأن يقتله زوجها فهي المتسببة في قتله، أما الزوج فإنما قتل غريمه دفاعا عن العرض، فهو قتل مشروع لا عقاب عليه ولا دية ولا تعويض.

ثم أنه أفتى بألا يحبس المدين في الدين وقال: "حبس الرجل بعد أن يعلم ما عليه ظلم ".

واستمر عِلِي كرم الله وجهه، يشير على أبي بكر رضي الله عنه كلما استشاره، ويقضي بين الناس كلما أحال إليه قضية صعبة أو أمرا مشكلاً..

وكان وقته بيت البيت يقرأ القرآن ويتدبر، ويدرس ما لديه من الكتب المقدسة، وغيرها من الكتب المتاحة من معطيات الحضارات المعاصرة له.

ثم يخرج إلى الناس للصلاة، ويتخذ له مكانًا في المسجد ويفتى من يسأله وبعلم فيه الناس الكتاب والحكمة، ويفسر القرآن، وهو به علي وعظ الناس.. ويقول للناس: " اسألوني ".

وكان مما فسر قوله تعالى: " وصدق بالحسني " (سورة الليل) الذي جاء بالصدق وصدق به، والذي جاء بالصدق هو رسول الله ❐ والذي صدق به هو أبو بكر. ذلك أنه عندما أخبره الوحي قال له: " صدقت بأبي وأمي أنت أهل الصدق. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ". وكذلك صدقه حين حكى له أنه أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. فسماه النبي: " الصديق ".

هكذا قال عِلي عن أبي بكر رضي الله عنهما وهو يفسر القرآن ويعظ التاس، ثم حلف بالله:إن الله أنزل علي رسوله اسم أبي بكر من السماء (الصديق)، فقد أوحي إليه منذ صدقه حين كفر به سواء أن يسميه (الصديق).

ثم إنه في تفسير الآية الكرية من سورة النور: " ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربي ". إن أبا بكر كان ذا سمعة، وكان ينفق على ابن خالة له فقير. فلما

خاض في حديث الإفك في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه. فلما جاء القرآن ببراءة عائشة. رق أبو بكر لان خالته. وعاد ينفق عليه، فنزلت الآية الكريمة..

فأبو بكر رضي الله عنه كما قال عِلي كرم الله وجهه

هو المعني بكلمة " ألو الفضل " في الآية الكريمة..

ثم روى عِلي لمريديه تعقيبا على هذا التفسير أنه دخل عِلي رسول الله ❐ وكان أبو بكر على يمينه، فتنحى أبو بكر عن مكانه وأجلس علِيا رضي الله عنهما بينه وبين رسول الله ❐، فتهلل وجه رسول الله فرحا وسرورا وقال: " لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا (ألو الفضل) ". فأبو بكر هو أولو الفضل..

وكان مما قاله في تفسير قصة آدم وإبليس في قوله تعالى: " اني خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس... " حتى آخر الآيات. قال كرم الله وجهه: " افتخر إبليس عِلي آدم بأنه خلق من نار وآدم من طين، وتعصب عِلي آدم بأصله، فإبليس إمام المتعصبين، وسلف

المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية.. فاحـذروا عبـاد اللهأن يعديكم بدائه وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلـب علـيكم بخيله ورجله... فأطفئوا ما كمن فـي قلـوبكم مـن نيـران العصبية، وأحقـــاد الجاهلية... فإنما نلك الحمية تكـون فــي المسلم من خطرات الشيطان ونزعاته ونفثائه... فـاتقوا االله ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وأدخلـتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق. اتخذهم إبليس جنـدا، وبهم يصول عِلي التاس، وتراجمة ينطق عِلي ألسنتهم.

وفسر الآية الكريمة.. " فلنحيينه حياة طيبة ". قال: " هي القناعة".

وقال وهو يعلم الناس في المسـجد، شـارحا الآيـة الكريمة من سورة النحل: " إن الله يأمر بالعدل والإحسان....

" العدل هو الإنصاف والإحسان هو التفضل.

" لا يقيم أمر الله سبحانه وتعالى إلا من لا يصـانع ولا يتبع المطامع... ".

ومما كان يعظ به من يتولي أمرا من أمور المسلمون صغر أو كبر: " لا ينبغي أن يكون الـوالى عِلــي الفـروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكـون

أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الخائف للدول قوما دون قوم، ولا المرتشى في الحكم فيذهب بالحقوق، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة. ومن نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإحلال من معلم الناس ومؤدبهم ".

ومن ذلك قوله: " من أكثر الفكر في العواقب لم يشجع (أى لم يتشجع).. إذا هبت أمرا فتقع فيه ".

ومن ذلك قوله كرم الله وجهه: " يأتي على الناس زمان لا يقرب فيه إلا الماحل (الواشى) ولا يظرف فيه إلا الفاجر، ولا يضعف فيه إى المنصف، يتخذون الفئ مغنما، والصدقة مغرما، وصلة الرحم منا، والعبادة استطالة على الناس، فعند ذلك يكون سلطان النساء، ومشاورة الإماء، وإمارة الصبيان "!.

ووعظ بقوله: " هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنه يحسنون صنعا".

" والقلب إذا كره عمِي "

" خيار خصال النساء شرار خصال الرجال: الزهو والجبن والبخل. فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها، وإذا كانت جبانة فرقت (فزعت) من كل شيء يعرض لها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ".

وكان يشاهد أمارات الثراء الجديد الضخم، ويخشي ما قد يصنع هذا الثراء الفاحش بالنفوس، من التزاحم والتنافس على المناصب والجاه، والتفاخر بالأموال والبنين، والتحاسد والتباغض، وإثارة نعرات الجاهلية.. فكان يعظ الناس داعيا إلى العدل والتراحم ومكارم الأخلاق: " من كساه الحياء ثوبه لا يرى الناس عيبه... أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع.. من أصبح عِلي الدنيا حزيـًنا فقد أصبح لقضاء الله ساخطـًا، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به، فقد أصبح يشكو به، ومن أتى غنيا فتواضع لغناه ذهب ثلثا دينه ".

" ما بال ابن آدم والفخر؟ أوله نطفة، وآخره جيفة، ولا برزق نفسه، ولا يدفع حتفه.

يا ابن آدم: كن وصي نفسك في مالك، واعمل فيه ما تؤثر أن يعمل فيه من بعدك ".

وكان مما يعظ به الناس حديث رسول الله ❐ " لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه ".

صحة الجسد من قلة الحسد.. حسد الصديق من سقم المودة.... ".

ومن أطاع التواني ضيع الحقوق، ومن أطاع الواشي ضيع الصديق... ".

" لا تجعلوا علمكم جهلاً، ويقينكم شكًا.. إذا علمتم فاعملوا، وإذا تيقنتم فأقدموا.... ".

" إن تقوى الله دواء داء قلوبكم، وبصر عمي أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء عشا أبصاركم، وأمن فزع جأشكم، وضياء سواد ظلمتكم ".

" إنه من استثقل الحق أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل ".

" لا تظلم كما لا تحب أن تظلم ".

" ظلم الضعيف أفحش الظلم ".

" من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته، وكان الله حربا عليه حتى ينـزع عن ظلمه ويتوب، وليس شيء أدعـى إلـى تغيير نعمـه وتعجيل نقمة من إقامة على ظلم، فـإن الله يسـمع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد ".

وسألوه في أحد مجالسه: " أيهما أفضـل العـدل أم الجود ". فقال: " العدل أشرف وأفضل لأنه يضع الأمور في مواضعها وخيره عام، أما الجود فعارض خاص ".

كما كان يعظ بقوله: " لا تحاسدوا، فإن الحسد يأكـل الإيمان كما تأكل النار الحطب ".

" لا يغرنكم ما أصبح فيه أهل الغرور فإنما هو ظل ممدود، إلى أجل محدود "...

" ما افتقر فقير إلا بغنى غني ".

" أفضل الزهد إخفاء الزهد ".

" المال والبنون حرث الدنيا والعمل الصالح حـرث الآخرة. وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام ".

" ألا عامل لنفسه قيل يوم بؤسه "؟!

" ما أكثر العبر وأقل الاعتبار "!.

" أصدقاؤك ثلاثة وأعداؤك ثلاثة: فأصدقاؤك صديقك وصديق صديقك وعدو عدوك، وأعـداؤك عـدوك وعـدو صديقك وصديق عدوك.. ".

" الناس أبناء الدنيا ولا يـلام الرجـل علـى حـب أمه ".

" اتقوا ظنون المؤمنين، فإن الله تعالى جعـل الحـق على ألسنتهم ".

وقال له بعض اليهود: " ما دفنتم نبيكم حتى اختلفـتم فيه ". فقال: " اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم: أجعل لنا إلها كما لهم آلهة فقال إنكـم قوم تجهلون ".

كما كان كرم الله وجهه يعظ الناس بقولـه: " يـوم العدل على الظالم أشد من يوم الجور عِلي المظلومين ".

وبقوله: " الثناء بـأكثر مـن الاستحقـاق ملـق، والتقصير عن الاستحقـــاق عى أو حسد ".

" العفاف زينة الفقر والشكر زينة الغنى ".

" من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضي برزق الله لم يحزن على ما فاته، ومن سل سيف البغي قتل به.... ومن كثر كلامه كثر خطئوه، ومن كثر خطئوه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار "..

" للظالم من الرجال ثلاث علامات: يظلم من فوقه بالمعصية، ومن دونه بالغلبة، ويظاهر القوم الظلمة ".

" عند تناهي الشدة تكون الفرجة، وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء ".

وقيل له: " لو سد على رجل باب وترك فيه فمن أين يأتيه، رزقه؟ " قال: " من حيث يأتيه أجله ".

وكان يعظ بقوله: " لا تظنن بكلمة خرجت من أحد سواء وأنت تجد لها في الخير محتملاً ".

" إضاعة الفرصة غصة ".

***

عاد عِلي كرم الله وجه ذات يوم إلى داره، فذكرته فاطمة بما كان من أمرها يوم دعاها النبي ❐ وهو على

فراش المرض فأسرع إليها شيئًا فبكت، ثم دعاها فأسرع إليها شيئًا آخر فضحكت..

قالت الزهراء رضي الله عنها: " أخبرني أنه ميت من وجعه هذا فبكيت. ثم أخبرني أني أسرع أهله لحوقًا به فذلك حين ضحكت ".

كانت قدر مرت ستة أشهر بعد وفاة أبيها، وما رؤيت فاطمة سلام الله عليها ضاحكة قط خلال تلك الشهور الستة!..

ثم أصبحت فاطمة تشكو، ورقدت أياما.

روت أم سلمة التي كانت تمرضها " " اشتكت فاطمة سلام الله عليها شكواها التي قبضت فيها فكنت أمرضها، فأصبحت يوما كأمثل ما رأيتها في شكواها تلك. وخرج علِي عليه السلام لبعض حاجته فقالت: اسكبى لي غسلاً، فسكبت لها فاغتسلت كأحسن ما رأيتها تغتسل. ثم قالت: يا أمه، اعطيني ثيابي الجدد. فأعطيتها فلبستها. ثم قال: يا أمه قدمي في فراشى وسط البيت.. ففعلت.

واضطجعت واستقبلت القبلة، وجعلت يدها تحت خدها، ثم قالت: " يا أمه اني مقبوضة الآن وقد تطهرت فلا يكشفني أحد ".

فجاء عِلي فأخبرته.

فأسرع عِلي وجهزها ودفنها بعد العشاء سرا كما

أوصت.

وبكاها أحر بكاء ووقف على قبرها يقول:

لكل اجتماع من خليلين فرقة
وإن الذي دون الفراق قليل
وإن افتقادى واحدا بعد واحد
دليل على ألا يدوم خليل

ثم ترك البقيع حيث دفنها، دون أن يترك على قبرها ما يدل عليه كما أوصته!.

ومضى إلى قبر النبي، فقال: " السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك وزائرتك، والمختار لها سرعان اللحاق بك. قل يا رسول الله عن صفيتك صبرى، وقل عنها تجلدى، إلا أن لي التأسي بسنتك، وفي فرقتك موضع تعز. إنا الله وإنا

إليه راجعون، وقد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة واختلست الزهراء، فما أقبح الخضراء والغبراء! يا رسول الله: أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد، ولا يبرح ذلك من قلبى حتى يختار الله لى دارك أنت بها مقيم. كمد مبرح وهم مهيج! سرعان ما فرق بيننا يا رسول الله! فبعين الله تدفن ابنتك سرا، ويهتضم حقها قهرا، ويمنع إرثها جهرا، ولم يطل منك العهد، ولم يخلق منك الذكر.. فإلى الله المشتكى وفيك أجمل العزاء. وصلوات الله عليك وعليها ورحمة الله وبركاته".

وعاد إلى داره وحيدا، مع أحزانه، يواسي صغاره: الحسن والحسين وزينب.

ولكنه ما كان ليترك في داره وحيدا!.. فقد أقبل عليه جماعة عرفوا بموت فاطمة الزهراء فجاءوا يعزونه.. وفيهم أبو بكر وعمر.

ولما أصبح الصبح الصباح لزم داره، مع أولاده الصغار يرعى شئونهم، وما عاد يخرج إلا إلى الصلاة.

ولكن أحدا في المدينة ما كان ليدعه، وفي المدينة مسائل تريد إجابات.

فوجئ عِلي بجماعة من الصحابة فيهم عبد الله بن العباس، وفيهم الخليفة أبو بكر، ورجل يهودي يقرعون عليه باب داره.

ذلك أن اليهودي دخل المسجد فسأل الناس، كما روى مالك بن أنس: " أين وصى رسول الله؟ " فأشار القوم إلى أبي بكر، فقال الرجل: " أريد أن أسألك عن أشياء لا يعلمه إلا وصى أو نبي ". قال أبو بكر: " سل عما بدا لك ". قال اليهودي: " أخبرني عما ليس الله، وعما ليس عتد الله. وعما لا يعلمه الله ".

قال أبو بكر: " هذه مسائل الزنادقة يا يهودي! ".

هم أبو بكر والمسلمون رضي الله عنهم باليهود – فقال ابن عباس رضي الله عنه: " ما أنصفتم الرجل! " فقال أبو بكر: " أما سمعت ما تكلم به؟ " فقال ابن عباس: " إن كان عندكم جوابه، وإلا فاذهبوا به إلى عِلي رضي الله عنه يجيبه، فإني سمعت رسول الله وعِلي آله يقول لعِلي بن أبي طالب: اللهم أهد قلبه وثبت لسانه ".

فقام أبو بكر رضي الله عنه، ومن حضره فأتوا عِلي بن أبي طالب في داره، فاستأذنوا عليه.

فقال أبو بكر: يا أبا الحسن إن هذا اليهودي سألني مسائل الزندقة! فقال عِلي كرم الله وجه: " ما تقول يا يهودي؟ ".

قال: " أسألك عن أشياء لا يعلمه إلا نبي أو وصي نبي ". فقال له: " قل ". فأعاد اليهودي الأسئلة.

فقال عِلي رضي الله عنه: " أما ما لا يعلمه الله فذلك قولكم معشر اليهود أن عزيز ابن الله، والله لا يعلم أن له ولدا (إذ لو كان له ولد لكان يعلمه)، وأما قولك: أخبرني بما ليس عند الله. فليس عنده ظلم للعباد، وأما قولك: أخبرني بما ليس الله. فليس الله شريك ".

فقال اليهودي: " أشهد أن محمدا رسول الله وأنك وصى رسول الله ".

فارتاح أبو بكر والمسلمون من جواب عِلي ، وقالوا: " يا مفرج الكروب! ".

الفصل الخامس

لولا عِلي لهلك عمر

لما انهزم الله الردة ودخلوا في دين الله سير أبو بكر جيوشًا كثيفة ففتحت بعض البلاد التابعة للإمبراطورية الرومانية، وبعض أجزاء من الإمبراطورية الفارسية.

وكانت بعض هذه الانتصارات باهرة ومذهلة حقًا، فقط استطاع جيش من أربعين ألف مجاهد يقوده خالد بن الوليد أن يهزم نحو مائتين وأربعين ألف مقاتل من أقوى عسكر الروم في معركة اليرموك!..

ذلك أن المجاهدين المسلمين كانوا يندفعون إلى المعارك بحرص رائع على الموت لتوهب لهم الحياة، وليظفروا بإحدى الحسنيين. إما أن يقتلوا في سبيل الله فيصبحوا شهداء، فليسوا أمواتًا، بل أحياء عند ربهم يرزقون، وإما أن ينتصروا فينشروا دين الله وينعموا بما يتيحه النصر من كرامة ونعيم.

ولقد عادت هذه الفتوحات على الفاتحين بالأموال الطائلة.. حقـــا!

إذ كان أمراء جيوش الفتح يرسلون خمس ما يغنمون إلى الخليفة، فهو حق الله ورسوله، ينفقه خليفة رسول الله على مصالح الدولة كما قضى الله بذلك.

وأما ما تبقي من الغنائم وهي أربعة أخماس فتوزع على المقاتلين.

كان من بين الغنائم كنوز نادرة من الذهب والفضة، والجواهر، وأراض شاسعة خصبة كثيرة العطاء، وآلاف من السبايا فيهن ذوات الأحساب والأنساب، من بيوتات الفرس والروم..

وعندما تدفقت هذه الأموال، والخيرات العميمة والسبايا الجميلات، على رجال لم يألفوا الغني بعد، وقد خاضوا الغمرات بحرص على الموت.. أصبح من بين هؤلاء الرجال أنفسهم بعد الغني المفاجئ من هم لأحرص الناس على حياة!!

واشرابت أطماع.. وزين للناس حب الشهوات من النساء، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة!

ورأي أبو بكر ذلك كله، ونفسه تتقطع حسرات على بعض صحابة رسول الله!!

فقال حين عهد بالأمر بعده لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما! " احذر هذا النفر من صحابة رسول الله ❐ الذين فتنتهم الدنيا فانكبوا عليها ".

ولقد نصح عبد الرحمن بن عوف لأبي بكر ألا يستخلف عمر، وقال: " إن فيه غلظة ".. ولكن أبا بكر استخلفه من أجل شدته، ليرد المشغولين بمتاع الحياة الدنيا، إلى ما يجب عليهم من القصد والاعتدال!..

ثم إن أبا بكر دافع عما يسمونه غلظة عمر بقوله: "ذلك أن يراني رقيقًا، وقد رمقته فكنت إذا غضبت عِلي رجل أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدة عليه، ولو أفضى إليه الأمر لترك كثيرا مما هو عليه مما ينفرك منه. ولا أدري لعِلي تاركه! فالخيرة له ألا يلى من أموركم شيئًا ". ثم قال في ضيق بهم: " لوددت أني كنت من أموركم خلوا!! ".

ولقد يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم؟! أنت ملاق ربك فسائلك عن رعيتك ". فقال أبو بكر: " اجلسوني ". فأجلسوه، فقال: " أبالله تخوفني؟! إذا لقيت ربي فسألني قلت له: استخلفت عِلي ألك خير أهلك ".

ثم إنه استدعى عثمان فسأله عن رأيه في عمر فقال عثمان: " سريرته خير من علانيتة. وليس فينا مثله ".

فقال له اكتب: " هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة آخر عهده بالدنيا نازحا عنها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، إنني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن تروه عدل فيكم، فذلك ظني ورجائى، وإن بدل وغير فالخير أردت ". ثم ختم أبو بكر الكتاب بخاتمة، وأبقاه عنده.

فلما شاع في المدينة خبر عبد أبي بكر لعمر، غضب فتيان من بني هاشم، وغضب معهم بعض الأنصار، ورأوا في هذا هضما لحق عِلي..

وأشفق بعض المهاجرين من شدة عمر، وخشوا أن يحرمهم المتاع الجديد الذي أتاحته لهم الفتوحات، فذهبوا جميعا إلى أبي بكر منكرين عليه أن يعهد إلى عمر، فمنهم من تمني أن يعهد إلى عِلي لأن هذا الأمر حقه، ومنهم من تمني عثمان أو عبد الرحمن فكلاهما أرفق بهم وألين معهم من عمر..!

فلما اجتمع الناس إلى أبو بكر أمر أن يجلسوه، فأجلسوه وقال: " أيها الناس. قد حضرني من قضاء الله ما

ترون. وإنه لا بد لكم من رجل يلى أمركم، ويصل بكم، ويقاتل عدوكم، وينهاكم ويأمركم، فإن شئتم اجتمعتم فأتمرتم، ثم وليتم عليكم من أردتم، وإن شئتم اجتهدت لكم رأيى ".

ثم بكى، فبكى الناس، وقالوا: " يا خليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا، فاختر لنا ". قال: " سأجتهد لكم رأيى، وأختار لكم إن شاء الله ".

فلما مضى عنه الناس، وأصبح وحده أرسل إلى عمر فقال: " يا عمر أحبك محب، وأبغضك مبغض، وربما يحب الشر ويبغض الخير ". فقال عمر: " لا حاجة لي بها ". فقال أبو بكر: " لكن بها إليك حاجة. والله ما حبوتك بها، ولكن حبوتها بك. خذ هذا الكتاب، واخرج به إلى الناس، وأخبرهم أنه عهدي، وسلهم عم سمعهم وطاعتهم ".

فخرج عمر بالكتاب، وأعلم الناس فقالوا: " سمعا وطاعة ".

فقال له أحد الأنصار الذين كانوا يريدون استخلاف عِلي: " ما في الكتاب يا أبا حفص؟ ". قال عمر: " لا أدري، ولكني أول من سمع وأطاع ". فقال الرجل: " والله اني

لأدري ما في هذا الكتاب! أمرته عام أول، وأمرك هذا العام".

***

وبعد أيام ذهب بعض الصحابة من المهاجرين يعودون أبا بكر وفيهم عبد الرحمن ابن عوف، وكان قد بدأ يقتنع بعمر، فقال عبد الرحمن: " كيف أصبحت يا خليفة رسول الله.. فإني أرجو أن تكون بارئًا ". قال: " أترى ذلك؟ " قال: " نعم ".

وأخذ أبو بكر يتأمل ما عليهم جميعا من فاخر الثياب، وقد وضعوا نفيس الجوهر وحلوا بأساور من فضة.

وقال أبو بكر في حزن: " والله اني لشديد الوجع. ولكن الذي ألقاه منكم يا معشر المهاجرين أشد عليّ من وجعي. اني وليت أمركم خيركم عندي، فكلكم ورم أنفه من ذلك، يريد أن يكون هذه الأمر له، وذلك لما رأيتم الدنيا قد أقبلت، أما والله لتتخذن ستور الحرير ونضائد (وسائد) الديباج! والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا. وأنتم أول ضال بالناس غدًا، فتصدونهم عن الطريق يمينًا وشمالاً ".

فقال عبد الرحمن: هون عليك رحمك الله. إنما الناس في أمرك بين رجلين: إما رجل رأي ما رأيت فهو معك، إما رجل خالفك فهو مثير عليك. وصاحبك عمر كما تحب، ولا نعلمك أردت إلا خيرا، ولم تزل صالحا، وأنك لا تأسي على شيء من الدنيا ".

ولكن الخليفة استعبر وبكى، لأنه يأسي على أكثر من شيء فعله، وعلى أشياء لم يفعلها!

وأول ما يأسي عليه مما فعل هو ترويع فاطمة!.

وأما ما لم يفعل، فهو يأسي عِلي أنه لم يسأل الرسول ❐ عمن يخلفه وعن حق الأنصار في الخلافة، وعن ميراث العمة وبنت الأخ!..

***

ولقد صحت فراسة أبي بكر في بعض المهاجرين، فقد فتنول بالدنيا فتونـًا.

الأموال تتدفق عليهم من البلاد المفتوحة.

والسبايا الفاتنات، يوزعن عليهم، أو يعرضن للبيع في أسواق الرقيق!

ولقد تفرغ فتى من أبناء الصحابة لجارية رومية من السبايا، كانت من سادات قومها، فعنفه أبوه، وأعتق الفتى جاريته وتزوجها، فغلبته على عقله، وجن بها، وأصبح لا يطيق البعد عنها، ولا يخرج إلا للصلاة!

قال له أبوه الصحابي الجليل: " يا بني إني أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك وغلبت على عقلك، فطلقها ". فقال: " يا أبت، لست أقدر على ذلك ". فقال: " أقسمت عليك إلا طلقتها ".

فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها.

غير أنه جزع عليها جزعا شديدًا، فعاف الطعام والشراب، ,اخذ يضطجع في الشمس، ويهذى باسمها!

فلما اشرف الفتى عِلي التلف، أشفق عليه أبوه فأمره أن يجعها إليه ويعتدل!!

كان بعض هؤلاء الرجال يعودون بعد أن قاتلوا بحرص عِلي النصر أو الاستشهاد، فإذا هم وقد امتلأت خزائنهم بالأموال، وبيوتهم بالسبايا الفاتنات يعيشون حياة باهرة من البطالة، والفتوة، والثراء، والمتاع.

أموال، وضياع، ونساء.. والشراب أيضا!!

ذلك أنهم تأولوا القرآن الكريم، فزعموا أن ما فيه من آيات عن الخمر لا تنهي عن الخمر، ولكنها تحضهم عِلي أن ينتهوا.. وذهبوا إلى أن القرآن ليس فيه عقاب واضح وصريح على شرب الخمر! فهي إذن ليست حراما!!

ورأى عمر وهو يتفقد الرعية ليلاً جماعة يشربون الخمر في أحد بساتين المدينة فدعاهم إليه في الصبح، وعنفهم على ما فعلوه في الليل، فقال له أحدهم: " وكيف عرفت؟ " قال " " أنا رأيتكم من خلف الحائط ". قال: " ألم يقل الله تعالى ولا تجسسوا؟ ".

***

بل إن بعض النساء كن يغشين مجالس الرجال!! حتى لقد اتهم أحد أمراء الجيش بامرأة خلال فتح العراق، ولكن أحد الشهود الأربعة اختلف فأمر عمر بجلد الشهود!

ثم إن الولع بالغناء شاع في ذلك العصر.

وكان عمر بن الخطاب صاحب صوت جميل، وتغني يوما وهو راكب بحداء معروف من أراجيز العرب، فاجتمع الركب عليه يسمعون إليه، فلما انتهى من الحداء، قرأ القرآن، فتفرق عنه الركب، فعاد إلى الحداء فاجتمعوا من جديد، ثم

عاد للقرآن فانفضوا عنه، فصاح: " يـا بنــي اللقطـاء!! إذا أخذت في مزامير الشيطان اجتمعتم، وإذا أخذت في كتاب الله تفرقتم؟! ".

على أن هذا السرف في ألـوان المتـاع والتـرف، والاستغراق في اللذات بعد خوض الغمرات، كـان يواجهـه نداء ملح من بعض الصـحابة بالزهـد وبـالتقوى والعفـة والورع..

وفي طليعة هؤلاء الدعاة للزهد عمر، وعِلي .

وكان عِلي شديد الإلحاح على النـاس فـي دعوتـه للورع والتقوى فيما وعظ به الناس من روائع الحكمة، وهي تعبر عن موقفه من الحياة الجديدة.

من ذلك قوله: " يا ابن آدم، لا تحمل هم يومك الذي لم يأت على يومك الذي أنت فيه... وأعلم أنك لا تكسب من المال شيئًا فوق قوتك وإلا كنت خازنًا لغيرك فيه ".

وما ادخر هو نفسه قط ما فوق قوته.. بل إنه كـان يتصدق بقوته إن سأله جائع أو محروم!!

ذات يوم وهو يصلي في المسجد سأله سـائل، فلـم يخرج من الصلاة، ولم ينتظر حتى يفرغ منها، بل مد يده من

وراء ظهره للسائل وفيها خاتمه، وما كان يملك غيره، فخلعه السائل من أصبعه.

ومضى السائل، وأكمل كرم الله وجهه صلاته راضيا مرضيا!..

ومما وعظ به الناس: " من سره الغنى بلا مال، والعز بلا سلطان، والكثرة بلا عشيرة فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته، فإنه واجد ذلك كله ".

" عباد الله، زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وحاسبوها قبل أن تحاسبوا، وتنفسوا قبل ضيق الخنادق، وانقادوا قبل عنف السياق (انقادوا لما يطلب منكم قبل أن تساقوا إليه بالعنف) واعلموا أنه من لم يعن عِلي نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر، لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ ".

" اتقوا الله تقية ذى لب شغل التفكير قلبه، وأنصب الخوف بدنه، وأسهر التهجد غرار نومه، وأرجف الذكر بلسانه ".

" اتقوا تقية من سمع فخشع، واقترف فاعترف. ووجل فعمل، ورجع فتاب. واقتدى فاحتذى ".

وكان يصف لهم الدنيا بقوله: " ما أصف في دار أولها عناء، وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، من استغني فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فأتته (ساعاها: سعى في طلبها)، ومن قعد عنها واتته، ومن أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته.. ".

وبقوله: " إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى، وطول الأما. فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة.. إن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب لا عمل... طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة.

أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطًا، وترابها فراشًا، وماءها طيبًا، والقرآن شعارا، والدعاء دثارا، ثم قرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح (أى مزقوها كما يمزق الثوب بالمقراض على طريقة المسيح في الزهادة).

***

لا ريب أن مواجهة الموت في الحرب ثم النجاة منه والانتصار على الأعداء، يثير في النفس حب الشهولت،

ولكن بعض الصحابة ما كان هذا كله لثير فيهم إلا تقوى الله، والحرج، والورع، والزهد.

ولقد نادى أبو بكر ابنته عائشة عندما استشعر دنـو أجله، وقال لها: " انظري يا بنية ما زاد في مال أبيـك منـذ ولي الأمر فرديه عِلي المسلمين "

وكان رضي الله عنه تأجرا موسرا، فترك التجـارة وانقطع للإمارة نظير أجرة ثلاثة دراهم كل يوم!..

فلما مات نظرت عائشة فيما تركه، فلم تجـد غيـر قطعة بالية من القطيفة تساوى خمسة دراهم، وحديدة تحـرك بها النار!

فأرسلت إلى عمر بذلك، والناس حوله فبكـى عمـر وبكى الناس وقال: " رحمك الله يا أبا بكر لقد كلفت من بعدك تعبا طويلاً ".

قال الناس " أردده يا أمير المؤمنين إلى أهله ".

قال عمر: " كلا لا يخرجه من عنقه في حياته وأرده إلى عنقه بعد وفاته ". ثم أمر بتحويله إلى بيت المال.

كان هذا السلوك حريا بأن يعـظ طـلاب المتـاع، والعاكفىن على الشهوات يكنزون الذهب بالفضة.. ولكن ما

أكثر العبر وأقل الاعتبار، كما قال عِلي الذي ما انفك يعلـم الناس ويفتيهم في المسجد ويواجه هذا الطوفان من الأطمـاع والنهم والحرص عِلي الحياة الدنيا بالدعوة إلى الله.

يقول " رحم الله رجلاً نزع عن شهوته، وقمع هـوى نفسه، فإن هذه النفس أبعد شيء منزعا، وإنها لا تزال تسرع إلى معصية في هوى، إن رسول الله ❐ كـان يقـول: " إن الجنة حفت بالمكاره، وإن النارحفت بالشهوات "."

التقي من ألزم نفسه العدل، فكان أول عدلـه نفـي الهوى عن نفسه، .

" من لج قلبه بحب الدنيا التـاط (التصـق) قلبـه بثلاثة: هم لا يبرحه، وحرص لا يتركه، وأمل لا يدركه"..

" إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمـن فه عنها، ودار غني لمن تزور منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة.. من هوان الدنيا على الله ألا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها... الركون إلى الدنيا مع ما تعاني منها جهل!..

من هوان الدنيا عِلي الله أن رأس نبي الله يحيى عليه السلام جعلت مهر بغى من بغايا أورشليم!.. ".

" الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر "..

" لا ينبغي لعبد أن يثق بخصلتين: العافية والغنى.. بينما تراه معافى إذا سقم، بينما تراه غنيا إذا افتقر.. إن المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة... من عمل لدينه كفاه الله أمر الدنيا... اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ".

ونصح أقواما بقوله: " قال تعالى: (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم).

وقال تعالى: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسناً فيضاعفه له، وله أجر كريم)، فلم يستنصركم من ذل، ولم يستقرضكم من قل (قلة)، وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً... فإنك ما تقدم من خير يبق لك ذخره، وما تؤخره يكن لغيرك خيره "..

وبقوله: " الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلِي كل داخل في باطل إثمان: إثم العمل به، وإثم الرضا عنه ".

" احذر كل عمل يعمل به في السر، ويستحيا منه في العلانية.. الصبر صبران:

صبر على ما تكره وصبر عما تحب.. من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن من أساء به الظن.. ما المجاهد الشهيد في سبيل الله، بأعظم أجرا ممن قدر، فعف ".

كان عِلي كرم الله وجهه قد فرغ من جمع القرآن في مصحف، وتفرغ للعلم والتعِليم، وقال بعد أن أتم إعداد المصحف: " رحم الله أبا بكر. كان أعظم الناس أجرا في جمع المصاحف ".

فقد نشط أبو بكر إلى جمع القرآن وكتابته في مصاحف منذ استشهد عدد كبير من القراء في حروب الردة، وبعد إلحاح الصحابة عليه.

***

لما ولي عمر بن الخطاب، أراد أن يذهب إلى قتال الروم ولكن عِلي بن أبي طالب أقنعه أن في الجيوش التي

كان قد أعدها أبو بكر كفاية، وقد حقق قوادها نجاحًا كبيـرا، وكل ما يحتاج هؤلاء القواد هو المدد من عمر.

ولكن عمر رأى أن مسيرة لا مندوحة عنـه ليقـود المجاهدين بنفسه، فيثير فيهم الحماسة، ويحقق الله به النصر المبين. فقال له عِلي: " إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتنكب، ولا تكن للمسلمين كانفـة (أى كنـف) دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم مجربا، واحفز معه أهل البلاد النصيحة. فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى، كنت مثابة للمسلمين ".

فولى عمر أبا عبيدة على الجيش.

وفتحت جيوش المسلمين أرض العراق والشام كلهـا ومصر، وهرب هرقل إلى القسطنطينية ونظـر إلـى آخـر معاقله في سوريا فبكى وهو يقول: " سلام عليك يا سـورية، سلام لا اجتماع بعده! ".

وقال أحد قواد الروم للمقوقس يصـف المجاهـدين العرب: " رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة والتواضـع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم من الـدنيا رغبـة ولا نهمة، ,وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم،

ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لا يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء. ويتخشعون في صلاتهم ". فقال المقوقس: " والذي يحلف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد ".

ولما اعتدى الفرس على المسلمين بعد ذلك، وأراد عمر أن يفتح بلاد الفرس، استشار علِيا في الخروج لقتال الفرس بنفسه فقال عِلي: إن هذا لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة، وهو دين الله الذي أظهره وجنده الذي أعده

وأمده حتى بلغ ما بلغ. ونحن على موعد مع الله والله منجز وعده، وناصر جنده، ومكان القيم بالأمر مكان النظام (أى السلك) من الخرز، يجمعه ويضمه، فإذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا. والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع. فكن قطبا واستدر الرحى بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض، انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولوا: هذا أصل العرب، فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك

أشد لكلبهم (تكالبهم) عليك، وطمعهم فيك. فأما ما ذكرت من سير القوم لقتال المسلمين، فإن الله سبحانه، هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره. وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة (من الله تعالى) ".

***

واستطاع المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص وسلمان الفارسي أن يفتحوا أرض فارس " المدائن " عاصمة الفرس، واتخذ سعد إيوان كسرى مصلى. وقرأ في صلاته قوله تعالى: (كم تركوا من جنات وعيون * و زروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين).

وأرسل سعد إلى عمر بالمدينة كنوز كسرى وتيجانه. وبنات كسرى وأسيافه...

وكان الفرس من قبل قد غزوا الهند والترك. ومنهم غلبت الروم في أدني الأرض، ونهبوا جواهر ملوك الهند والترك وأباطرة الروم فآل كل ذلك للفاتحين.

وأرسل سعد إلى عمر _ إلى جوار خمس الفيء – بساطا واحدا طوله ستون ذراعا وعرضه مثل ذلك، وقد نقش عليه بالذهب والجواهر، طرق وأنهار وأزهار وثمار!..

وقد نال كل جندى من جنود سعد بن أبي وقاس اثني عشر ألفًا غير الدور.. وكانوا ستين ألفًا.. وبلغ ما دخل بيت المال ثلاثين ألف ألف أى ثلاثين مليونًا...

وقال عمر وهو يتأمل الغنائم: " إن قوما أدوا هذا لأمناء ". فقال عِلي : " يا أمير المؤمنين، عففت فعفت رعيتك ولو رتعت لرتعوا ".

وجمع عمر الناس، وعرض عليهم الغنائم، وظل يفحص جواهر كسرى النادرة ويتجانه وكنوزه ويتأملها، فبكى!

فقال له عبد الرحمن بن عوف: " ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فو الله إن هذا لموطن شكر ". قال عمر: " ما أعطى الله هذه النعمة لقوم إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا ألقى الله بأسهم بينهم ".

ثم اشار إلى الغنائم النفيسة وأقسم على عبد الرحمن بن عوف أن يقسمها فهو علِيم بالجواهر، لتوزع في الوقت.

وقسم ابن عوف المتاع، ووزعه عمر على النـاس، بادئًا بأهل السابقة في الإسلام.

وبقي البساط المرصع بالذهب والجـواهر النـادرة، وكان لا ينقسم، وسألهم عمر المشورة في أمر البساط فقـال بعضهم: " قد جعل الجند ذلك لك ". ومنهم من قـال: " إنـه لأمير المؤمنين لا يشركه فيه أحد " وزاد أحدهم: "يـا أمـر المؤمنين لقد أشغلناك عن أهلك وضيعتك وتجارتك فهو لك ".

فقال عِلي: " يا أمير المؤمنين لم يجعـل الله علمـك جهلاً ويقينك شكًا. إنه ليس مـن الـدنيا إلا مـا أعطيـت فأمضيت، وقسمت فسويت، أو لبسـت فأبليـت، أو أكلـت فأفنيت. وإنك إن تبقه اليوم على هذا لم تعدم في غـد مـن يستحق به ليس له ".

قال عمر: " صدقتني ونصحتني يا أبا الحسن ".

ثم قطع البساط وقسمه، فأصاب علِيا منه قطعـة لـم تكن أجود من غيرها فباعها بعشرين ألفًا.

أما بنات ملك الفرس، فقد أراد عمـر أن يبـيعهن كالجواري، ويضع ثمنهن في بيت المال.. وأعطاهن للـدلال ينادي عليهن بالسوق، فكشف الدلال عـن وجـه أحـداهن،

فلطمته لطمة شديدة، فصاح الرجل: " واعمراه! "، وشكا إليه، فدعاهن عمر، وأراد أن يضربهن بالعصا فقال علي رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: (أكرموا عزيز قوم ذل وغني قوم افتقر) إن بنات الملوك لا يبعن، ولكن قوموهن".

فقوموهن وكن ثلاثًا، فأعطاه أثمانهن ووهبن: واحدة لمحمد بن أبي بكر، والثانية لعبد الله بن عمر، والثالثة لابنه الحسن.

***

فتح المسلمون بلاد الشام والعراق ثم فارس، ومصر فأفاء الله عليهم إلى جوار الأموال الطائلة والكنوز الباهرة والجواهر النادرة، أراضي واسعة شاسعة، غزيرة الثمار، غنية العطاء، كانت هي مهد الحضارات المعروفة آنذاك بكل

معطياتها من الثراء المادي والمالي والفني والفكري:.

ورأى بعض المسلمين أن يقسم الخليفة عمر بينهم الأرض المفتوحة، كما قسم رسوا الله ﷺ أرض خيبر، وكما صنع أبو بكر فيما غنموه من أرض فتحوها في عهده..

فقال عمر: " إذا قسمت أرض العراق وأرض الشـام وغيرها، فماذا نسد به الثغور، وما يكون للذرية والأرامل؟".

فقال عبد الرحمن بن عوف: " ما الأرض بعلوجها إلا ما أفاء الله عليـنا".

(علوجها جمع علج هم رجالها من غير العرب).

قال عمر:" فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد قسمت، وورثت عن الآباء وحيزت"؟

وأكثروا على عمر وقالوا: " أنفقت ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا؟".

وجمع عمر المهاجرين الأوائل، فأيده عثمان وعلي وطلحة، وعرضه الآخرون، واشتد عليه الزبير بن العوام وبلال بن رباح.

وشرح علي لهم أن الأرض يجب أن تبقى لمن يفلحها، وأن يوضع عليها إخراج يدخل بيت المال فيوجه للمصلحة العامة، وتجري منه الرواتب على المجاهدين، وعلى من يستحقونها من المهاجرين والأنصار.

ولكن الآخرين صمموا أن تقسم الأرض بعبيدها الذين يفلحونها، وتمسكوا، ثم إنهم أصروا عِلي ذلك إصرارا، حتى اتهما عليا وعثمان وطلحة بمخالفة السنة!!

واتهموا عمر بالظلم. وكان أشدهم في ذلك الزبير بن العوام..!!

فوقف عمر يخطب الناس:"قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا اني أظلمهم حقوقهم، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلما، فوالله لو كنت نطقت بأمر أريده، فما أريد به إلا الحق. لئن كنت ظلمتهم شيئًا هو لهم وأعطيته غيرهم، لقد شقيت! ولكني أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى، وقد غنمنا الله أرضهم وأموالهم وعلوجهم، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله، وأخرجت الخمس فوجهته عِلي وجهه، وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها، وأضع فيها الخراج (الضرائب) وفي الرقاب الجزية، يؤدونها فتكون فيئًا للمسلمين. أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش، ولا بد لها من رجال يلزمونها، وأجراء العطاء عليهم، فمن يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض؟".

فانحاز الأنصار وعدد كبير من المهاجرين لرأيه فقالوا:" "نعم ما قلت وما رأيت. فلتشحن هذه المدن وهذه الثغور بالرجال، وتجري عليهم ما يتقون به أهل الكفر". ثم أجمعوا على رأي عمر وعِلي .

ولقد بلغت جباية الكوفة وحدها مائة ألف ألف درهم (مائة مليون) وحهها عمر كما وجه غيرها للمنفعة العامة، وأجرى منها الأعطيات عِلي الجميع حتى الذين كانوا يعارضونه، فأصاب كل منهم مبلغاً كبيرا. وجعل عِلي أهل مصر نصف أردب من القمح عِلي كل فدان. فجمع من خراج (ضريبة) الأرض وحدها اثني عشر ألف ألف دينار (أى اثني عشر مليون دينار ذهبا!!).

ولما أراد عمر أن ينشيء الديوان الذي يحتفظ فيه برواتب المسلمين، آخذا بالنظم التي كانت قائمة عند الفرس والروم، قال له عبد الرحمن بن عوف: "أبدا بنفسك" فقال عمر: "بل أبدا بقرابة رسول الله ".

وبدأ بالعباس عم الرسول، ونساء النبي، وعِلي بن أبي طالب، والأقرب للنبي فالأقرب، ثم أهل بدر، وألحق بأهل بدر أربعة من غير أهلها هم الحسن بن عِلي والحسين

ابن عِلي وأبو ذر، وسلمان، ثم جعل الناس طبقات وفق ما لهم من فضل وسابقة في الإسلام، ووفق حاجتهم وأعلن قواعد التوزيع:"لكل وسابقته، لكل وعمله وبوءه، لكل وحاجته". ففضل السابقين من المهاجرين والأنصار، ثم من أسلم قبل الفتح، ثم من أسلم بعده ثم المجاهدين حتى آخر معركة..وكان أكبر مبلغ فرضه هو ما تقاضاه العباس عم الرسول: فقد فرض له اثني ألفا، وفرض لنساء النبي لكل واحدة عشرة آلاف، ونساء أهل بدر خمسة، وكان أدني ما فرض مائة، ثم جمع الناس وقال لهم: " إني كنت امرءا تأجرا يغني الله عيالي تجارتي وقد شغلتموني بأمركم، فماذا ترون أنه يحل لى من هذا المال؟" فأكثر القوم عليه يقترحون الإغداق، وعِلي صامت. فلم يحفل بما يقولون وسأل عِليا: " ما تقول يا أبا الحسن؟" قال عِلي: "ماصلحك وأصلح عيالك بالمعروف. وليس لك في هذا المال غيره". فقال عمر:"الله أكبر، صدقت يا أبا الحسن. لولا عِلي لهلك عمر".

واستنكف جماعة من أهل الشام من اسم الجزية، وارتضوا أن يدفعوا بشرط تغيير اسمها، ولكن عمر صمم

عِلي أن يدفعوا الجزية صاغرين باسم الجزية، فاحتكموا إلى عِلي، فأقنع عمر أن يقبل منهم الجزية باسم صدقة تطهرهم.. فلما اقتنع عمر، دخل عدد منهم في الإسلام.

***

استطاع عِلي بحسن المشورة لعمر أن يخفف من شدته، وأن يشد أزره في وجه أصحاب المطامع الذين أغراهم الغنى المفاجئ..

واطمأن عمر، واتخذ عِلي بن أبي طالب صديقًا، على الرغم من أن علِيا أصغر منه بنحو عشرين عاما.. استطاع عمر بفضل حسن الصحبة وحسن المشورة أن يواجه كثيرا من المعضلات..

أما هذا التحول الجديد في مجتمع المدينة، وزحف قيم جديدة تزحم القيم التي بعث الله بها النبي، فقد كان يعني عمر بن الخطاب ويضنيه، واني له، أن يواجهه!! ولقد روعه أن سمع امرأة قد سهدت في فراشها تغني:" هل من سبيل إلى خمر فأشربها؟".

لقد دعا الله في حياة الرسول أن ينزل حكما قاطعا في الخمر، فنزل فيها حكم الله ولكن لم يلبث الرسول ❒ أن

مات، ولحق به خليفته رضي الله عنه حتى زعم أقوام أن الحدود جميعا قد وردت في القرآن: وهي حد القتل والجرح وهو القصاص، وحد الزنا، وحد القذف، وحد السرقة، وحد قطع الطريق والإفساد في الأرض. أما الخمر فلم يرد لها حد، فلا عقاب على شربها !!..

وهكذا انهمكوا فيها، حتى لقد أرسل أمراء جيوش الفتح مثل سعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة بن الجراح إلى عمر يشكون مقاتلين يحتفلون بعد الانتصارات باحتساء الخمر، ويزعمون أنهم لم يجدوا في كتاب الله ولا في سنة رسوله جزاء لشارب الخمر!

وفزع عمر رضي الله عنه إلى عِلي كرم الله وجهه يسأله.

فكر عِلي مليا ثم قال لعمر:" يا أمير المؤمنين أليس المرء إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذي افترى، وعلى المفتري ثمانون جلدة"؟ فكبر عمر أن وجد الحكم الذي ينشده، باجتهاد عِلي ، وقال:" يجلد شارب الخمر ثمانين جلدة".. وظل يكبر ويقول:" لولا عِلي لهلك عمر"..

وهكذا جعل حد شرب الخمر هو حد القذف.

ثم استشار عمر علِيا وامرأة مر بهما عمر وهو يتفقد رعيته في دجى الليل، فوجد بينهما ما بين الرجل وزوجته، وفي الصباح علم أنهما ليسا زوجين، فأمر بأن يحدا.

ولكن عليا قال له:" أجئت عليهما بأربعة شهداء". فقال عمر أنه هو الذي شهدهما وحده، فأفتاه عِلي بأنه لا يحق له أن يحكم بعلمه هو وحده. فعسى أن يكون قد شبه له، أو أخطأ، فلا بد من الشهداء كما نص القرآن وجرت السنة.

وفي الحق أن عمر كان يشتد ليقاوم الفاحشة التي أوشكت أن تشيع في الظروف الاجتماعية الجديدة، وما كان عِلي أقل من تحرجا، وتشددا، ولكنه أراد أن يحمي الناس من

الآخذ بالظاهر، وألا يقع الجزاء إلا عِلي من تيقن ولي الأمر عين اليقين أنه مذنب، بعد أن تتاح له كل وسائل الدفاع التي كفلتها الشريعة.

فعِلي كرم الله وجهه ما كان يجد أمرا فيه فرج حتى يأخذ به..من ذلك أن عمر استشار عددا من الصحابة في امرأة قد زنت، وشهد عليها أربعة شهداء عدول، فأجمعوا على رجمها، فلما ذهبوا ليرجموها، مر بهم عِلي فقال:" ما شأن هذه؟" قالوا:" مجنونة بني فلان زنت فأمر بها أن

ترجم". فانتزعها عِلي من أيديهم، وردهم، فجعوا إلى عمـر، فقال:" ما ردكم؟" قالوا:"ردنا عِلي". فقال عمر:" ما فعل أبـو الحسن هذا إلا لشيء قد علمه". فجاء عِلي شبه غاضـب، فسأله عمر:" ما بالك قد رددت هؤلاء؟" فقال عِلي :"أما سمعت قول رسول الله رفع القلم عن ثلاث: عن المجنـون حتـى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل؟ فما بال هذه ترجم؟".

سأل عم صاحب القضية:" ما صنعت؟" قال:" قضـى عِلي وأيده زيد بكذا". فقال عمر:" لو كنت أنا لقضيت بكذا!!" فقال الرجل: "فيما يمنعك والأمر إليك". قال:" لو كنت أردك إلى كتاب الله أو إلى سنة نبيه لفعلت، لكنـي أردك إلـى رأيي"..

وقد نشأت أقضية اختلف عليها عمر وعمل..من ذلك أن رجلاً تزوج امرأة في عدتها، ففرق عمر بينهما، وقضى أنها لا تحل له بعد أبدا، آخذاً مثل هذا العبث يحسـم يخيـف العابثين.. ولكن علِيا رأي أنه ما من سند شرعى لتحريمهـا عليه أبدا واكتفي بأن يفرق بينهما..ومازال بعمر حتى أقنعـه برأيه.

ومن ذلك قضاء عمر فيمن يطلق امرأته وهو في سفر، ثم يرتجعها، وتعلم بالطلاق، ولا تعلم بالرجعة، فتتزوج بعد العدة، فزوجها الثاني أول بها..

قضى عمر بهذا تأديبا للرجال..

ورأي عِلي أن زوجها الأول أولى بها..

كما اختلفا في زوجة المفقودين فقال عِلي إنه لا يحل لها الزواج من غيره إلا بالطلاق أو ثبوت الموت, ورأي عمر أن لها الحق بعد غياب أربع سنوات..وكان لكل حجته في هذا الاجتهاد.. وكل منهما ينشد التيسير على الناس.

ورأى عمر أن الرجال قد أسرفوا في الطلاق، فكان الرجل يطلق امرأته ثلاثًا في لفظة واحدة، إرضاء لزوجة جديدة من السبايا الحسان تشترط عليه ذلك، وكان مثل هذا الطلاق لا يقع إلا طلقة واحدة في عهد الرسول وعند أبي بكر وشطر من حكم عمر.

ولقد وافقه عِلي بن أبي طالب على تأديب الرجال بأن يقع مثل هذا الطلاق كأنه ثلاث طلقات متفرقة، فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره:" لأن الناس استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة".

حتى إذا احترم الرجال مواثيق الزواج، وتأدبوا واعتبروا، عاد عِلي وهو أمير المؤمنين إلى الأصل، واعتبرها طفلة واحدة.

***

وجاءوا عمر بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور، فأمر برجمها. فقال له عِلي:" هذا سلطانك عليها فما سلطانك على ما في بطنها؟" فأطلقها عمر حتى تضع حملها.

وجاءوا عمر بامرأة أجهدها العطش، فمرت على راع فاستسقته فأبى إلا أن تمكنه من نفسها، ففعلت فشاور الناس في رجمها فقال عِلي:" هذه مضطرة، فخل سبيلها". وأشار برجم الراعى وحده. وأخذ عمر بهذا الرأي.

واجتمع عند عمر مال، فقسمه فبقي منه شيء فاستشار بعض الصحابة فيما بقي قالوا:" نرى أن تمسكه فإن احتجت إلى شيء كان عندك". فسأل علِيًا:" مالك لا تتكلم يا أبا الحسن؟" قال:" قد أشار عليك القوم". قال:" وأنت فأشر". قال:" أرى أن تقسمه". فقسمه عمر.

وقال:" يا أبا الحسن لا أبقاني الله لشدة لست لها، ولا لبلد لست فيه".

ورفعت إلى عمر قضية امرأة ولدت لستة أشهر، فأمر برجمها فجاءت أختها إلى عِلي تستصرخه. فذهب إلى عمر وقال:" إن الله عز وجل يقول:" والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين" وقال تعال:(وحمله وفصاله ثلاثون شهرا). فالفصال أربعة وعشرون شهرا والحمل ستة أشهر. تلك ثلاثون شهرا".

فخلى عمر سبيلها. قال:" أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن".

وقد شكا يهودي علِيا إلى عمر، وكان عمر شديد الحرص على المساواة بين الخصوم في القضاء. فقال لعِلي :" ساو خصمك يا أبا الحسن. فوقف عِلي إلى جوار اليهودي أمام عمر. وعندما قضى عمر وانصرف اليهودي قال عمر:" أكرهت يا عِلي أن تساوى خصمك؟" قال: بل كرهت أن تميزني عنه فتناديني بكنيتي (أبو الحسن).

***

وكان عِلي يدعو لمكارم الأخلاق حبا في مكارم

الأخلاق.. قال مرة لبعض جلسائه:" عجبت لرجل يجيئه أخوه في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً، فلو كنا لا نرجو

جنة، ولا نخاف نارا، ولا ننتظر ثوابا، ولا نخشـي عقابـا،
لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم، فإنها تدل على سبيل النجاة،
فقام رجل فقال:" فداك أبي وأمي! أسمعته من رسول الله ؟
قال: نعم، لما أتيناه بسبايا طيء كان في النساء جارية حماء
(بيضاء) حوراء العينين، شماء الأنف، منعدلة القمة.. فلمـا
رأيتها أعجبت بها، فقلت:" لأطلبنها من رسول الل ليجعلها
من فيئي".

فلما تكلمت أنسيت جمالها، لما سمعت من فصاحتها.
قالت:" يا محمد هلك الوالد، وغاب الوافد، فـإن رأيـت أن
تخلي عني فلا تشمت بى أحياء العرب، فـإنني بنـت سـيد
قومي، كان أبي يفك العاني، ويحمي الذمار، ويقرى الضيف،
ويشبع الجائع ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشـي
السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا بنت حاتم الطائي".

فقال لها رسول الله :" يا جارية هذه صفة المؤمن،
لو كان أبوك إسلاميا لترحمنا عليه، خلوا عنها، فـإن أباهـا
كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق".

وكان عِلي كرم الله وجهه يبادل عمر – رضـي الله
عنه – التقدير، والتبجيل.

وجاء علِيا بعض رجال يشكون من شدة عمر، ولوحوا لعِلي أنه كان أولى بالخلافة من أبي بكر وعمر، وذم بعضهم عمر، فنهرهم عِلي وقال:" خير الناس بعد رسول الله أبو بكر، ثم عمر".

وسكت قليلاً ثم قال تمجيدا لعمر:" ما كنا نستبعد أن السكينة (أى الإلهام) تنطق على لسان عمر".

وكان عِلي يملك هذا الذكاء اللماح النفاذ الذي يمكنه من استقراء أعماق القلوب، وقراءة صفحات الوجوه، وتقصى فلتات الألسنة.

وكان هذا الذكاء، مع علمه الغزير العميق، أداته في الاجتهاد، والفتيا والقضاء.. من أجل ذلك كان لا يحكم بظاهر الأشياء ولا ينظرها، وإنما يتحرى ما وراء الظاهر ويعمد إلى جوهر الحقيقة نفسها. وكم ثبت له أن الباطن يخالف الظاهر، وأن من الظواهر ما يخدع!!

ولقد كان ابن عباس أذكى أهل زمانه، ولكنه كان يشهد لذكاء عِلي .

ويروى أنه _ بينا ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس يسألونه، إذ أقبل عمر بن أبي

ربيعة في ثوبين مصبوغين حتى دخل وجلس، فأقبل عليه ابن عباس فقال: أنشدنا، فأنشده:

أمن آل نُعمٍ أنت غاد فمبكر

غداة غد أم رائح فمهجر

حتى أتى على آخرها.

فأقبل عليه نافع بن الأزرق فقال:" الله يابن عباس! نحن نضرب إليك أكباد المطى من أقاصى البلاد نسألك عن الحرام والحلال فتتثاقل عنا. ويأتيك غلام مترف من مترفي قريش فينشدك:

رأيت رجلاً أما إذا الشمس عارضت

فيغني وأما بالعشى فيحسر

فقال ابن عباس: ليس هكذا قال، بل قال:

رأيت رجلاً أما إذا الشمس عارضت

فيضحى وأما بالعشى فيخصر

(يخصر: يبرد)

ثم أنشد ابن عباس القصيدة كلها من أولها إلى آخرها فقال له بعضهم:" ما رأيت أذكى منك قط". قال:" لكنني ما رأيت أذكى من عِلي بن أبي طالب".

من أجل ذلك كان عمر يحيل إليه المعضلات التي تحتاج إلى الذكاء وسعة العلم..

وروى الإمام جعفر الصادق عن جده الإمام علي: " أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بامرأة قد تعلقت بشاب من الأنصار، وكانت تهواه فلما لم يساعدها احتالت عليه، فأخذت بيضة فألقت صفرتها، وصبت البياض على ثوبها وبين فخذيها.. ثم جاءت بالشاب إلى عمر صارخة، فقالت:" هذا الرجل غلبني على نفسي وفضحني في أهلي وهذا أثر فعاله".

فسأل عمر النساء فقلن له:" إن ببدنها وثوبها أثر المني".

فهم عمر بعقوبة الشاب، فجعل الشاب يستغيث ويقول" يا أمير المؤمنين، تثبت في أمري، فوالله ما أتيت بفاحشة، ولا هممت بها، فلقد راودتني عن نفسها فاعتصمت".

فقال عمر رض الله عنه لعِلي بن أبي طالب كرم الله وجهه:" يا أبا الحسن ما ترى في أمرهما؟".

فنظر عِلي كرم الله وجهه إلى المرأة يقرأ صفحة وجهها، ونظر إلى ما على الثوب، ثم دعا بماء حار شديد

الغليان، فصبه على الثوب فجمد ذلك البياض، ثم أخذه واشتمه وذاقه، فعرف رائحة البيض وطعم البيض، وزجر المرأة فاعترفت!. فأطلق الشاب البرئ، وأقيم عليها حد القذف..

ورفعت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد زنت. فسألها عن ذلك. فقالت في يسر:" نعم يا أمير المؤمنين". وأعاد ذلك وأيدته، كأنها لم تقترف ذنبا!. وعِلي
يسمع ويتأمل!..

فقال عِلي كرم الله وجه:" إنها لتستهل به استهلال من لا يعلم أنه حرام".

فأعلمها بحرمة الزنا، ودرأ عنها الحد.

وأفتى عِلي بأن كل من يستكره على ذنب، يعفى من العقاب، ويعاقب من أكرهه.. فإذا اضطر أجير على السرقة لأنه لم يجد ما يأكله، لم تقطع يده، وإنما قطعت يد الذي استأجره ولم يعطه أجره، فهو الذي أكرهه على السرقة.. أو بالقليل وجب عليه التعويض مضعفًا!..

ويروى أن علِيا كان في مجلسه بعلم الناس بالمسجد، إذ سمع ضجة، فلما سأل عنها قيل له:" رجل سرق ومعه من يشهد عليه ".

فشهد شاهدان عليه أنه سرق، فجعل الرجل يبكي، ويناشد عليا أن يتثبت في أمره.

فخرج عِلي إلى الناس بالسوق، فدعا بالشاهدين، فناشدها الله وخوفهما، فأقاما عِلي شهادتهما، فلما رأهما لا يرجعان دعا بالسكين وقال:" ليمسك أحدكما يده ويقطع الآخر". فتقدما ليقطعاه، فهاج الناس، واختلط بعضهم ببعض.

وقام عِلي من مكانه، فترك الشاهدان الرجل، وهربا.وعاد عِلي فقال:" من يدلني على الشاهدين الكاذبين؟" فلم يعثر لهما على أثر.

وقد قال عِلي:" يبدأ الشهود بالرجم إذا شهدوا بالزنا، فإن كانوا كاذبين، لم يستطيعوا أن يرجموا".

وجاءت إلى عِلي رضي الله عنه امرأة فقالت:" إن زوجي وقع على جاريتي بغير أمري". فقال للرجل:" ما تقول؟". قال:" ما وقعت عليها إلا بأمرها". فقال عِلي:" إن كنت صادقة رجمته، وإن كنت كاذبة جلدتك حد

القذف".(ثمانين جلدة).. وأقيمت الصلاة، فقام عِلي كرم الله وجهه ليصلي.

وفكرت المرأة، فلم تر لها فرجًا في أن يرجم زوجها، ولا في أن تجلد فولت هاربة، ولم يسأل عِلي عنها!..

وكان يقول:" ما أضمر أحد شيئًا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه!" لهذا كان في قضائه يحاور ويتأمل، وهو أول من فرق بين الشهود، واستمع لكل شاهد على حدة، فاستطاع أن يبين الحقيقة، وأمن تأثير الشهود بعضهم على بعض!

من ذلك أن امرأة أتوا بها إلى عِلي كرم الله وجهه، وشهدوا عليها أنها بغت..

وكانت يتيمة رباها رجل كثير الغياب عن أهله، وكان للرجل امرأة غيور.

فشبت اليتيمة وأصبحت حسناء فتانة، فخافت المرأة أن يتزوجها زوجها، فدعت نسوة من جاراتها أمسكن اليتيمة الحسناء، فافتضت بكارتها بأصبعها، فلما عاد الزوج من

غيبته، رمت الزوجة الغيور تلك اليتيمة بالفاحشة، واستشهدت بالنسوة اللائى ساعدنها على أخذ عذرتها.

فسأل عِلي المرأة:" ألك شهود ". قالت:" نعم. هؤلاء جاراتي يشهدان بما أقول".

فأحضرهن عِلي ، وأحضر السيف، ودعا امرأة الرجل، وحاورها طويلاً فأصرت على قولها. فصرفها.

ودعا امرأة أخرى من الشهود فهددها إن لم تصدقه ليفعلن كذا وكذا. فقالت:" والله ما فعلت اليتيمة فاحشة، إلا أن زوجة الرجل رأت فيها جمالاً وهيبة، فخافت فساد زوجها، فدعتنا، فأمسكنا لها بالفتاة حتى أفتضتها بأصبعها".

فألزم المرأة حد القذف، وألزم الرجل أن يطلقها، وزوجه اليتيمة المفترى عليها..

وجاء برجل إلى عمر بن الخطاب سأله جماعة من الناس:" كيف أصبحت؟" فقال:" أصبحت أحب الفتنة، وأكره الحق، وأصدق اليهود والنصارى، وأومن بما لم أره، وأقر بما لم يخلق".

فأرسل عمر إلى عِلي رضي الله عنهما، فلما جاءه أخبره بمقالة الرجل.

فقال علي ضاحكاً:" صدق الرجل. قال الله تعالى:(إنما أموالكم وأولادكم فتنة) فهو يحب المال والبنين. وهو يكره الحق يعني الموت. قال تعالى:(وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت عنه تحيد). ويصدق اليهود والنصارى (قالت اليهود ليست النصارى على شيء
وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) وهو يؤمن بما لم يره أى
مؤمن بالله عز وجل، ويقر بما لم يخلق يعني الساعة".

فضحك عمر وأطلق سراح الرجل! أجيبي

وبلغ عمر بن الخطاب أن امرأة بغيا يدخل عليها الرجال، فبعث إليها رسولاً فأتاها الرسول فقال لها:" أمر المؤمنين". ففزعت المرأة فزعا شديدًا، فأجهضها الفزع، وأسقطت حملها ميتًا، فحزن عمر وأرسل إلى بعض الصحابة، فقص عليهم ما كان من أمره وأمر المرأة فقالوا:" ما نرى عليك شيئًا يا أمير المؤمنين، إنما أنت معلم ومؤدب".

فسأل عليا، فقال علي:" إن كانوا قاربوك في الهوى فقد
أثموا، وإن كان هذا جهد رأيهم فقد أخطأوا. وأرى عليك الدية". فقال عمر:" صدقت يا أبا الحسن".

ثم عاد يكرر:" والله لولا عِلي لهلك عمر. أعوذ بالله من معضلة لا عِلي لها".

وسأله عمر ذات يوم:" يا أبا الحسن. أسـألك عـن شيء هل عندك منه علم؟" قال:" ما هو؟" قال:" الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيرا والرجل يبغض الرجل ولم ير منــه شرا". قال عِلي :" نعم قال رسول الله ❐: (إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف).

وكما كان عمر يسأل عِليا ويروي عنه، كان عِلـي يروي عن عمر.

استشهد عِلي بغلامه وبابنه الحسن في قضـية درع سرقه منه يهودي. فقال له القاضي:" أما شهادة ابنـك فـلا". فقال عِلي:" سمعت عمر بن الخطاب يروى عن رسـول الله ❐ أنه قال:" إن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، أفلا تجيز شهادة أحد سيدي شباب أهل الجنة؟".

أما القاضي فلم يأخذ بالشهادة، - وعِلي آنذاك أميـر المؤمنين – وحكم للخصم، وإذ رأي الخصم عظمة المساواة، اعترف بأن عِليا صاحب حق، وأسلم، وحسن إسلامه.

***

الفصل السادس

الشُّورى

ما كان جميع المطالبين بتوزيع الأرض المفتوحة يصدرون عن حب للجاه أو السلطان أو عن حرص على ما يمنحه امتلاك الأرض من سطوة.

حقا.. ما كان هو الطمع!.. بل كان فيهم من يصدر عن ورع!

ذلك أنهم تورعوا عن مخالفة السنة الشريفة. فقد شهدوا رسول الله ﷺ حين فتح الله عليه أرض خيبر، يقسم الأرض على الفاتحين، بعد أن يأخذ منها الخمس لمصارفه كما نصت الآية الكريمة في سورة الآنفًال " واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن الله خُمسه و للرسول ولذى القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل" وتبقى أربعة أخماس هي للفاتحين وحدهم.

فعلى مدى ثلاثة أيام استمر الجدل، حتى أوشك أن يتحول إلى شقاق بعيد، واختلطت الأطماع بتقوى الورعين، فلم يعد أحد يتبين النوايا التي تحرك الرجال، واصطدم هذا

كله بموقف جديد اتخذه عمر متشددا، وأيده فيه علي وعثمان، رضي الله عنهم جميعا..

وكان أهل الورع يسألون عمر وعليا وعثمان عن حجتهم في تغيير أحكام الكتاب والسنة!.. واعترف الثلاثة أن حق الفاتحين في أربعة أخماس الفئ مكفول لهم الكتاب والسنة بلا مراء، ولكن الزمن تغير، فلا مناص من تغيير الأحكام!..

وقال علي لمخالفيه: إنه من أجل ذلك وعظهم مرارا أن يربوا أولادهم تربية عاقلة، فلا يلزموهم اتباع آرائهم، إن الأبناء مخلوقون لزمان غير زمان الآباء. لكم قال لهم:
" لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم" فالأدب والأخلاق والأعراف قد تتغير بتغير الزمان والمكان.. وكذلك الأحكام! ربما تغيرت العلل التي من أجلها صدرت، فينبغي أن تتغير، دفعًا لمفسدة، أو تحقيقًا لمصلحة. فلو أن الأراضي الشاسعة في العراق والشام ومصر وبلاد الفرس وخراسان، قسمت بين الفاتحين، فامتلكوها وورثوها أبنائهم، لتكونت طبقة جديدة من المالكين تداولت المال وحدها دون سائر المسلمين، ولما وجد ولي

الأمر ما يلزمه من مال لحماية البلاد وتحقيق مصالح العباد!..

ثم قال لهم عِلي وهو يحاورهم أنه هو وعمر وعثمان حين يصرون عِلي إبقاء الأرض في أيدي زارعيها، وفرض خراج عليها يؤديه الزارعون، لا يجتهدون رأيا يخالفون به الكتاب والسنة، ولكنهم يجدون في الكتاب آيات بينات، تخصص الأحكام التي أطلقتها آية الفئ، وتقيد مطلقها.. وقد قال تعالى:" فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون".. والمسلمون يعرفون منذ نزلت هذه الآية الكريمة من هم أهل الذكر!

ومن عساهم يكونون إن لم يكونوا النفر الذين يقودهم عِلي بن أبي طالب، وقد قال فيه الرسول:" أنا مدينة العلم وعِلي بابها فأتوا البيوت من أبوابها"..

وإن منهم لمن يقول: إن أهل الذكر في الآية الكريمة هو عِلي بن أبي طالب وحده!ثم

من يكون أهل الذكر، إن لم يكونوا هم النفر الذين يقف في طليعتهم عمر بن الخطاب، الذي قال فيه الرسول ❐:" إن الحق على قلبه ولسانه"!؟..

علـيهم وقال فيه علي: إنه لا يستبعد أن يكون عمر ملهما.. علـيهم ولقد قال عمر لمن اتهموه بالظلم لأنه يوزع شيءالأرض المفتوحة وأبقاها في أيدي زارعيها وفرض الضرائب، قال:" إذن أترك من بعدكم من المسلمين ولا

لهم!".

على أن عليا وعمر وجدا في كتاب الله يحتجان بــه على مخالفيهم، وهم بلا مراء أقل قدرة على العلم بالأحكـام، وعلى استنباطها من علي عمر، وعلي كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:" أعلم الناس بالسنة ".

والآيات التي احتج بها علي مخالفيهم هي:" ما أفـاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربــي واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكـون دولـة بـين الأغنياء منكم ".

فهذا حكم للقرى كلها، أى لكل البلاد المفتوحة، كيلا يختص بالمال أفراد منكم، يداولونه بينهم ويورثونه أبنـاءهم وأحفادهم، دون باقي المسلمين، فيتسلط بعضكم على بعـض بالغني، وهذا ما يأباه الله ورسوله.

وتنتهي الآية بقوله تعالى:" وما آتاكم الرسول فخذوه
وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب".
أما أهل التقوى أصحاب الورع من الذين خالفوا عمر
وعليا، فقالوا:" سمعنا الله إن الله شديد العقاب".
أما أهل التقوى أصحاب الورع من الذين خالفوا عمر
وعِليا، فقالوا:" سمعنا وأطعنا تبنا إلى الله". وكأنهم يسمعون
الآية لأول مرة!..
وانقلبوا يؤيدون إبقاء الأرض، وعدم تقسيمها.
ولكن أهل الطمع انتظروا..ولم تقنعهم هذه الآية من
أول سورة الحشر.
وعِلي□ وعمر يتلوان بقية الآيات:" للفقراء المهاجرين
الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضـــلاً مـن الله
ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون *
والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر
إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون
عِلي□ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسح
فأولئك هم المفلحون".

وشعر بعضهم بالحياء فدعا الله:" اللهم قنا شح أنفسنا واجعلنا من المفلحين".

وانضموا إلى رأي عمر وعِلي وعثمان وطلحة..ولم يعد إلا القليل يطالبون بتقسيم الأرض، وعِلي وعمر ما برحا يتلوان بقية الآيات الكريمة من أوائل سورة الحشر:"والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم"..

فإذا بالقليل الذين ظلوا يطالبون بقسم الأرض، يدركون أن حكم الآية ينسحب على الذين سيجيئون من بعدهم من غير أبناء المقاتلين..فالآية عامة، وحكم الفئ فيها أنه صار للجميع، فلا يحل أن يقسم بين الفاتحين وحدهم فيتوارثه ابناؤهم، ويحرم من يأتي بعدهم.. بل هو للأمة كلها. وشرح عمر وعِلي أن حكم الآيات يستوعب الناس عامة فلم يبق أحد من المسلمين إلا له في الغنائم حق، هو نصيبه وإن لم يعرق فيها جبينه.

وهكذا أجمع كل المسلمين على رأي عمر وعِلي وعثمان وطلحة.

ووضع الخراج على الأرض، وامتلأ بيت المال حتى اكتظ، وأنفقت الأموال على مصالح المسلمين.

وحقق الناس قدرا كبيرا من الرفاهية وتحقق للأمة ما تريده من قوة وهيبة.

***

لم يكن هذا وحده هو ما امتحن به المسلمون في عهد عمر، فجعل الله لهم مخرجا بفضل حسن التعاون بين عمر وعِلي ، وبفضل حرص ولي الأمر على الشورى، وحرص أهل الذكر على صدق المشورة.

فقد جدت أمور، استطاع فيها اجتهاد عِلي كرم الله وجهه أن يستنبط الحكم الذي أصبح فيما بعد قانونًا للمسلمين.

من ذلك أن امرأة من أهل اليمن قتلت هي وعشقها ابن زوجها الذي اكتشف العلاقة الآثمة بينهما، فكتب إلى عمر رضي الله عنه عامله على اليمن يسأله الرأي، فما يعرف الرجل حكما في القصاص إلا ما ورد في الآية الكريمة من سورة المائدة:" النفس بالنفس"... إلى آخر قوله تعالى:" والجروح قصاص"!..

وعندما وصل الكتاب إلى عمر توقف، فما يعرف حكما غير ما ورد في الآية الكريمة، فسأل عليا رضي الله عنهما فقال علي:" يا أمير المؤمنين. أرأيت لو أن نفرا اشتركوا في سرقة جزور (ناقة أو جمل) فأخذ هذا عضوا وهذا عضوا أكنت قاطعهم (قاطع أيديهم)؟" قال عمر:"نعم". قال:" وذلك".

فكتب عمر إلى عامله على اليمن:" اقتلهما به، فلو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم لقتلتهم!".

وكان هذا النظر في علة الحكم وصرف النص عن ظاهرة، دستورا للفقهاء من بعد، وأصلاً من أصول الفقه.

***

تعود عمر أن يستشير عليا في كل الأمور المستحدثة، ويالله ما كان أفدح هذه الأمور!!

كان يشكو إليه تغير ظروف الحياة في المدينة، ويسأله النصحية.. ويخشي أن يواجه الظروف الجديدة برأيه هو وحده!

من أجل ذلك كان لا يبرم أمرا حتى يستشير من يثق بحكمتهم وعلمهم من الصحابة، وفي طليعتهم عِلي بن أبـي طالب.

رأى عمر أن رسول الله كان قد سمح للنسـاء بـأن يخرجن للصلاة في المساجد، ولكن الحياة تغيرت مـن بعـد الرسول، وتغير النساء، حتى أظهرت عائشة ألمها من أحوال بعض النساء في خروجهن إلى المساجد فقالـت:" لـو أدرك رسول الله ما أحدث النساء لمنعهن المساجد :!..

وشعر عمر بالحرج من منـع النسـاء، وقـد أمـر الرسول ألا يمنعوهن، ولكن عِلي بن أبي طالب وجد الفـرج في حديث شريف ينص على أن صلاة المرأة في بيتها خيـر لها، وصلاتها في مخدعها خير من صلاتها في بيتها.

فنصح ألا يصدر منع ولي الأمر، بـل علـى ولـي المرأة من زوج أو أب أن ينصحها!

ولقد شكا عمر لعِلي أنه كان يتفقد أحوال رعيته فـي الليل، فسمع نساء يسمرن، قالت أحداهن:" من هو أصبح أهل المدينة؟". قالت امرأة:" أو ذؤيب". فلما كان الصباح أرسـل عمر إلى أبي ذؤيب هذا، فوجده أصبح الفتيان وجها.

وحين رأى عِلي الشاب، ولاحظ عليه الرعب مما قد يفعله به أمير المؤمنين، سأله مداعبا:"فأنت يا أبا ذؤيب ذئبهن"!..

وضحك عمر وعِلي، وزال الخوف عن الشاب.. فما ذنبه أن فتنت به نسوة في المدينة، وإنه لشاب صالح؟!.

وأجرى عمر على الشاب رزقًا حسنًا، وسيره إلى بلد آخر.

إن هذا الذي طرأ على الناس، كان يعني عمر وعِليا، والورعين جميعا.

ونصح عِلي لعمر أن يعالج بعض هذه الأمور بالحسنى، ويأخذ بعضها بالشدة، فقد تنفع الموعظة حيث لا تجدي العصا، فإن لم تتعظ النفس بالقرآن، فلا مندوحة عن ردعها بالسلطان..

وقال عِلي:" ما نستبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر". وقد قال رسول الله ❐:" إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه".. فعِلي مطمئن إلى حكمة عمر وحسن سياسته.

ثم عرضت مسألة في الميراث لم تعرض في زمن الرسول ﷺ.

مات ابن لابن عمر، فورث عمر منه، وحجب الإخوة، وكان أول جد يرث في الإسلام.

فلما ولي الأمر، شعر بالحرج، فجمع بعض أصدقائه من الصحابة فقال لهم:" إني رأيت في الجد رأيا إن رأيتم أن تتبعوه فاتبعوه". فقال عثمان:" إن نتبع رأيك فإنه رشد، وإن نتبع رأي الشيخ قبلك فنعم الرأي كان". (يعني رأي أبي بكر) وكان أبو بكر يرى أن الجد أب، فلا يرث معه الإخوة.

أما عِلي فرأى أن الإخوة أولى بالميراث من الجد.. والجد لا يحجبهم.. وضرب لذلك مثلاً:" سيل سال فإنشعبت منه شعبة ثم شعبتان.. أرأيت لو أن ماء هذه الشعبة الوسطى رجع، أليس إلى الشعبتين جميعا؟".

فقضى عمر بهذا.. وكان يتمنى أن يطمئن قلبه إلى هذا الرأي!..

***

نشأت في مواجهة حب الشهوات، موجات من الزهد والتقشف والانقطاع عن الدنيا بكل ما فيها، والتعطل عن العمل، والتفرغ للعبادة في المساجد!..

فطاف عمر رضي الله عنه بالمساجد في غير أوقات الصلاة، بضرب المتماوتين المتعطلين الذين تركوا السعي في طلب الرزق، ليتفرغوا للعبادة!!

وشكا إلى عِلي مما يعانيه من سوء فهم الرعية للدين، فهم بين مسرف في الانكباب على الدنيا، متعللاً بالآية الكريمة:" قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق"، وبين معرض عن العمل، لا يكسب عيشه، عزوفاً عن الحياة الدنيا، متمسحا بقوله تعالى:" وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور".

فأخذ عِلي يعظ الناس بقوله:" قدر الرجل على قدر همته"..

" ألا وإن من البلاء الفاقة، وأشد من الفاقة مرض البدن، أشد من مرض البدن مرض القلب، أفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب".

" من قصر في العمل ابتلى بالهم، ولا حاجة الله فيمن ليس له في ماله ونفسه نصيب ".

" مكارم الأخلاق عشر خصال: السخاء والحياء والصدق وأداء الأمانة والتواضع والغيرة والشجاعة والحلم والصبر والشكر. السعيد من وعظ بغيره والشقي من انخدع لهواه وغروره".

" عباد الله لا تركنوا إلى جهالتكم، ولا تنقادوا لأهوائكم، فإن النازل بهذا المنزل (يعني الجهل والهوى) نازل بشفاء جرف هار".

" العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل عنه".

ثمرة العلم والعمل.. إن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم.. فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق.. فلينظر ناظر: أسائر هو أم راجع".

" ومن آتاه الله مالاً فليصل به القرابة، وليحسن منه الضيافة. وليفك به الأسر والعاني، وليعط منه الفقير

والغارم (المدين)، وليصبر نفسه على الحقوق والنوائب، ابتغاء الثواب، فإن فوزا بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا ودرك فضائل الآخرة إن شاء الله".

" اسع في كدحك، ولا تكن خازنًا لغيرك".

" حفظ ما في يديك أحب إلى الله من طلب ما في يد غيرك".

" لا تستح من إعطاء القليل، فإن الحرمان أقل منه! كن سمحا ولا تكن مبذرا، وكن مقدرا ولا تكن مقترا"..

" إن أخسر الناس صفقة وأخيبهم سعيا، رجل أهان بدنه في طلب ماله، ولم تساعده المقادير على إرادته، فخرج من الدنيا بحسرته، وقدم على الآخرة بتبعته"..

" آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد".

" لا تجعلن أكثر شغلك بأهلك وولدك، فإن يكن أهلك وولدك أولياء الله، فإن الله لا يضيع أولياءه، وإن يكونوا أعداء الله، فما همك وشغلك بأعداء الله؟!".

" لا تكونن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت في إيلامه، فإن العاقل يتعظ بالآداب، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب!"..

إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم".

"من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب آبائه".

" كل نعيم دون الجنة فهو محفور، وكل بلاء دون النار عافية".

" ما أحدثت بدعة إلا ترك بها سنة، فاتقوا البدع..وأن السنين لنيرة لها أعلام، وإن البدع لظاهرة لها أعلام، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به، وأمات سنة مأخوذة، وأحيانًا بدعة متروكة".

" الفقيه كل من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يوئسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله".

***

كان عمر يتفقد الرعية ذات ليلة، فسمع امرأة تتوجع في فراشها مهمهمة:

لقد طال هذا الليل وازور جانبه

وليس إلى جنبي خليل ألاعبه

فوالله لولا الله تخشي عواقبه

لزلزل من هذا السرير جوانبه

مخافة ربي والحساء يعفني

وإكرام بعِلي أن تنال مراتبه

وتألم عمر مما سمع!!

فلما أصبح الصباح، حكى لعِلي ما سمعه، فلم يجد عِلي فيما قالته المرأة ما يستوجب العقاب، وإن كان فيه ما يعاب!

ورأي عمر أن يرسل إلى المرأة فيسألها عما سمعه البارحة..فأشار عِلي بأن يسأل عنها، قبل أن يروعها بسؤالها عن همهمتها. وكانت لعمر هيبة تخيف الناس حتى الأبرياء!.

فسأل عنها فقالوا:" هي امرأة فلان وله في الغزاة ثمانية أشهر". فسأل بعض نساء بيته عن أقصى ما تستطيع المرأة أن تصبر عن زوجها من غير عنت أو تكلف، فقلن له:"أربعة أشهر".

فأمر ألا يغيب الرجل عن زوجته أكثر من أربعة أشهر..

وجائته امرأة، ومعه عِلي ورجل آخر هو صاحب لهما، فقالت المرأة:" زوجي يصوم النهار ويقوم الليل".ومضت، ثم عادت فقالت الشيء نفسه فسألها عمر:"أأمنعه من الصيام والقيام؟"فولت عنه ثم عادت، فقالت:"زوجي يصوم النهار ويقوم الليل، فقال الرجل:"يا أمير المؤمنين إنها تشكو زوجها".

فسأل عمر علِيا، فأمهله حتى يقضي صاحبهما في أمر المرأة!..

فسأل صاحبهما المرأة أيعاشرها معاشرة الأزواج، أم ينشغل عنها بالصيام وقيام الليل؟!فما زادت عن قولها:"إنه يصوم النهار ويقوم الليل!".

فأرسل الصاحب في طلب الزوج فسأله، فعلم منه أنه لم يعاشرها منذ سنين، لأنه منقطع للتعبد من صيام وصلاة!!

فقال للزوج:"إن الله أحل له حتى أربع زوجات، فمن حق هذه المرأة عليه أن يأتيها كل أربعة أيام، فلا يصوم نهاره، ولا يقوم ليله، ولا يصلي غير الفرائض، وإلا وجب على ولي الأمر أن يطلقها!!".

وسر عِلي بما قضى به الرجل، فأشار على عمر أن يعينه قاضيا في إحدى المدن المفتوحة، فولاه قاضـيا علــى إحدى الولايات.

***

وكان عمر قد ألف قبل أن يصبح أميرا للمؤمنين أن يستشير عليا في أخص شئونه.

أراد عمر أن يتزوج عاتكة بنت زيد، بعـد أن قتـل عنها زوجها عبد الله بن أبي بكر شهيدا في إحدى المعارك، فقالت له:" قد كان أعطاني حديقة على ألا أتزوج بعده". قال لها عمر:"استفتى عِلي بن أبي طالـب".فأفتاهـا عِلي :"ردى الحديقة على أهله، وتزوجي عمر".

وكانت عاتكة كما وصفها معاصروها:(امـرأة لهـا جمال، وكمال، وتمام في عقلها ومنظرها، وكانـت حسـنـاء بارعة)، فأولع بها عبد الله، فأذهلته عن عقله!..مر عليه أبوه في يوم جمعه، فرآه يداعبها، وعاد أبوه للصلاة فوجـده مـا انفك يناغيها، فقال له: "يا عبد الله أشهدت الجمعة؟"قـال:"أو صلى الناس؟".قال:"قد شغلتك عاتكة عن المعاش وعن تجارة رابحة كنت فيها، ثم أنستك الفرائض! فطلقها".

وما زال به حتى طلقها، فتبعتها نفسه، فاعتزل الناس يبكيها، فرق له أبوه فأمره بأن يرجعها.

فلما ترملت منه أقسمت ألا تتزين لأحد بعده!

ولكنها حين زفت إلى عمر. زفت إليه في أكمل زينة!

فأولم عمر، ودعا الصحابة وفيهم عِلي، فقال، "يا عمر قل لعاتكة تتستر فإن لي حاجة أريد أن أذكرها إياها". فقال لها عمر:"استترى يا عاتكة، فإن عِلي بن أبي طالب يريد أن يكلمك". فأخذت عليها كساء مفوفاً من حرير، فقال لها:"يا عاتكة. أين قولك:

فأقسمت لا تنفك عيني سخينة

عليك، ولا ينفك جلدي أغبرا

وضحك عِلي وعمر، ولكن عاتكة بكت! فقال له عمر:"يا أبا الحسن؟! كل النساء يفعلن هذا؟ "فقال عِلي: "علمها ألا تقول ما لا تفعل". (كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) فقال عمر:"ما حسن الله فهو حسن يا أبا الحسن".

فلما قتل عنها عمر، تزوجها الزبير بن العوام، وكان شديد الغيرة عليها، فمنعها ألا تخرج إلى الصلاة، فلما

صممت على الخروج، اختفي في السفينة قبيل الفجر، ورآها مقبلة، فضربها على عجيزتها، فعادت قائلة: "فسد الزمان!" وامتنعت عن الخروج.

وقتل عنها، فكان ثالث زوج يقتل! فقال الناس عنها: "هي أجمل خلق الله وأشأم خلق الله".

وكان عِلي يقول:"الطيرة (إلا الفأل الشؤم) ليست بحق!".

أمست وكان يحذر الناس من التشاؤم، ويراه نقصا في الإيمان بالله، وبقضائه وقدره، ولكن عاتكة، كانت قد وأصبحت شديدة التشاؤم من نفسها!..

فخطبها عِلي فقالت له: "إني لأضن بك على القتل يا بن عم رسول الله".

***

والفتوحات تتوالى، شرقًا وغربا، والمآذن ترتفع وتضيء ما حولها في أكثر من نصف المعمورة التي عرفتها الإنسانية يومئذ، وعلى الرغم من ذلك فما زال بعض المجاهدين يحتفلون بأنفسهم وبانتصاراتهم، بالعكوف على الملذات والشراب!

وواجهت عمر مشكلة جماعة من خيرة فرسان المسلمين، على رأسهم "أبومحجن"، الذي أبلى أحسن البلاء في فتح العراق وبلاد الفرس، وما وراء النهرين وأذربيجان:.

أرسل أمير الجند سعد بن أبي وقاص هذه الجماعة إلى عمر، لأنهم شربوا الخمر، بعد أن أمر عمر بأن يحد شاربها ثمانين جلدة.

فقالوا لعمر:"ما حرمها الله ولا رسوله. إن الله تعالى يقول في سورة المائدة:(ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات). بل حرمتها أنت بعد أن أفتاك عِلي بن أبي طالب!".

فأرسل عمر إلى عِلي ليجادلهم.

قال عِلي:" يا أمير المؤمنين إن كان معني هذه الآية كما يقولون، فينبغي أن يستحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير!".

فبهتوا وسكتوا.

فقال عمر لعِلي:" فيما ترى فيهم؟". قال:" أرى إن

كانوا شربوها مستحلين لها أن يقتلوا. وإن كانوا شربوها وهم مؤمنون أنها حرام أن يحدوا ثمانين جلدة".

فسألهم عمر فقالوا:" واالله ما شككنا في أنها حرام، ولكننا قردنا أن لنا نجاة فيما قلناه!".

فأمر عمر بجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة، فلما انتهي إلى أبي محجن قام من الجلد فقال شعرا جاء فيه:

وإني لذو صبر وقد مات إخوتي

ولست عن الصهباء يوما بصابر!

فقال عمر:" قد أبديت ما في نفسك ولأزيدنك عقوبة لإصرارك على شرب الخمر".

فقال له عِلي :" ما ذلك لك! ولا يجوز أن تعاقب رجلاً قال لأفعلن وهو لم يفعل، وقد قال االله تعالى في الشعراء: (وأنهم يقولون ما لا يفعلون)..".

فقال عمر:" استثني االله منهم أقواما".

فقال عِلي :" إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات".

فقال عمر:" أفهؤلاء عندك منهم وقد قال رسول االله ❐: لا يشرب العبد الخمر حين يشربها وهو مؤمن؟!".

فأعيد أبو محجن إلى ميدان المعركة، فشرب الخمر مرة أخرى، فكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر يسأله الرأي، وكان عمر قد أمر ألا يقام الحد على من يقترف ذنبا

في الحرب حتى لا يفر الجاني إلى العدو، ولكيلا يزرى العدو بالمسلمين!.

فأمر سعد بأن يحبس أبو محجن حتى يأتيه رأي أمير المؤمنين فيه.

فلما استعرت المعركة وسعد مريض في داره، أتاه أبو محجن في الأصفاد يستعفيه ليحارب الأعداء، فرده سعد وعنفه!

فأبصر أبو محجن بامرأة سعد، وهو عائد إلى سجنه، فقال لها:" هل لك إلى خير؟" قالت:" وما ذاك ". قال:" تخلين عني وتعيرينني البلقاء فرس سعد، فلله عِلي إن سلمني الله أن أرجع إلى حضرتك حتى تضعى رجلي في قيدي".

فقالت:" وما أنا وذاك ".

فجعل يرسف في قيوده، ويقول:

كفى حزنًا أن تطعن الخيل بالقنا

وأُترك مشدودا علِي وثاقيا

واستمر يناشد حتى قال:

والله عهد لا إخيس بعهده

إذا فرجت ألا أزور الحوانيا

(أخيس: أنقض – والحوانيا: الحانات).

فقالت له:" إني قد استخرت الله ورضيت بعهدك". فأطلقته.. وقالت:" أما الفرس فلا أعيرها".

ولما فكت قيده استولي هو على الفرس، فانطلق يحارب، حتى أذهل الجميع.

وقال المسلمون:" لو أن الملائكة تباشر قتالاً ظاهرا لقلنا هذا ملاك فينا".

وانتصر المسلمون.

وعاد أبو محجن إلى محبسه، فقال سعد:" أما والله لا أضرب اليوم رجلاً أبلى الله المسلمين على يده ما أبلاهم". فخلى سبيله. وقال أبو محجن:" فأما إذ أسقطت الحد عني فو الله لا أشربها أبدا. فقد كنت آنف أن أدعها من أجل جلدكم!".

***

لما تقدم عمر بن الخطاب في السن، وأصبحت زوجاته عجائز أجهدهن التقشف فرأي أن يتزوج فتاة تقوم بأمره، فاختار أم كلثوم بنت أبي بكر، وأرسل فيها إلى عائشة. فقالت عائشة لأختها الصغيرة:" الأمر إليك".

قالت:" لا حاجة لي فيه". قالت لها عائشة:" ترغبين عن أمير المؤمنين؟!".

قالت:" نعم! إنه خشن العيش شديد على النساء". فأرسلت عائشة إلى عمرو ابن العاص فأخبرته، فقال لها:"أنا أكفيك الأمر".

وعمرو ذو حيلة ودهاء ومكر!..

فأتى عمر فقال:" يا أمير المؤمنين. بلغني خبر أعيذك بالله منه!"؟ قال:" وما هو؟". قال:" خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر!". قال:"نعم، أفرغبت بي عنها، أم رغبت بها عني؟". قال:" لا واحدة، ولكنها صغيرة حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين عائشة في لين ورفق، وفيك غلظة، ونحن نهابك، وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك، فكيف بها إن خالفتك في شيء، فسطوت بها!؟ وإذن لكنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك". قال:" فكيف بعائشة وقد كلمتها؟"قال:"وأنا لك بها. وأدلك عِلي خير من أم كلثوم بنت أبي بكر. أنا أدلك على أم كلثوم بنت عِلي ابن أبي طالب وفاطمة. اخطبها وتعلق منها بسبب رسول الله ❐ ".

وذهب عمر إلى عِلي فخطب ابنته أم كلثوم، شقيقة الحسن والحسين وزينب، وسألها أبوها الرأي في عمر، فوافقت على الزواج، وزفت إلى عمر.

وقال عِلي لزوج ابنته عمر:"إن المرأة ريحانة وليست قهرمانة".

ولاحظ فرق السن بين عمر وعروسه، فخشي عليهما الغيرة. فقال كأنه يعظه:"إياك والتغاير في غير موضع غيرة، فإن ذلك يدعو الصحيحة إلى السقم، والبريئة إلى الريب!".

ثم شرع يقول آراء عن المرأة استخلصها من عمق التأمل، وطول الدرس والتفكر في أحوال الرجال والنساء.

"إن شدة الحجاب أبقي على النساء، وليس خروجهن بأشد من إدخالك من لا يوثق به عليهن. وإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل".

"إن المرأة لتكتم الحب أربعين سنة، ولا تكتم البغض ساعة واحدة!".

ثم قال لعمر يوصيه بابنته:"إن الله تعالى طهرنا وعصمنا نحن آل البيت، وجعلنا شهداء على خلقه وحججا

على عباده، وجعلنا مع القرآن، وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا".

ثم أوصى عِلي ابنتـه أم كلثـوم ألا تشـغل أميـر المؤمنين بهم من هموم الغيرة أو هموم الدنيا! وفي الحق أنها كانت نعم العون له، وكان بها حليا، فولدت له زيدا ورقية.

***

وعندما حاصر المسلمون بيت المقدس، ودارت حوله معركة طاحنة طلب أهله أن يتصالحوا مـع العـرب علـى الجزية، بشرط أن يتقدم أمير المؤمنين عمر بـن الخطـاب بنفسه ليتفق على شروط الصلح.

وجمع عمر الناس في المسـجد فشـاورهم، فقـال عثمان: لا تبرح المدينة فإنت إن أقمت هنا ولم تسـر إلـيهم رأوا أنك بأمرهم مستخف ولقتالهم مسـتعد، فلـم يلبثـوا إلا اليسير حتى ينزلوا على الصغار ويعطوا الجزية".

أما عِلي بن أبي طالب فلم ير هذا الـرأي، وأشـار على عمر أن يذهب، وقال:"إذا أنت قدمت عليهم كـان لـك وللمسلمين الأمن والعافية والصلاح والفتح. ولست آمن مـن أن ييأسوا منك ومن الصلح، ويمسكوا حصنهم، ويأتيهم المدد

من بلادهم وطاغيتهم، ولا سيما وبيت المقدس معظم عنـدهم وإليه يحجون".

وأخذ عمر برأي عِلي ، واستخلفه على المدينة.

ركب عمر إلى بيت المقدس فاستقبله أمراء الجند في حلل فاخرة من الديباج ولم يصدق ما رأى!.. لقد صحت نبؤة أبو بكر.. ها هم يلبسون الديباج !!...

وجعل يحصبهم بالحصى، ويؤنبهم، قائلاً:"سرعان ما فتنتم؟أفي هذا الزى تستقبلون عمر؟ سرعان ما نـدت بكـم البطنة والطرف، وأنتم الذين لم تشبعوا إلا من عامين".

***

بعد أن حكم عمر عشر سنين، طعنه أبو لؤلؤة وهـو يصلـي الفجر بالناس وأبو لؤلؤة مجوسي فارسي أسـر فـي نهاوند، ثم أصبح غلام المغيرة بن شعبة.. وقد طعن الخليفة عدة طعنات بخنجر غريب الشكل له نصلان ومقبضـة فـي وسطه.

ولقد حاول أبو لؤلؤة الفرار، فتكاثر عليه الناس وهو يطعنهم يمنة ويسرة حتى قتل ستة منهم، ولكنهم أمسكوا به، فانتحر وذهب سره معه!!

فلما أحس عمر أنه ملاق ربه دعا عبد الرحمن بن عوف وطلب منه أن يدعو النفر الذين توفى رسول الله ❐ وهو عنهم راض، وبشرهم بالجنة، وهم غير عبد الرحمن: عِلِي وعثمان والزبير وسعد وكان طلحة غائبا خارج المدينة.

فلما اجتمعوا، قال لهم عمر:" انتظروا أخاكم طلحة ثلاثا فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم"..

ما أمهلهم غير ثلاثة أيام ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد، ثم قال: "أنشدك الله يا عِلِي إن وليت من أمور الناس شيئًا ألا تحمل بني هاشم على رقاب الناس. أنشدك الله يا عثمان إن وليت من أمور الناس شيئًا ألا تحمل بني أمية على رقاب الناس. أنشدك الله يا سعد إن وليت من أمور الناس شيئًا ألا تحمل أقاربك على رقاب الناس. قوموا فتشاوروا، ثم اقضوا أمركم. وليصل بالناس صهيب (الرومي)"..

ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فقال:"قم على بابهم فلا تدع أحدا يدخل عليهم. وأوص الخليفة من بعدي بالأنصار الذين توءوا الدار والإيمان، أن يحسن إلى محسنهم، وأن يعفوا عن مسيئهم، وأوص الخلفية بالعرب، فإنهم مادة الإسلام، أن تؤخذ من صدقاتهم حقها، فتوضع في فقرائهم،

وأوص الخليفة بذمة رسول الله ❐ (أهل الذمة) أن يـوفي لهم بعهدهم".

وقال لعِلي: " يا أبا الحسن، أعن ملأ منكم ورضا كان هذا؟".

فقال عِلي وهو يكتم دمعه، وقلبه يتقطع على عمـر حسرات، وقد غاض صوته الجهير في اللوعة المكظومة:"ما كان عن ملأ منا ولا رضي! ولوددنا أن الله آخذ من أعمارنا وزاد في عمرك!".

وكان رأس عمر في حجر ابنه عبد الله، .فقال لـــه:" ضع خدى بالأرض". فلم يفعل فقال:" ضع خدى بالأرض لا أم لك! فوضع خده بالأرض. فقالت:"الويل لعمر ولأم عمـر إن لم يغفر الله لعمر!".

ثم دعا عبد الله بن عباس وكان يحبه ويدنيه ويسـمع منه. فقال له "يا ابن عباس، إني لأظن أن لي ذنبـــا، ولكـن أحب أن تعلم في أعن ملأ منهم ورضا كان هذا؟".

فخرج ابن العباس فجعل لا يرى ملأ من النـاس إلا وهم يبكون، كأنما فقدوا اليوم النصير!..

فرجع عبد الله بن عباس إليه فأخبره بما رأى. فقال عمر:"فمن قتلني؟" قال:" أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة ". وكان عمر قد نهى عن إدخال رجال البلاد المفتوحة إلى المدينة أو مكة، لكنهم دخلوا المدينة على الرغم من نهيه!!

وعرف أن قاتله مجوسي، فإذا بوجهه يشرق بالراحة والسكينة. وقال:" الحمد الله إذ لم يقتلني رجل يحاجني يوم القيامة بشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله!".

ثم قال لعبد الله بن عباس:" يا عبد الله، ألا لو أن لي ما طلعت عليه الشمس وما غربت لافتديت به من هول المطلع!".

فقال ابن عباس:" فإن يك ذاك يا أمير المؤمنين، فجزاك الله عنا خيرا أليس قد دعا رسول الله ❐ أن يعز بك الدين، والمسلمون مستضعفون بمكة؟ فلما أسلمت كان إسلامك عزا أعز الله به الإسلام؟ وظهر النبي وأصحابه. ثم هاجرت إلى المدينة فكانت هجرتك فتحا، ثم لم تغب عن مشهد رسول الله ❐ من قتال المشركين.

وقبض رسول الله وهو عنك راض، ثم ارتد الناس بعد رسول الله عن الإسلام فآزرت خلفيته على منهاج الله، وضربتم من أدبر بمن أقبل، حتى دخل الناس فلا الإسلام طوعا أو كرها. ثم قبض خليفة رسول الله وهو عنك راض، ثم وليت بخير ما يلى أحد على الناس، ففتح الله بك الأمصار، وجبا بك الأموال، ونفي بك العدو، وأدخل الله بك على أهل كل بيت من المسلمين توسعة في دينهم، وتوسعة في أرزاقهم، ثم ختم الله لك بالشهادة، فهنيئًا لك! فصب الله الثناء عليك صبا!".

قال عمر:" أتشهد لي بهذا يا عبد الله يوم القيامة؟".قال:"نعم".

فقال عمر:"اللهم لك الحمد". ثم

أرسل ابنه عبد الله إلى عائشة وقال له:" أقرئها مني السلام" واستأذنها أن أقبر في بيتها مع رسول الله ومع أبي بكر".

فلما كلمها عبد الله بن عمر وافقت.

ثم قالت:" يا بني أبلغ عمر سلامي وقل له لا تدع أمة محمد بلا راع. استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملا".

وأخبره ابنه بمقالة عائشة فقال:"لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته ووليته، فإذا قدمت على ربي فسألني:من وليت على أمة محمد؟ قلت: أي وربي. سمعت عبدك ورسولك يقول:لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح. ولكني سأستخلف النفر الذين مات رسول الله وهو عنهم راض".

وطلب عمر أن يجتمع مرة أخرى مع هؤلاء النفر ومعهم عدد من أوائل المهاجرين. فلما اجتمعوا قال:"يا معشر المهجرين الأولين، إني نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقًا ولا نفاقًا، فإن يكن بعدي شقاق أو نفاق فهو منكم. إني أستخلف عليكم من قد علمتم، فلتتشاورا ثلاثة أيام ولا تتفرقوا في اليوم الثالث حتى تبايعوا أحدهم. وليصل بكم صهيب فهو من الموالي لا ينازعكم أمركم، وأحضروا معكم شيوخ الأنصار، وليس لهم من أمركم شيء، وأحضروا معكم الحسن بن عِلي وعبد الله بن عباس، فإن لهما قرابة برسول الله ❐ وأرجو لكم البركة في حضورهما، وليس لهما من أمركم شيء، ويحضر ابني عبد الله مستشارا وليس له من الأمر شيء"..

ثم التفت إلى علِيٍّ بن أبي طالب فقال:"لعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقك وشرفك وقرابتك من رسول الله، وما آتاك الله من العلم والفقه والدين فيستخلفوك.فإن وليت هذا الأمر فاتق الله يا علِيُّ فيه، ولا تحمل أحدا من بني هاشم على رقاب الناس".

ثم التفت إلى عثمان فقال:" يا عثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك وسابقتك، فيستخلفونك، فإن وليت هذا الأمر، فلا تحمل أحدا من بني أمية على رقاب الناس".. ثم قال:"اللهم ألفهم، واجمعهم على الحق، ولا تردهم على أعقابهم وولِّ أمر أمة محمد خيرهم. وإني لأوصي الخليفة منكم بتقوى الله العظيم، وأحذره مثل مضجعي هذا، ,أخوفه يوما تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه يوم تعرضون على الله لا تخفي منكم خافية".

ثم غشي عليه حتى ظنوا أنه قد قُضي، فقال قائل:"إن كان شيء ينبهه فالصلاة".. فكبروا، ففتح عينه وأفاق... وعالجه الطبيب حتى استمسك فقال للناس:"قد كنت أجمعت بعد مقالتي أن أنظر فأولى أمركم رجلاً هو أحراكم أن يحملكم على الحق، هو عِلِيٌّ فرهقتني غشية..فما أردت أن

أتحملها حيا وميتًا. ولكن عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ❐ أنهم من أهل الجنة وهم: عِلي، عثمان، عبد الرحمن، وسعد، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، فلتختاروا منهم رجلاً فإذا ولوا واليا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه. وما أظن أن يلى هذا الأمر إلا أحد هذين الرجلين، عِلي أو عثمان، فإن وِلي عثمان فرجل فيه لين، وإن ولي عِلي فأحرى به أن يحملهم على الحق". وطلب عمر المقداد فقال له:"إذا وضعتموني في حفرتى فأجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً". وقال لصهيب:"قلت لك صل بالناس ثلاثة أيام، وأدخل هؤلاء الرهط بيتًا، وقم على رءوسهم فإن اجتمع خمسة منهم وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رأسيهما، وإن ارتضى اثنان رجلاً واثنان رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر، فإن لم ترضوا بحكمه فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس".

كان يخشي أن تتفرق الأمة من بعده، فهدد من يفرقها بالقتل!فلما خرجوا قال العباس شيخ بني هاشم لابن أخيه عِلي :" لا تدخل في هذا الأمر إني أكره الخلاف".

قال عِلي :" إذن ترى ما تكره"!

ثم قال لعمه العباس:"عدلت عنا". قال العباس:"وما علمك". قال:" قرن بي عثمان وقال كونوا مع الأكثر. فإن رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن. فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان فيوليها أحدهما الآن، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني".

فقال العباس:"لم أرفعك في شيء إلا رجعت إلى مستأخرا لما أذكره. أشرت عليك عند وفاة رسول الله أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت، وأشرت إليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت، وأشرت عليك حين سماك عمر في الشورى ألا تدخل فيها فأبيت. احفظ عني واحدة. كلما عرض عليك القوم فقل:لا. إلا أن يولوك. واحذر هؤلاء الرهط فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا حتى يقوم به غيرنا. وأيم الله لا نناله إلا بشر لا ينفع معه خير".

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى، وكان عثمان أكبرهم سناً إذ هو في نحو التاسعة والسبعين وعِلي أصغرهم سنا إذ هو بعد الأربعين بعام أو عامين.

وتكلم عثمان، ثم الزبير بعده، ثم سعد، ثم تكلم علي بن أبي طالب فقال:" الحمد الله الذي بعث محمدا منا نبيا، وبعثه إلينا رسولاً، فنحن بيت النبوة، ومعدن الحكمة، وأمان أهل الأرض، ونجاة لمن طلب، لنا حق إن نعطِهِ نأخُذْه، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل، ولو طال السرى. لو عهد إلينا رسول ﷺ عهدا، لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولاً لجالدنا عليه حتى نموت، لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق وصلة رحم، ولا قوة إلا بالله. أسمعوا كلامي، وعوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر بعد هذا المجتمع تنتضى فيه السيوف، وتخان فيه العهود، حتى تكونوا جماعة، فلا يكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة، وشيعة لأهل الجهالة".

وبعد أن انتهوا جميعا من كلامهم قال عبد الرحمن بن عوف:" أيكم يطيب نفسا أن يخرج نفسه من هذا الأمر ويوليه غيره؟".

فأمسكوا عنه، ولم يجبه أحد!

فقال:"أنا أنخلع منها".

فقال عثمان:"أنا أول من رضي". قالوا:"قد رضينا".

ولم يقل عِلي□ شيئًا. وظل يفكر فيما عسى أن يصنعه عبد الرحمن! فهو صهر عثمان وابن عم سعد.. أيؤثر أحدهما..!؟

فقال عبد الرحمن:" ما تقول يا أبا الحسن؟" قال عِلي□:" أعطني موثقًا لتؤثرن الحق، ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم لرحمة ولا تألوا الأمة نصحا".

قال عبد الرحمن:" أعطوني مواثقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير، وأن ترضوا من اخترت لكم. وعلى ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو الأمة نصحا".

وأعطاهم موثقًا، وأخذ منهم ميثاقًا...

فقال لعِلي□:" تقول إنك أحق من حضر هذا الأمر لقرابتك من رسول الله□ وسابقتك وحسن أثرك في الدين، ولم تبعد، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك، من تراه أحق به". قال عِلي □:" عثمان بن عفان".

وخلا ابن عوف بعثمان فقال له:"تقول إني شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله □، ولي سابقة وفضل،

فأين يصرف هذا الأمر عني؟ ولكن لو لم تحضر إلى هؤلاء الرهط، فإلا هؤلاء أحق به؟" قال:" عِلي بن أبي طالب".

وقال عِلي لسعد بن أبي وقاص:" أسألك برحم عمي حمزة (وهو خال سعد)ألا تكون مع عبد الرحمن ظهيرا لعثمان عِلي . اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام".

أما عبد الرحمن بن عوف، فقد مضى إلى رؤساء الجند وأشراف الناس يشاورهم، حتى إذا كانت الليلة التي في صحبتها يستكمل الأجل المضروب (وهو ثلاثة أيام) أتى منزل أحد أصدقائه فقال له:" لم أذق هذه الليلة كثير غمض...انطلق فادع الزبير وسعدا".

فلما حضرا، حاول أن يقنعهما بالبيعة لثمان فقال سعد:"أنا اخترت عثمان، فعِلي أحب إلى ".

وقال الزبير أنه يؤيد علِيا.

ثم نادى ابن عوف علِيا، فناجاه طويلاً، وانصرف عِلي كرم الله وجه عنه، فدعا عثمان فناجاه حتى الصباح، فلما صلى بهم صهيب الصبح، جمع عبد الرحمن أهل الشورى الستة رضي الله عنهم. ودعا أمراء الأجناد وبعث إلى المهاجرين الموجودين بالمدينة، وأهل السابقة والفضل

من الأنصار حتى امتلأ بهم المسجد، فقال عبد الرحمن:"أيها الناس.. إن الناس قد أحبوا أن يرجع أهل الأمصار إلى أمصارهم وقد عرفوا من إمامهم، فأشيروا عِلي "".

فقال عمار بن ياسر:" إذا أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليا".

فقال المقداد:" صدق عمار، إن بايعت عِليا قلنا: سمعنا وأطعنا".

وقال ابن أبي سرح:" إذا أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان".

فقال عمار لابن أبر سرح:"متى كنت تنصح

المسلمين؟". ذلك أن ابن أبي سرح هو أحد الذين أمر الرسول بقتلهم يوم الفتح وإن تعلقوا بأستار الكعبة، غير أن عثمان تشفع له فصفح عنه الرسول.

وتكلم بنو هاشم وبنو أمية، وأوشكت أن تحدث بينهما شحناء، فقال عمار:" أيها الناس إن الله أكرمنا بنبيه، وأعزنا بدينه، فأنَّى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟". فقال

رجل من بني مخزوم:" لقد عدوت طورك يا بن سمية، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها؟".

وأوشكت النعرات الجاهلية أن تثور بين القوم، فقال سعد بن أبي وقاص:" يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس".

فارتقى عبد الرحمن المنبر وقال:" أيها الناس، إني قد سألتكم سرا وجهرا من إمامكم، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين عِلي وعثمان".

فدعا عليا فقال له:" عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين بعد".

فقال عِلي :" أرجو أن أفعل فأعمل بمبلغ علمي وطاقتي".

ثم أخذ بيده وقال:" أبايعك على شرط عمر ألا تجعل أحدا من بني هاشم على رقاب الناس".

فقال عِلي:" مالك ولهذا؟ إذ قطعتها في عنقى فإن عِلي الاجتهاد لأمة محمد. وحيث علمت القوة والأمانة استعنت بهما، كان في بني هاشم أو غيرهم".

فترك عبد الرحمن يد عِلي، وأخذ بيد عثمان فسـأله كما سأل عليا وشرط عليه ألا يضع بني أمية علـى رقـاب الناس، فوافق عثمان على الشرط.

فأعلن عبد الرحمن أنه يبايع عثمان، ودعا الناس إلى بيعتة.

فقال عِلي:" ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيـه عِلـي، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون! أمـا والله مـا وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك! والله كل يوم هو في شأن".

فقال عبد الرحمن:" يا عِلي لا تجعل علـى نفسـك سبيلاً فإني قد نظرت وشاورت الناس، فإذا هم لا يعـدلون بعثمان".

فقال:" سيبلغ الكتاب أجله".

فقال المقداد:" ما رأيت مثل ما أوتي إلى أهل البيـت بعد نبيهم. إني لأعجب من قريش أن تركوا رجلاً مـا أحـد أعلم منه، ولا أقضى منه بالعدل"!

فقال عبد الرحمن:" اتق الله يا مقداد. إنـي خـائف عليك الفتنة".

فقال عِلي:" إن الناس ينظرون وقريش تنظر إلى بيتها فتقول: إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم"!

فقال عبد الرحمن: قال تعالى: (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه. ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما)..

وحدث هرج عظيم، ورأي عِلي أن اختلاف الناس قد يؤدي إلى الفتنة.

فشق الناس حتي بايع وهو يقول:" خدعة أيما خدعة".

ثم ارتقى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:" لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري، والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا عِلي خاصة، التماسا لأجر

ذلك وفضله، وزهدا فيما تنافسوه من زخرفه".

وبايع..فبايع من بعده الذين أحسوا بأنه مظلوم سليب الحق!

وقدم طلحة إلى المدينة بعد أن بايع الناس عثمان فسأل:" أكل قريش راضٍ به؟"

قالوا:"نعم". فأتى عثمان قائلاً:" قد رضيت، لا أرغب عما أجمع عليه الناس".

وارتضى عِلي أن يكون عثمان أميرا عليه، فهو يجِلُّه، ويعرف حسن بلائه في الإسلام.

ولقد قال عن عثمان:" ذاك امرؤ يسمى في السماء ذا النورين"..

وأخلص لعثمان، وصدقه النصح ليجمع به الشمل.

وكان عِلي رضي الله عنه أكثر الناس معرفة بفضل السابقين من الصحابة. قال عنهم:"قوم والله ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل بالحق، متاريك للبغي، مضوا قدما على الطريقة، وأوجفوا على المحجة، فظفروا بالعقبى الدائمة...خمص البطون من الصيام ذبُل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم عبرة للخاشعين... لم يمُنّوا على الله بالصبر، ولم يتسعظموا بذل أنفسهم في الحق".

وكان يقول عن عثمان خاصة:"إنه أوصلنا للرحم".

وما كان أحد يدري ما يخطه القدر لعثمان!

وما تخيل أحد أن هذه الفضيلة فيه، هي التي ستر ديه!!

***

الفصل السابع

الخليفة ذو النورين

ولـي عثمان بن عفان وهو شيخ رقيق كـريم لـين، شديد الرعاية لذوي القربى .

وكان عمر قد ضيق على قريش، فلم يكن أحد مـنهم ينال شيئًا من الدنيا في عهد عمر، إعظاما له، وتأسـيا بـه، وإجلالاً واقتدا ‌ء!

وكان عمر يحاسب عماله حسابا عسيرا، ويغلظ لهم، ويقسم ما كسبوه خلال عملهم، فيصادر نصفه لبيت المـال، ويترك لهم نصفه..

صـنع هذا مع أبي هريـرة وعمـرو بـن العـاص وغيرهما..

ولقد كره أقوام شدة عمر، وكانوا يتهامسـون فيمـا بينهم بأن عمر يريد أن يحرم الطيبات من الرزق التي أحـل الله لعباده!

أما عِلي فقد كان يسمي ما يصنعه عمر بهذا النصف من الولاة رفقًا لا يجوز أو شدة ليست من حقه!

قال عِلي لعمر:"لئن كان عمالك خونة، وكان هذا المال في أيديهم خيانة، ما حل لك تركه، وكان لك أن تأخذه كله، فإنه فئ للمسلمين، فما لك تأخذ نصفه وتترك نصفه؟ ولئن كانوا غير خونة. فما حلَّ لك أن تأخذ أموالهم، ولا شيئًا منها قليلاً أو كثيرا!

وأعجب من ذلك إعادتك إياهم إلى أعمالهم!.. لئن كانوا خونة، ما حل لك أن تستعملهم! وإن كانوا غير خونة ما حقت لك أموالهم"!

من أجل ذلك كرهوا علِيا أكثر مما كرهوا عمر، وخافوه على أطماعهم، وخشوا إن أصبح هو أميرا للمؤمنين، أن يصرفه عما يريدون من الدنيا بأشد مما فعل عمر. فيحملهم على الزهد، والتخلي عن زينة الحياة!

وفي الحق أن علِيا ما كان يرى هذا الرأي، ولكنه كان يكره أن يخون الولاة المستخلفون على الأموال، فيأخذون ما ليس لهم، وكان ينهي عن كنز المال، وفي الأمة أصحاب حاجة، وكان يحبذ عمر في قوله:"كل امرئ وبلاؤه (إلا وعمله)، كل امرئ وحاجته".

ولقد جاءه رجل من الصحابة فقال:"يا أبا الحسن، أشكو إليك أخي، فقد تخلى عن الدنيا، ولبس العباءة". فاستدعاه عِلي فلما جاءه قال:"يا عدو نفسه!أما رحمت أهلك ونفسك وولدك؟!أترى الله أحل لك الطيبات، وهو يكره أن تأخذها؟أنت أهون على الله من ذلك!فلا يكن أهلك أشقى الخلق بك!وأكرم عشيرتك، فإنهم جناحك الذي به تطير، وأصلك الذي إليه تصير، ويدك التي بها تصول".

على أن هؤلاء النفر الذين كرهوا شدة عمر، وخافوا تحرج عِلي وحسمه وقوته، أحبوا لين عثمان، ورفقه، وحرصه على إرضاء ذوي القربى وأولي الأرحام..

ويروى الحسن البصرى أنه شاهد عثمان وهو يخطب بعد أن بويع بالخلافة، وكان الحسن البصرى يومئذ صغيرا، يقول:فما رأيت قط ذكرا ولا أنثى أصبح وجها ولا أحسن نضرة منه.فسمعته يقول:"أيها الناس:اغدوا على كسوتكم".فيغدون، فيجاء بالحلل فتقسم بينهم. وحتي والله سمعت أذناي:"يا معشر المسلمين اغدوا عِلي السمن والعسل".فيغدون فيقسم بينهم السمن والعسل. ثم يقول:"يا معشر المسلمين اغدوا عِلي الطيب، . فيغدون فيقسم بينهم من

المسك والعنبر وغيره!والعدوان واالله منفي والأعطيات دارة والخير كثير. وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنًا، من لقي في أي البلدان فهو أخوه وأليفه، وناصره ومؤدبه، فلم يزل المال متوفرا، حتي لقد بيعت الجارية بوزنها ورقًا، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار، وبيع البعير بألف، والنخلة الواحدة بألف"

ما كرهت الرعية الإمام عمر لشدته وزهده، ولكن الذين كرهوا عمر هم أصحاب المطامع، أما أغلب المسلمين فقد بكوه أحر بكاء..كانوا آمنين في حياته، وكانوا يرون فيه الإمام العادل حقًا..أقسم باالله قبل أن يغتال أنه لو عاش إلى العام القادم لأخذ ما فاض عن حاجة الأغنياء، ومنحه الفقراء:"لو عشت إلى قابل لأخذت فضول الأغنياء، ورددتها إلى الفقراء".

ولقد وقف عِلي يبكي عمر وهو مسجى:"يرحمك االله يا أبا حفص!ما أحد أحب إلى بعد النبي ❐ أن ألقى االله بصحيفته منك".

وقال آخرون وهم يبكونه:"إنما نبكى على الإسلام. إن موت عمر ثلم الإسلام ثلمة لا ترتق إلى يوم القيامة".

وقال الحسن بن عِلي"إن أهل بيت لم يحزنوا على قتل عمر فهم أهل بيت سوء"..

كان هذا هو حزن أهل التقوى وأصحاب الورع.أما أهل الطمع وأصحاب المصالح فاشرابت أطماعهم وأخرجت رءوسها، وتطلعوا إلى رقة عثمان ولينه، وحسن صلته لأولي الأرحام، وبره بذوي القربى!

ولكم كان عمر شديدًا على هؤلاء، وخاصة الذي تولى منهم أمرا من أمور المسلمين، كان الوفد إذا قدموا على عمر رضي الله عنه سألهم عن أميرهم"هل يعود مرضاهم؟أمحسن هو إلى العبيد والإماء؟أرقيق بالضعيف؟أيغيث الملهوف؟أيجلس على بابه فيأتيه الناس"؟فإن قالوا لخصلة منها:لا، عزله..

***

وفي الحق أن عثمان واجه أول ما واجه موقفًا عصيبا حقا..فبنو هاشم رأوا فيما صنعه عبد الرحمن بن عوف خدعة لإقصاء عِلي وبني هاشم عن الخلافة فكان في أنفسهم من خلافة عثمان شيء!!

أما عِلي نفسه، فعلى الرغم من اقتناعه بأنـه أحـق الناس بالخلافة، فقد بايع ودعا الناس إلى البيعة لعثمان، وإلى طاعته، حرصا على وحدة الأمة وقوتها، وهذا ما فعله مـن قبل مع عمر، ومن قبله مع أبي بكر..قال:"نظرت في أمري فإذا طاعتي قد سبقت بيعتـي، وإذا الميثـاق فـي عنقـى لغيري..وقد علمتم أني أحق الناس بها، ولكن واالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا على خاصـة التماسا لأجر ذلك وفضله".

ولكن علِيا كان يعرف أن عثمان غير عمر، وكـان يرى أن مصلحة الأمة تحتاج إلى حزم عمر وشـدته مـع حرصه على العدل، لا إلى رقة عثمان ولينـه وإن حـرص على العدل!

ولم يكن بنو هاشم وحدهم هم الذين رأوا في اختيـار عثمان والعدول عن عِلي ظلم لعِلي وبني هاشم، وانحياز لبنة أمية.

فمن هؤلاء عدد من أهل الورع من أصحاب السابقة في الإسلام مثل سلمان وعمار وأبي ذر والمقداد وآخرين..

ولكن علِيا لم يسمح لهم بأن يتحول هذا الشعور في أعماقهم أو في أعماق بني هاشم إلى مرارة أو نقمة على عثمان!

فقد كان عِلِي حريصا على أن يطيع الجميع ولي الأمر الجديد، وأن يكون لعثمان ما كان لعمر من مكانة في قلوب النفر أصحاب السبق والفضل والتقوى!

***

سئل عِلِي:"من أين لك هذا العلم كله؟!"فقال:"ليس كل أصحاب رسول الله ❐ من كان يسأله ويستفهمه، وكان لا يمر بي من ذلك شيء إلا سألته وحفظته"! فقال له أحد الجالسين معه:"لقد أعطيت علم الغيب".فضحك عِلِي وقال:" علم الغيب لا يعلمه إلا الله، وما سوى ذلك فعلم نبيه ❐ ، فعلمنيه، ودعا لي بأن يعيه صدري، وتنضم عليه جوانحي".

وتمني عمار وأبي ذر أن يحسن عثمان السيرة، ويفيد من عِلي كما أفاد عمر فقال عِلي :"عثمان أوصلنا للرحم". فقال عمار وأبو ذر:" من أجل ذلك نخاف!فقد يقصي أصحاب السبق ويحيط نفسه بأولي الأرحام من بني أمية"!فقال عِلي

مدافعا عن عثمان"عثمان؟ذاك امرؤ اسمه في الملأ الأعلى ذو النورين"!

ما كان أحكم عِلي بن أبي طالب!!

إن القوم لينظرون إليه، ويتذكرون يوم أقنع عمر بأن يدون التاريخ، وأن يجعل أول عام في تاريخ المسلمين هو عام الهجرة، وكان ذلك في العام السادس عشر.

وإن القوم لينظرون إليه، ويتذكرون يوم احتاج عمر بن الخطاب إلى مال ليجهز الجيش، ولم تكن الفتوحات قد جاءت بالثراء العريض للدولة الجديدة بعد، وما في بيت المال مال!فذكر قوم حلى الكعبة وقالوا:"ما تصنع الكعبة بالحلي يا أمير المؤمنين؟ خذ هذه الحلي فجهز بها جيوش المسلمين يكن لك أعظم الأجر".وهم عمر بذلك إلا أنه رأي أن يسأل عليا.فقال له رضي الله عنهما:"إن القرآن أنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم- والأموال الأربعة: أموال المسلمين فقسمها بين الورثة في الفرائض (المواريث)، والفئ فقسمه على مستحقيه، والخمس، فوضعه الله حيث وضعه، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها، وكان حلي الكعبة فيها يومئذ فتركه الله على حاله، ولم يتركه نسيانًا

(وما كن ربك نسيا) ولم يخف عليه مكاناً، فأقره يا أمير المؤمنين حيث أقره الله ورسوله".

فقال له عمر:"لولاك لافتضحنا". وترك الحلي بالكعبة كما هي.

ويذكر أبو ذر وعمار وسلمان وعدد من المهاجرين الأوائل يوم سقيفة بني ساعدة حين اضطربت الأمور، وعِلي مشغول بتجهيز الرسول، وقال الأنصار:منا أمير ومنكم أمير".وعلم عِلي كرم الله وجه بما كان منهم ومن أبي بكر وعمر وأبي عبيدة رضي الله عنهم. ولم يعجبه ما تحتج به الثلاثة على الأنصار، فأوصى بأن يحتجوا عليهم لكي يطيبوا نفسا ويتركوها للمهاجرين طوعا، بأن رسول الله و صى بالإحسان إلى محسنهم والتجاوز عن مسيئهم.قالوا:"وما في هذا من الحجة؟!".قال عِلي:"لو كانت الإمامة منهم، لم تكن الوصية بهم!!". على أنه كرم الله وجهه سأل: "ماذا قالت قريش في احتجاجها على الأنصار؟".قالوا" احتجت بأنها شجرة الرسول!".فقال ساخرا "احتجوا بالشجرة، ,وأضاعوا الثمرة!"(إلا آل البيت).

***

وما زال كرم الله وجهه ببني هاشم وأصحاب الورع، وأهل التقوى والسبق من المهاجرين والأنصار حتي تقبلوا حكم عثمان عم طيب نفس، وأخلصوا له الطاعة وعيونهم مع ذلك مفتوحة على ما عساه أن يصنعه مع عشيرته من بني أمية!

ومن عساه يستشير:أهم الصحابة، وفي مقدمتهم عِلي بن أبي طالب باب مدينة العلم وأقضى الصحابة؟.أم أنه سيستغني عنهم ويكتفي برأي أصحاب الحيلة والدهاء من ذوي قرباه من بني أمية؟!

إن عِلي بن أبي طالب لو شاء لكان أدهي العرب!!وهو كما قال عن نفسه:"أنا أدهي العرب لولا العلم والدين".

وبدأ عثمان أول أعماله باستشارة الصحابة ومنهم عِلي . فقد جلس بعد البيعة في ركن من المسجد. وكان المسجد دار الحكم، ثم هو دست الخلافة وإيوان الإمامة!.

من المسجد حكم الرسول ، ثم خليفته الأول أبو بكر، ثم أمير المؤمنين عمر.

اختار عثمان ركنًا من المسجد يحكم منه، ودعا عبيد الله بن عمر من محبسه.

وكانت قضية عبيد الله بن عمر هي أول ما واجه أمير المؤمنين الجديد من مشكلات!!

ذلك أن عبد الرحمن بن عوف حين رأي الخنجر الذي اغتيل به أمير المؤمنين عمر وهو خنجر غريب الشكل ذونصلين ومقبضه في وسطه، قال أنه رأي أبا لؤلؤة بالأمس يقلب هذا الخنجر ومعه الهرمزان وجفينة، واتهمهما، فخرج عبيد الله بن عمر في غضب عارم شاهرا سيفه.فقتل الهمزان، وهو فارسي أسلم، وجفينة، وهو نصراني من نصارى الحيرة، ثم ذهب إلى بيت أبي لؤلؤة، فقتل ابنته الصغيرة، وأراد أن يقتل كل من في المدينة من سبى رجالاً كانوا أو نساء ، فتكاثر عليه عدد من المهاجرين والأنصار، فنزعوا منه السيف، ووضعوه في محبس!.

وهكذا ضاعت أسرار المؤامرة إلى الأبد!.

فلما جاءوا بعبيد الله بن عمر ليحاكمه عثمان سأل عثمان جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم عِلي:"أشيروا عِلي في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق".

وسكت الجميع فيما يدرون بم يشيرون!

وقال عِلي:"ما من العدل تركه، وأرى أن تقتله، فقد قتل رجلاً مسلما يصلي، وقتل صبية صغيرة، وقتل رجلاً نصرانيا من ذمة رسول الله!".

فقال أحد الحاضرين من أقرباء عثمان، إن أبناء عمر كانزا ثائرين جميعا لمقتل أبيهم، وهم الذين شجعوا عبيد الله على ما فعل ..حتي أم المؤمنين حفصة بنت عمر مما شجع عبيد الله على قتلهم!

وعاد عِلي يؤكد أن القصاص لولي الأمر، فما من حق أبناء عمر أن يقيموا الحد أو يقبضوا، فهذا لأمير المؤمنين وحده، أما أولياء الدم، فليس لهم إلا أن يعفوا إذا شاءوا.. ثم إن عبيد الله لو لم يقتل هؤلاء لأمكن أمير المؤمنين أن يعرف أسرار مؤامرتهم على المسلمين جميعا".

ولم يرتح عثمان لهذا الرأي!

وقال بعض الحاضرين:"أيقتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم؟!".

ولم يعقب عِلي !..

وكان عمرو بن العاص حاضرًا في مجلس عثمـان، فقال:" يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك من هذا الحدث، فقد كان قبل البيعة، وليس لك على المسلمين سلطان.
تلك قضية لم تكن في أيامك فدعها عنك".

فلم يرتح عثمان لهذا التبرير!

وضاق به عِلي ، واستشعر الأسـى، فـإن عليـه أن يجادل مثل هذه الآراء في أيامه المقبلة!!

وأخيرا قال عثمان:"أنا ولي الذين قتلهم عبد الله بـن عمر. وقد جعلتها دية، واحتملتها في مالي".

ولم يرق هذا للذين لم يرحبوا بخلافة عثمان، وأسفوا لأن الخلافة فاتت عليًا!..

لكنهم امتثلوا، وأذعنوا مطيعين، كما أمـرهم عِلـي، حرصًا على وحدة المسلمين الذين يحكمون اليوم دولة شاسعة مترامية الأطراف، يتربص بها الأعداء، منذ قتل عمر.ولعلهم كانوا من وراء اغتيال أمير المؤمنين المقتول..

وأحس عثمان أن الموجودين من الصحابة لم يرتاحوا لتدخل عمرو بن العاص، فيما هو من أهل الشورى، وليست له سابقة في المشورة للخليفتين السابقين!..

كما شعر عثمان رضي الله عنه بنظرات عِلي كرم الله وجهه تقتحم هؤلاء الذين التفوا حول أمير المؤمنين الجديد منذ البيعة، وكأنهم أرادوا أن يستخلصوه لهم وحدهم من دون الصحابة وأهل الرأي ..!!

وإن عثمان ليعرف أن هذا الرهط من ذوي قرباه وأصدقائهم لم يكونوا راضين شدة عمر، وإنهم ليخشون أن يكون لعِلي عند عثمان ما كان له من رأي نافذ عند عمر، فيفسد عليهم أطمعاهم وآمالهم في الثراء في السطو والجاه..!

وكأنما أحسن عثمان في ومضات العيون باضطرام آمالهم وأطماعهم في الأعماق منهم.

فحركته التقوى إلى أن يقف على المنبر، وقد بان لهم على وجهه..فيصمت قليلاً، وتدهمه الحيرة ماذا يقول!! ثم يحمد الله ويثني عليه، ويصلي عِلي النبي، ويقول:"أيها الناس إنكم في دار قلعة (أي دار رحلة وليست دار غقامة). فبادروا

آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم، ألا وإن الدنيا طويت علىالغرور.

(فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم الغرور). واعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا، فإن الله لا يغفل عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها، ومتعوا بها طويلا؟!. ألم تلفظهم؟! ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله عز وجل ضرب لها مثلاً وللذي هو خير منها فقال:"واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا*المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا). صدق الله العظيم".

ثم وجه أول كتاب إلى عماله (أمراء الولايات والمدن) فقال:"أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، لم يخلقوا جباة، ليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة لا رعاة، فإذا عاد كذلك، انقطع الحياء والأمانةوالوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين:فيما لهم وما

عليهم فتعطوهم ما لهم، وتأخذوا بما عليهم، ثم تثنوا بالذمة (يعني أهل الذمة وهم اليهود والنصارى) فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذين تنتابون، فاستفتحوا عليه بالوفاء".

ثم كتب إلى أمراء الأجناد في الثغور:"أما بعد، فإنكم حماة للمسلمين وسادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان عن ملأ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه، والقيام به".

وكتب إلى عمال الخراج:"أما بعد، فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها..الوفاء الوفاء!لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم".

ثم طمعت الروم في الدولة بعد عمر، فأغاروا على الثغور، فسيّر إليهم عثمان جيوشاً كبيرة، فصدتهم، ثم دخلت أرضهم ففتحها، وركبت جيوش المسلمين البحر بقيادة معاوية ففتحت قبرص، واجتاحت جيوش أخرى أرمينية وآسيا

الصغرى وفتحت بلاد الأفغان، وأفريقية، (فأصاب الناس ما شاءوا من سبي، وملأوا أيديهم من المغنم، وافتتحوا حصونًا كثيرة) وازدادت الدولة ثراء، وتكدست الأموال في بيت المال.

وأراد عثمان أن يوسع الحرم النبوي، وابتاع من قوم بيوتهم، وأبي آخرون، فانتزعها منهم بأثمانها، فاحتجوا عليه، فأمر بحبسهم وقال:"أتدرون ما جرأكم؟ما جرأكم إلا حلمي!قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به!".

فنصحه بعض ذوي قرباه بالشدة مع الناس..

وهكذا بدأ عثمان يشتد..واستعمل السياط في تأديب الرعية، فكان أول من عالج المسلمين بالسياط كيلا يظنوا به الضعف، ولكيلا يحسبوا حلمه ورقته وحياءه ولينه عجزا!!..

وكان عمر قد منع بعض كبار الصحابة من مغادرة المدينة، وأبقاهم حوله يستشيرهم، ولكن عثمان أباح لهم أن يسيحوا كما شاءوا في البلاد..

ولم يعد يستشير من كان يستشيرهم عمر، وأحاط نفسه بنفر من بني أمية جعلهم أهل مشورته في سياسة الحكم.

فلم يستشر علِيا في أمر من أمور السياسة، كما ألف عمر، ومن قبله ابو بكر.

ثم إنه عزل الولاة الذين عينهم عمر، وأقام مكانهم آخرين من بني أمية، وما عاد يسمع لأحد غيرهم، وهم ما برحوا يغرونه بالمبالغة في الشدة كيلا يظن به أحد ضعفًا، وكانوا هم أنفسهم يبطشون بالرعية، ويستبيحون ظلمها، ويعدون مصالحها وهم أجراؤها..

وحج عثمان رضي الله عنه بالناس، فزين له بعض قرابته من بني أمية أن يقيم مخيما كبيرا يليق بأمير المؤمنين، فكان أول من ضرب فسطاطًا بمنى. وأتم الصلاة بمنى وبعرفة، والسنة قصر الصلاة بهما. فقال له علِي: "ما حدث أمر، ولا قدم عهد ولقد عهدت النبي وأبا بكر وعمر يصلون ركعتين، وأنت صدرا من خلافتك"فقال:"رأي رأيته".

وجاء قوم إلى عِلي يشكون عثمان، وينكرون عليه أمورا، واشتدوا في التكبير، فطلب منهم علِي ألا يجهروا بالإنكار على الخليفة، كيلا يتجرأ الناس، فيشقوا عصا الطاعة على أمير المؤمنين، ويتفرق المسلمون!..

وجاءه عِلي فقال:"يا أمير المؤمنين ألا تنهي سفهاء بني أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم!؟والله لو ظلم عامل من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركًا بينه وبينك. فأرجع إلى الله. فحتي متى وإلى متى؟!".

وجئ إلى عثمان بإبل من إبل الصدقة، فوهبها لمروان بن الحكم وأهله، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف، وكان أهل التقوى والورع من الصحابة قد أكثروا لوم عبد الرحمن، وشددوا عليه، لأنه هو الذي عدل بالبيعة عن عِلي إلى عثمان!!

فلما علم عبد الرحمن بما كان من أمر إبل الصدقة قام ومعه عدد من المهاجرين والأنصار، فأمر بتقسيمها بين الناس فقسمت، وعثمان ساكت في الدار!!فكان عبد الرحمن بن عوف هو أول من جرأ عليه الناس!!

ولم يعد للناس حديث في كل مكان إلا ما يروعهم صباح مساء من أشياء لم يألفوها في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مثل ظلم الولاة للرعية في الأمصار، والظلم ظلمات يوم القيامة كما قال رسول الله ﷺ، ثم الأموال الطائلة التي يغدقها عثمان على ذوي القربى والمقربين إليه فوق ما

يقطعهم من الضياع، حتي لقد بلغ ما يملكه أحدهم ألف فرس، وعدة قصور في الكوفة والإسكندرية ومصر!..وفي الأمة، إلى جوار هؤلاء الذين يكنزون، كثير من ذوي الحاجات، وغير قليل من الجياع!!..

وعثمان ما زال يحمل ذوي قرباه من المتجبرين على رقاب الناس!!

وحاول زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه أن يكف الناس عن تناول عثمان، فاشتدوا عليه، وعيروه بأنه يكنز الذهب والفضة. وبأنه يملك من الذهب ما يقطع بالفئوس، ويملك عشرة آلاف من الغنم والبعير!!

وأحس عِلي كرم الله وجه بالخطر، فأتى عثمان رضي الله عنه. وقال له ناصحا متلطفاً:"إن الناس ورائى قد يكلوني في أمرك، والله ما أدري ما أقول لك!فما أعرفك شيئًا تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه، وإنك لتعلم ما نعلم، وما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، لقد صحبت رسول الله ❐ وسمعت ورأيت مثل ما سمعنا ورأينا، وما ابن أبي قحافة وابن الخطاب بأولى بالحق منك، ولأنت أقرب إلى رسول الله

رحما، ولقد نلت من صهره ما لم ينالاه، فالله الله في نفسك، فإنك لا تبصر من عمي، ولا تعلم من جهل!".

فقال له عثمان:"والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك، ولا عتبت عليك أن وصلت رحما وسددت خلة وآويت ضائعا!.أو لم يول عمر معاوية؟".

قال عِلي:"إن ابن عمك معاوية كان أشد خوفًا وطاعة لعمر من غلامه!ولكن معاوية الآن يبتز الأمور دونك، ويقطعها بغير علمك، ويقول للناس:هذا أمر عثمان، ويبلغك فلا تغير!".

وجعل عِلي يلح عليه أن يعدل عن سيرته في الناس، فاعتذر عثمان عما بدر منه بقوله:"وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء". صدق الله العظيم.

ووعد بإصلاح كل خطأ، وبالتحقيق معم عماله الذين ظلموا..

حكام وأرسل عددا من شيوخ المهاجرين والأنصار يجدواالساخطين على سياسته ليحققوا مع عماله المتجبرين لـهمصر والكوفة والبصرة والشام فعادوا يقولون أنهم لم مآخذ على هؤلاء الولاة..إلا عمار بن ياسر فقد طاب

المقام في مصر..أحبها وأحبه أهلها، فأقام بينهم حينًا من الدهر يفقههم في الدين، ثم عاد إلى المدينة، وفي أعماقه ذكريات جميلة عن أيامه في مصر!

***

الفصـل الثـامن أيام
الغضب والتربص

أسرف أقوام على عثمان في الملامة إسرافا شـــديدًا، وأعرضوا عنه إعراضا، حتى لقد سلبوه محاسن نفسه!

من أجل ذلك اضطر عِلي للدفاع عن عثمـان فيمـا يعتقد أنه أحسن فيه، على الرغم من أنه أخذ عليــه أمـورا، كان لا يألوه فيها نصحا موعظة!!

فقد وجد عثمان أهل الأمصار قد اختلفوا فـي قـراءة القرآن، وكل يزعم أن قراءتهم خير من غيره، فجمع عثمان الصحابة، وشرح لهم مخاوفه أن يختلـف المسـلمون فـي القرآن، ثم لا يقوموا عليه أبدا!

وأرسل إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر أن ترسـل إليه بالصحف التي عندها، وهي التي جمعها عِلي بـن أبـي طالب وزيد بن ثابت في عهد أبي بكر وآلت من بهده إلــى عمر.

وجمع عثمان عددا من الصحابة، وأمرهم أن ينسخوا هذه الصفحات في مصحف واحد، فإن اختلفوا في كتابة كلمة

فليكتبوها بلغة قريش فإنما نزل القرآن بلسانها. ولقد اختلفوا في كلمة التابوت، فرأى أحدهم أن يكتبها"تابوه"ولكنهم آخر الأمر كتبوها بلسان قريش:التابوت.

وكتب الصحابة عدة نسخ من القرآن بالحرف العثماني المعروف لدينا حتى اليوم، فاحتفظ عثمان بنسخة، ووزع الباقي على الأمصار وأمر بأن يستنسخ المصحف من هذه النسخ فحسب، وأمر بأن يحرق ما سوى ذلك!

وأعظم الصحابة رأيه، وفرحوا بأن الله تعالى حقق وعده:"إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون".

ولكن علِيا سمع من يلزم عثمان على هذا الصنيع، فزجره ونهاه، ومدح ما فعله عثمان قائلاً:"لو وليت منه ما وليه عثمان ما سلكت إلا سبيله رضي الله عنه".

ثم أخذ يمدح مناقب عثمان، ويذكر بها الناس.

لئن كان عثمان قد أخطأ واختلف معه كبار الصحابة في سياسة الإمامة وتوزيع الثروة، إنه للرجل الذي اسمه في الملأ الأعلى ذو النورين، وهو الذي جهز جيش العسرة من حر ماله، وهو الذي اشترى بئر رومة لما وجد صاحبها اليهودي يغلى ثمن الماء، فشرب أهل المدينة ماءهم بلا ثمن،

وهو الذي وزع ما تحمله قافلته الكبيرة من طعام وكساء على أهل المدينة، متصدقًا، في عام المجاعة بأكثر ماله...وهوالذي وسع الحرم النبوي من حر ماله، وهو الذي حرر مئات العبيد من ماله الخاص، وهو بعد قانت، ساجد، قائم يكاد أن يكون صائم الدهر، يطعم الناس اللحم والسمن والعسل ويأكل خبز الشعير الجاف، مغموسا بالزيت!!

فأي شيء ألم بهذا الصحابي الجليل يا علِي؟!

لكم هو فاجع ومعذب كل هذا الذي يجرى!!..

عندما كنت في مطلع الصبا يا عِلي، وفتوتك تثبت بك إلى الشاب، كان هذا الشيخ النوراني علما مضيئًا بالإسلام في ظلمات الجاهلية، ولقد سمعت من رسول الله ﷺ أن نور عثمان يضئ لأهل السماء كما تضئ الشمس لأهل الأرض!..

أو ما سمعت الرسول بقول أن جبريل قال له هذا عن عثمان؟!

وإنك لتعلم يا عِلي أن الله تعالى أنزل في وصفه آية من سورة الزمر:"أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه". فذلك عثمان..

ولقد قال عنه رسول الله ❐:"لكل نبي رفيق، ورفيقى إلى الجنة عثمان بن عفان".

وإنه لامرؤ شديد الحياة، حتى لتستحي منه الملائكة!

ليت المتكالبين على الدنيا من ذوي قرباه ما ركبوا حياءه!!

..واأسفًا على عثمان!!.

إن رسول الله رفض أن يصلي على واحد من صحابته، فلما سئل:"ما تركت أحدا من أصحابك لم تصل عليه غير هذا؟"قال:"إنه كان يبغض عثمان فأبغضه الله".

يا للرجل في قنوته وشجاعته وبلائه في سبيل الله!!

إنه أول من مضى بأهله وفر بدينه، مهاجرا إلى الحبشة..

إنك لمثل للمؤمن الورع القانت يا عثمان، فما بالك توطئ أكنافك للطامعين، وأنت ولي أمر المؤمنين؟!

لم تعزل كبار الصحابة أهل التقوى والقدوة والقدرة وأصحاب السابقة في الإسلام، ذوي الخبرة بالحياة والناس وسياسة الحكم؟!ألتضع مكانهم ذوي قرباك من أحداث بني أمية.

لماذا تولي الشام كله ابن عمك معاوية، وما ولاه عمر إلا جزءا منه؟ثم تولي ابن عمك سعيد بن العاص على البصرة، وتولي سائر الأقرباء على مصر وخراسان والكوفة وغيرها من الولايات والأمصار؟!...فحاكم مصر ابن أبي سرح أخوك من الرضاعة، وفي خراسان ابن خالتك عبد الله بن عامر!

القانت إنه ما من أحد يتولي الآن أمرا من أمور المسلمين، إلا أولو قرباك أو رهطك أو شيعتك!!وماذا بعد أيها الساجد القائم التقي الورع المعطاء، يا من عفت الحياء شعبة من شعب الإيمان؟!

لم تسمح لعشيرتك والطامعين فيك أن يجعلوا حياءك طريقهم المعوج إلى الدنيا وزخرفها وشهواتها، وقد جعل الله هذا الحياء فيك طريقك المستقيم إلى التقوى ومكارم الأخلاق وصلاح دنياك وآخرتك!!؟

أما من رجل في كل صحابة رسول الله يصلح وزيرا لك حتى تختار من دونهم، مروان بن الحكم، وزيرا لك؟!وأنت تعرف مثالبه وهو بعد طريد لعنة الله ورسوله!!..أم لأنه ابن عمك؟!..ألم تسمع قول عائشة أم

المؤمنين:"سمعت رسول الله ❐ يلعن مروان وهو في صلب أبيه الحكم، فهو فضض (قطعة) من لعنة الله ورسوله".ما أروعك يا عثمان إماما ورعا تقيا فتح الله به على المسلمين الأرض الواسعة، والممالك الضخمة، وأبواب الغنى والنصر، لولا قومك الذين تسلطوا على رقاب العباد، وما يريد الحاكم منهم إلا يكون جبارا في الأرض!!

وأنت تنظر، وتسكت!!

أفلا كففتهم عن الرعية، ورحمت المسلمين منهم، وضربت صلفهم وغرورهم، وقضيت على ما يثيرونه من نعرات قبلية، وعصيبة جاهلية؟!

ما بال ابن عمك معاوية حاكم الشام كله يزجر ناصحيه، ويستثير عصبياتهم بقوله:"إنكم لتنقمون قريشًا، وإن قريشًا لولاها لعدتم كما كنتم أذلة!إن الله بني هذا الملك بقريش وجعل هذه الخلافة فيها، ولا يصلح ذلك إلا لها، وقد عرفت قريش أن سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلا ما جعل الله لنبيه".

إنه ليتحدث عن الملك، يا إمام المسلمين!!

أيحلم إذن بأبهة الملك وسطوته!.. أيريدها قيصرية أم كسروية!؟

هلا علمته أنها الإمامة والخلافة لا الملك!

فلتذكره بموقف للعباس مع أبيه، كان ذلك يوم الفتح ورأي أبو سفيان تدفق جيوش المسلمين الكثيفة الهائلة لصديقه العباس:"لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما".فقال له العباس:"إنها النبوة لا الملك!".

قل لعمالك يا عثمان:إنها الإمامة لا الملك!

ثم ما هذا الفخر بقومه وبأبيه؟!!

أكان يجرؤ معاوية أو غيره، أن يزهو بقومه أو بعشيرته، أو أبيه. أو يثير هذه النعرة القبلية، والعصبية العائلية في عهد سلفك العظيم عمر؟!..

"كان عمر إذا ولى أحدا، فإنما يطأ على صماخيه، فإن بلغه عنه شيء جاء به، وبلغ في زجره أقصى الغاية".

أما أنت يا عثمان فلا تفعل، فقد رفقت بأقربائك ولنت لهم!وحسبك ضعفًا أمامهم أنك ولييهم وأنت تعرف الفضل في غيرهم من صحابة رسول الله ❒ ".

ما كان أشد عتاب عِلي بن أبي طالب علـى نفس عثمان بن عفان!..

الجيش ولكن علِيا ما برح يسأل عثمان عما صـنع بحـاكم مشـيرالبصرة ابن عمه سعيد بن العاص، حين أهان أمراء من غير القرشيين، وكانوا يسخرون منه!..قال سعيد إلى أرض العراق كلها:"إنما هذا السواد بستان قريش".فغضبالناس.وقال له الأشتر:"أتجعل هذا السواد الذي أفاءه الله عـِلينا

بأسيافنا بستانًا لك ولقومك؟".

وتلاحى أصحاب سعيد وأصـحاب الأشـتر، فقـام الأشتر وصحبه فوثبوا على سعيد، ووطئوه بأقدامهم، حتـى غشي عليه، وكاد يهلك، فتركوه، وتنصرفوا عنه!..

ماذا بقي من هيبة الإمامة وجلالها، أو حتـى مـن سطوة الملك، إذا كان المسئول عن أمر الناس يستثير غضبهم ونعرة العصبية فيهم حتى يصـبح جسـده ورأسـه موطئـا لنعالهم!؟

ماذا بقي للراعي بعد أن تطأه الرعية بنعالها يا أمير المؤمنين؟!

أنظر في أمر هؤلاء العمال؟ أفلا عزلتهم، وعقبتهم، بدلاًً من أن تجعلهم على رقاب المسلمين!!

أتعف أنت وتتقي وهم يرتعون ويلعبون!؟ وها هو ذا وزيرك مروان ينصح لك أن تغلظ على المسلمين، لكي يهابوك!..

ولكنهم يهابونك لقنوتك، وحيائك، ولسابقتك، وصدق بلائك بالمال في سبيل الله!

لماذا كانوا يهابون عمر؟!ألشدته، بل لعدله، فهم إلى عدلك وتقواك أحوج منهم إلى شدته!!إنك لتروعهم بالسوط، وترفض أن تسمع لهم، وعاقبة هذا كله الوبال..فالسوط لا يحمي ظلما، والاستبداد بالرأي لا يقيم دولة!

وأسفًا على عثمان الإمام القانت الساجد المتصدق الصادق صاحب الحياء العظيم!!

أهو أنت الذي يعزل كبار الصحابة أولي الفضل والسبق والحكمة ليولي بدلاًً منهم أولي القربى؟!..أهو أنت الذي يغضب على ناصحيه فيقول لهم:"وأي شيء بقي لي منالأمراء إذا كنت كلما كرهتم أميرا عزلته، وكلما رضيتم عن

أمير وليته؟"؟!

أهو أنت الذي يقول هذا لمن يصدقه المشورة؟!.

إنها لوسوسة مروان بن الحكم فاستعذ باالله منه، وأقصه كما تستعيذ باالله من الوسواس الخناس!؟؟

أم تصل ذوي قرباك، ومن والاك من الأنصار وحدهم؟!

لماذا ينال زيد بن ثابت الأنصاري مائة ألف درهم؟!

لماذا يعطى ابن عمك الحارث بن الحكم بن أبي العاص أخو مروان بن الحكم ثلاثمائة ألف، ولماذا ينال غيرهم من بني أمية ذلك؟!

أما مروان نفسه، فهو يأخذ بلا حساب من الأموال والضياع، بل هو وحده صاحب الرأي فيما يقطع الخليفة من أمر، وفيما يهب من أعطيات!!

***

ومهما يكن من أمر فقد شجع الخليفة عثمان على هذا الإغداق في العطايا بعد اتساع الفتوحات، وتدفق الأموال والثروات على نحو لم تعرفه الأمة من قبل حتى كان الفارس في جيوش الفتح يقسم له من بعض الغزوات ثلاثون ألفًا من الذهب، غير السبايا الحسان!!

هكذا استغرق الغنى لبانات كثير من الرجال!..ذرت عليها الفتوحات الكبرى وأحسنوا استثمار الأموال، فهم أهل براعة وحذق في التجارة..وربت تجارتهم وبارك لهم الله فيها حتى ملكوا الآلاف المؤلفة، والقناطير المقنطرة..!

ولقد أصبح عند الزبير بن العوام ألف فرس، وألف أمة!

وبلغت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم!!

وكان عند زيد بن ثابت الأنصاري من الذهب والفضة ما يكسر بالفئوس غير الضياع!!

ولكنهم كانوا يتصدقون بسخاء ولا يكتفون بإيتاء الزكاة المفروضة بل كانوا يرون الصدقة لونا من العبادة!!

وكان لآخرين من بني أمية مثل هذا أو أكثر..ولكل واحد منهم دار ضخمة فاخرة بناها في المدينة، وقصور أخرى في البلاد المفتوحة:على شواطئ البحار، ضفاف الأنهار، وسفوح الجبال المتوجة بخضرة الغابات..كانت لهم قصور في مصر، والإسكندرية، وثغور الشام، أو في غياض العراق وأذربيجان، أو في غابات الريحان في بلاد ما وراء النهرين في آسيا الوسطى!

ما من أحد يجد في هذه الثروات حرجا:لا الخليفة، ولا كبار الملاك، فهي من أموال الفئ والغنائم، إلا عِلي بن أبي طالب، ومعه نفر من الصحابة منهم أبو ذر وعمار

وسلمان..! فقد رأي عِلي أن الاستكثار من الأموال مذموم، بل
إنه لحرام إن كان في الأمة محتاجون أو جياع.
وكان عِلي يرى أن الدولة ذات الأطراف المترامية، يعيش فيها من المسلمين وأهل الذمة من لا يجدون ما يكفىهم للحياة الكريمة، وفيهم جياع، وما آمن بالله ورسوله من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم، كما جاء في الحديث الشريف!
ثم إن الرسول ❐ علمهم أن ما فاض عن حاجة المسلم لا يحق له وفي الأمة أصحاب حاجة، فليجد به على أخيه الذي لا يجد..وقد ظل يوصيهم بهذا حتى حسبوا أنه لا حق لأحد منهم في الفضل..!
وقد فرض هذا على كل من له فضل من طعام أو مسكن أو دابة أو كساء أو مال أو زرع، إذا كان هناك من له حاجة إلى هذا الفضل، فإن لم ينزل عما فاض عن حاجته، فهو كانز يلعنه الله ورسوله، ويلعنه اللاعنون!!

وقال عِلي إنه لا بأس بالغني والتمتع بزينـة الحيـاة التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق، التي أحلهـا الله، لا بأس بهذا كله..لا بأس بالغنى لمن اتقى..ومن حرم ما أحـل الله فهو آثم، كمن أحل ما حرمه الله!!ولكن هذا المال يجـب لكي يكون حلالاً:أن يتوفر له أول الأمر أن يكسبه صـاحبه بعمله وبلائه وجهده، لا أن يكون منحة من ولي الأمر لقرابة أو مودة أو نحو ذلك!!

إن القرآن يفسر بعضه الـبعض، وحـين قـال الله تعالى:"والله فضل بعضكم على بعض في الرزق".قـال فـي الوقت نفسه:"وفضل الله المجاهدين علـى القاعـدين أجـرا عظيما *درجات منه ومغفرة ورحمة".وقال:"وأن ليس للإنسان إلا ما سعى*وأن سعيه سوف يـرى*ثـم يجـزاه الجـزاء الأوفي"..

وإذن فحق الملك قائم في أصله على العمل..على ما يكسبه الإنسان بعمله..ومن هنا يحفظه الله تعالى فيحميه مـن السرقة، ويكفل الميراث وينظمه..

ثم إن الإسلام حرم أن يكون المال دولة بين الأغنياء ومن هنا اجتهد عمر وعِلي وأيدهما عثمان، فظلـت الأرض

الشاسعة المفتوحة في أيدي زارعيها على أن يكون خراجها ملكًا للدولة، فيصرف على مصالح الناس، وتوزع منه الأجور:كل وعمله، وكل وحاجته..أما الأرض التي كان يملكها الملوك والأمراء وأغنياء البلاد المفتوحة ورحلوا عنها فأصبحت بلا مالك، فقد ضمها عمر إلى بيت المال، فلماذا يعدل عثمان عن هذه القاعدة في البلاد التي فتحها؟!

لماذا جعل هذا النوع من الأراضي قطائع أقطعها لبعض المسلمين، وفرض عليهم خراجا معلوما، بدلاً من أن يضمها لبيت المال؟!أقاده اجتهاده الخاص إلى أن هذا الأسلوب في توزيع الأرض أنفع للأمة.

***

رأي عِلي أنه لا يحق لأحد أن يكون له ملك خاص، إلا إذا اكتفي كل فرد من الذين يعيشون في دار الإسلام تحت سلطان الخلافة من مسلمين وذميين..إلا إذا بلغ كل أمرئ حد الكفاية..

واكتفاء كل فرد في الدولة يتحقق بألا تكون له حاجة:فلديه المسكن المريح، والملبس المناسب، والطعام الجيد، ولديه ما يركبه من خيل أو بغال أو حمير أو إبل أو

نحو ذلك، ولديه ما يسد حاجة أولاده، ويكفل لهم العيش الكريم والصحة الموفورة، ولديه ما يؤمن به أهله وعياله عاما كاملاً، على ألا يكون مدينًا!..

حينئذ وحينئذ فقط، يحق للإنسان أن يملك ما يشاء، ولكنه إن ملك أمين على ملكه، فليس له أن يسئ استعماله، أو أن يحبس ماله أو يكنزه، بل يجب عليه أن يستثمره فيما يفيد الأمة، ثم إنه مطالب بأن ينفق ما زاد عن حاجته في سبيل الله، فهو ليس مطالبا بالزكاة فحسب، بل عليه أن ينفق لعمارة الأرض، ونشر العلم، وحماية الصحة العامة، وهو منهي عن البخل..قال تعالى:"ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به القيامة".كما قال تعالى:"وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة".

وعثمان نفسه صنع هذا، فسقى المسلمين بماله حتى اشترى البئر الأساسية في المدينة، وأطعم الجائعين حين نزل عن تجارة كبيرة له ووزع ما حملته القافلة على الناس في زمن العجاف، وفي الأيام الشداد، ووسع الحرم النبوي من

ماله ليسع المصلين، وأعتق كثيرا من الرقاب.بل إنه جهز جيشًا بأسره بكل ما يحتاجه الجيش من عتاد وميرة وذخيرة.. وكذلك فعل عبد الرحمن بن عوف..وكلاهما نزل

عن نصف ماله أكثر من مرة ليعين الدولة الجديدة!

وكذلك كان يفعل طلحة وسائر أغنياء الصحابة

رضي الله عنهم..

وإن عليا ليذكر عثمان بأيام عمر وبما اتفقوا عليه جميعا بأن يعيد عمر توزيع الثروة، حين راعهم انتشار الفقر على الرغم من تكدس ثروات بعض الناس!!ما نسي أحد بعد من الصحابة اقتناع عمر وعثمان بقول عِلي:إنه ما من أحد

يخزن فوق حاجته إلا حرم آخرين من ذوي الحاجة!

وإن عِليا ليذكر عثمان بعهد عمر:"والله لئن بقيت إلى الحول لألحق أسفل الناس بأعلامهم"."لو استقبلت من أمري

ما استدبرت لأخذت فضول الأغنياء فردتها على الفقراء".

كان هؤلاء الثلاثة ومن قبلهم أبو بكر رضي الله عنهم ينصحون أغنياء المسلمين بالآنفاق في سبيل الله، ويشرحون لهم قول الله تعالى:"واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه كانوا مجرمين".

فالترف ظلم، وسفه، والمترفون إذا لم يبذلوا ما فاض عن حاجتهم لتوجهه الدولة للمصلحة العامة، كانوا بحكم القرآن قوما مجرمين!..ولوِلِي الأمر أن يأخذ من الأغنياء أموالاً فوق الزكاة إن اقتضت ذلك مصلحة الأمة..

ولقد سن الرسول ❐ لمن يلي أمور المسلمين من بعده أن يعيد توزيع الثروة إذا اضطربت الأمور...فقد وجد الأنصار أغنياء أو لديهم ما يكفىهم ووجد المهاجرين فقراء تركوا أموالهم في مكة، فقسم للمهاجرين وحدهم في بني النضير، وأعطى معهم رجلين فقيرين من الأنصار!ورأي على أن البدء بتوزيع العطاء على ذوي الحاجة أقرب الحاجة أقرب للتقوى، وأوفي للعدل!!

لكم تحدث عِلي بكل هذا إلى عثمان!

وعلم الناس بما قاله عِلي فقال أحدهم:"عِلي أفضل عندي من أبي بكر وعمر".

وقال آخر:"لا بأس عندي بمن يقول هذا فهذا قول أحبه وأشتهيه إذا لم ينس قائله فضل الشيخين أبي بكر وعمر، وأثنى عليهما بما هما أهله".

وبلغ ذلك علِيا فقال:"خير الناس بعد رسول الله ❐ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.وقد كان عمر يضرب بالدرة من يفضل عليه أبا بكر".

وما كان عِلي ليفضل نفسه، وقد نهي الناس عن المفاخرة والغرور، ودعاهم إلى تدبر أمورهم، والعمل على جمع الشمل الذي أوشك عمال عثمان أن يمزقوه، وإذن فستأتي فتن كسواد الليل!!

كان عِلي ينصح الناس أن يصبروا على عثمان، فهو قانت تقي ورع، ولكنه لين العريكة لبني أمية، ووزيره مروان بن الحكم مستشار سوء حقًا!

ومازال عِلي يعظ الناس أن يأتوا عثمان فينصحوا له في رفق كما تعلموا من الرسول ❐ :الدين النصيحة الله ورسوله وأولي الأمر ولعامة المسلمين وخاصتهم..

أخذ عِلي نفسه بالصبر على عثمان، وعلى كيد مروان وغيره له عند عثمان!!..

ولقد جاء بعض الصحابة إلى عثمان ينصحونه أن يغير عماله الجبارين المتكبرين المتكالبين على الدنيا، وأن يولي غيرهم ولاة من أتقيا الصحابة..فهمس له مروان بن

الحكم أن هؤلاء الناصحين إنما يطمعون في حلمه، ويريدون أن يستبدوا هم بالأمر دونه!

وقال له عن عِلي : "لو شاء ما كلمك أحد.. هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسلفه وابن عمه وابن عمته، فما ظنك بما غاب عنك؟!" وقال عِلي عن بطانة عثمان: "اتخذ بطانة أهل غش، ليس منهم أحد إلا تسبب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها"..

وحاولت نائلة امرأة عثمان -وكانت ذات رأي وحكمة- أن تستخلص زوجها الخليفة من مشورة السوء، ولكنه زجرها، واشتد عِلي الناس قائلاً: "وأي شيء لى من الأمر إذا كنت كلما كرهتم أميرا عزلته، وكلما رضيتم عن أمير وليته؟".

ومضى إليه عِلي فناشده الله أن يقضي عنه مروان بن الحكم فهو يحمل راية ضلالة!!

وناشده الله ألا يستجيب لمستشارى السوء جميعا!!!

فليستفت ضميره يفته بالحق، فهو ضمير إمام قانت ورع من أهل التقوى، وهو بعد صاحب رسول الله ❐ في الجنة.

وقال عِلي له:"إن الحق ثقيل مرئ (لذيذ)، والباطل خفيف وبئ (من الوباء) وإنك متي تصدق تسخط، ومتي تكذب ترض!!".

ثم ناشده أن يسترد الضياع التي أقطعها، فما يحق لأصحابها أن يمتلكوها وفي الأمة من لا يجد المسكن الصالح، ولا الطعام الجيد أو الكساء المناسب، أو ظهرا يركبه!!

لهم ورد عثمان بأن الخير عميم,أن الناس جميعا يستمتعون بالمال، حتى الأطفال عندما يولدون يوضع رزق حسن من بيت المال، فلم التضييق على الناس، وقهرهم على الزهد، وحرمانهم من الطيبات والمتاع الحلال؟!

وعاد عِلي يلح على الحليفة عثمان ألا ينظر في أهل المدينة وحدهم، بل في أمر كل الذين يعيشون على أرض الإسلام من أفريقية إلى مداخل أوروبا إلى أواسط آسيا، من مسلمين وأهل الذمة..أبلغوا كلهم حد الكفاية؟..أليس فيهم صاحب حاجة؟

وذكره عِلي بالآية الكريمة من سورة التوبة:"والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم

بعذاب أليم*يوم يحمي عليها في ناء جهنم فتكوي جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم

تكنزون". وما زال عِلِي يذكر عثمان رضي الله عنهما باليوم الذي نزلت فيه هذه الآية.. يوم ذاك قال رسول الله ﷺ :"تبا للذهب!تبا للفضة"، قالها ثلاثًا فقالوا له:"أي مال نتخذ يا

رسول الله؟"قال:"لسانًا ذاكرا، وقلبا خاشعا، وزوجة تعين أحدكم على دينه"..

وذكره بقول الرسول ﷺ :"من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها"..وكان يعني من كنز وترك مالاً، وفي الأمة أصحاب حاجة مسلمين كانوا أم ذميين، فالذميون هم في ذمة الله ورسوله.

ولكن عثمان فهم الآية الكريمة على أنها تنذر ما نعىالزكاة، وفي الحديث الشريف:إن من أدى زكاته فليس بكانز والله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالاً من حيث أذن له، ويؤدي عنه ما أوجب عليه فيه، ثم يعاقبه!..

فمن رأي عثمان أن الإعراض عن اقتناء المال أفضل، وأدخل في الورع، هذا حق، ولكن الاقتناء مباح لا يذم صاحبه!

ورد عِلِي بأن الله تحدث عن الزكاة بقوله:"وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم"فالحق المعلوم هو الزكاة..ولكنه قال مرة أخرى"وفي أموالهم حق" فهو الآنفَاق!!

ثم إن الاقتناء مباح وهو غير مذموم إن لم تكن هناك حاجات تسد، أما إن كانت هناك حاجة لأحد، فما يحق لمسلم أن يقتني فوق حاجته.

وأضاف عِلي أنه حتى وإن لم يكن في الأمة أصحاب حاجة، وكان كل أفرادها من مسلمين وذميين قد بلغوا حد الكفاية، فما يحق لأحد من المسلمين أن يكنز فوق حاجة عام أو فوق أربعة آلاف دينار ذهبا، بل عليه أن يبذل الباقي للمصلحة العامة، يسلمه لبيت المال، ليحقق به ولي الأمر حد الرفاهية للجميع.

فلا يعاني أحد من شيء يرهقه، أو نقص في معاشه، ولايبقي في الأمة مدين.

ولا يتحسر أو يحبط أو يصاب بالخيبة شاب يريد الزواج فيعجز عن النهر، أو عن إنشاء بيت الزوجية وتأثيثه، إلى غير ذلك من احتياجات المسلمين وأهل الذمة على السواء.فإذا تحقق هذا للأمة، وهو ما تقتضيه التقوى، فليملك من شاء ما شاء!!

"وما أنذر الله تعالى الكانزين بأن ما كنزوه يحمي عليه في نار جهنم، فتكون بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، إلا لأن الله إنما يخص من جسم الإنسان ما يبتغون به الجاه الدنيوي:من وجاهة بين الناس، وعلو في الأرض واستعلاء على العباد، فيلقى الناس وجوههم بالإكراه، ويصعرون خدودهم مما يمنحهم الغنى من تكبر، وينفخون جنوبهم من الزهو والخيلاء ويلبسون الثياب الناعمة يطرحونها على ظهورهم، ثم إنهم بعد ذلك إذا أبصروا الفقير عبسوا في وجهه بوجوههم، ومالوا عنه بجنوبهم، وولوه ظهورهم، فحق على هذه الأعضاء جميعا أن تكون بما كانوا يكنزون!!".

***

أرسل عثمان أبا ذر إلى الشام يعمل بها، ووجه عمارا إلى مصر، وغيره من كبار الصحابة إلى الأمصار

ليحققوا فيما يصنعه عماله، فأقام أبو ذر فترة في الشام، ثـم عاد إلى الحج، واستأذن الخليفة أن يبقي في المدينـة قلـيلاً بجوار الرسول .

فراعه أن الخليفة يغدق كل يوم جديد رزقًـا جديـدا على بعض صحبه وذوي قرباه!

وإذ رأى أبو ذر الأموال تتكدس عند هذا الرهط من بني أمية وأصدقائهم، فلا ينفقونها فيما أمرهم الله، ولا يؤدون إلا الزكاة المفروضة..إذ رأي أبو ذر كل ذلك، أنكر أن يوجه مال المسلمين كافة ليكون دولة بين الأغنياء من أقرباء عثمان وأصدقائه!!

فجعل أبو ذر يقول:"بشر الكافرين بعذاب أليم"ويتلـو الآية الكريمة: (والذين يكنزون الذهب والفضـة..) فـأبلغ مروان بن الحكم أبي ذر إلى عثمان فأرسـل إليـه الخليفـة وزيره مروان فقال له في خشونة:"يا أبا ذر يقول لك أميـر المؤمنين:انته عما يبلغني عنك"فقال أبو ذر:"أينهاني عثمـان عن قراءة كتاب الله؟!فوالله لأن أرضى الله بسـخط عثمـان أحب إلى من أن أسخط الله برضاه".

ونقل مروان كلام أبي ذر إلى عثمان على نحو أغضبه، وصور له أبا ذر متحديا سلطانه!!ولكن عثمان صبر على أبي ذر!!

وجاء أبو ذر يوما إلى عثمان، وعنده جماعة من المسلمين فيهم كعب الأحبار، وهو حديث العهد بالإسلام.فسألهم عثمان إن كان يجوز للخليفة أن يقترض من المال العام، فإذا أيسر قضى الدين؟..

وقبل أن يجيب أحد قال كعب الأحبار:"لا بأس بذلك"فقال أبو ذر:"يا ابن اليهودين أتعلمنا ديننا؟!"فاحتج عليه مروان، فأغلظ له أبو ذر، فغضب عثمان وقال لأبي ذر:"ما أكثر ذلك!وما أولعك بأصحابي!الحق بمكتبك بالشام".

وعاد أبو ذر إلى الشام وقد علم أنه في هذه المرة سيقيم فيه طويلاً، فالخليفة لن يسمح له بالعودة إلى المدينة قبل سنين!

ما كان أبو ذر قى زيارته الأولى للحج قد درس أحواله كما ينبغي، فقد كان في عجلة من أمره ليذهب للحج، ثم يعود إلى المدينة المنورة ليجاور رسول الله.

ولكنه هذه المرة لم يكد يستقر في دمشق، حتى بدأ ينكر على معاوية وصحبه ما يفعلون!..

قال أبو ذر:"لقد حدثت أعمالاً لا أعرفها، واالله ما هي في كتاب االله، ولا سنة نبيه، واالله إني لأرى حقًا يطفأ، وباطلاً يحيا، وصادقًا مكذبا، وأثرة بغير تقى"!

وأراد معاوية أن يتلطف ويتقرب إليه:فدعاه إلى قصره، وهو قصر ضخم هائل، بناه معاوية في دمشق، لينافس به قصور أباطرة الرومان، وأسماه الخضراء.

فقال له أبو ذر:"يا معاوية، إن كانت هذه الأبهة من مال االله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهي الإسراف".

فسكت معاوية على مضض! وبعد لحظات صمت سأله أبو ذر:"يا معاوية!ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال االله؟"..وكان معاويةوسائر عمال عثمان من بني أمية يرون أنهم يتصرفون في المال بموجب حق إلهي بما أن المال مال االله، وهم خلفاؤه على هذا المال!!

فلما سمع معاوية سؤال أبي ذر قال:"يرحمك الله يا أبا ذر ألا إن كل شيء الله ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره؟!".

قال أبو ذر:"كأنك تريد أن تحجب هذا المال دون المسلمين!فلا تقل هذا!".

فقال معاوية:"لا أقول إنه ليس الله، ولكني سأقول مال المسلمين".

ثم مضى أبو ذر في ربوع الشام يتأمل مظاهر الغني الباذخ، والفقر المدقع في آن واحد!

فجعل يفتي في كل مكان برأي أبي طالب، أنه لا يحق لأحد أن يملك ضياعا، أو يكنز مالاً وفي الأمة فقراء وجياع..وأخذ يردد الحديث الشريف:"ما آمن باالله ورسوله من بات شبعان وجاره طاو وهو يعلم".

ثم مضى في كل مكان يهتف بالناس:"يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم".

وتبعه الفقراء، وجعلوا يطالبون الأغنياء بما يطالب به أبو ذر!

وقال لهم أبو ذر:"إن المسلم لا ينبغي أن يكون له أكثر من قوت يومه وليلته، إلا شيء ينفقه في سبيل الله، أو يعده لأداء دين".

ومشى في الأسواق يوما، فوجد فيها الغنى الفاحش إلى جوار الفقر المدقع، والتخمة المفرطة إلى جوار الجوع القارص، فصاح في الناس:"عجبت لمن لا يجد قوت يومه لماذا لا يخرج على الأغنياء شاهرا سيفه"!!.

وأسرع البصاصون والعيون والعسس إلى معاوية فأخبروه بما كان من أمر أبي ذر، وتحريضه الفقراء ليثبوا على الأغنياء.

وكان معاوية قد اصطنع لنفسه جهازا للتجسس كالذي عند الرومان قبل الفتح، بل أنه أبقي الجهاز نفسه بأفراده، وأقام على رئاسته عددا من ذوي قرباه وحاشيته!

فنصحوا معاوية قائلين:"إن أبا ذر مفسد عليك الشام، فتدارك أهله إن كانت لك بهم بحاجة".

كما شكاه الأغنياء..

أراد معاوية أن يشوه أبا ذر في عيون المعجبين به، فيفقد تأثيره على الفقراء!

فأرسل معاوية إليه بألف دينار في جنح الليل.

ولم ينم أبو ذر ليلته حتى أنفقها جميعها على الفقراء!

فلما صلى معاوية الصبح، دعا رسوله الذي كان قد أرسله ليلة البارحة، وقال له:"اذهب إلى أبي ذر، فقل له أنقذ جسدى من عذاب معاوية، فإنه أرسلني إلى غيرك، وإني أخطأت بك".

ثلاثة فلما جاءه معاوية، رد عليه أبو ذر:"يا بني، قل له:والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار!ولكن أخرنا أيام حتى نجمعها".

ولم يجد معاوية له حيلة مع أبي ذر، ورأى الفقراء قد ولعوا به، فصدقوه، وخرجوا يفرضون على الأغنياء حقوقًا في أموالهم أكثر من الزكاة، محتجين على الأغنياء بما سمعوه من أبي ذر عن عِلي بن أبي طالب من أن الله فرض الزكاة بنصابها المعلوم على الأغنياء بقوله:"وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم".، وفرض حقًا مطلقًا للفقراء في أموال الأغنياء بقوله:"وفي أموالهم حق للسائل

والمحروم".فهو حق مطلق، وهو غير الزكاة المفروضة!وأخذوا يرددون ما نادى به أبو ذر:أن في المال حقا آخر غير الزكاة.

وأوشك الأمر أن يفلت من يد معاوية، فبعث إلى الخليفة يشكو أبا ذر، واتهمه أنه يحرض الفقراء ليوجبوا على الأغنياء ما لم يوجبه الله عليهم!!

فأرسل عثمان إلى معاوية يأمره بأن يبعث إليه أبا ذر.

فلما دخل عليه قال عثمان:"يا أبا ذر.ما لأهل الشام يشكون منك!قال:"لا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالاً!ولا ينبغي أن يقال مال الله، إنما هو مال الناس"!

فقال عثمان:"يا أبا ذر، عِلي أن أقضي ما عِلي، ,وآخذ ما على الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد".

فقال أبو ذر:"لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف..وقد ينبغي للمؤدى الزكاة ألا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات".

وكان كعب الأحبار عند عثمان، فقال كعب:"يا أمير المؤمنين من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه".

فقال له أبو ذر:"يا ابن اليهودية، ما أنت وما ها هنا؟!".

ثم ضربه فشجه!

لكأنه أَلِفَ هذه الشدة على كعب الأحبار وهو حبر يهودي حديث العهد بالإسلام!

وإذ رأي عثمان الدم يسيل من رأس كعب، أمر به فعولج، واستوهبه خطأ أبي ذر فوهبه، وقال عثمان:"يا أبا ذر، اتق الله واكفف يدك ولسانك".

ثم خرج أبو ذر من المدينة..

مضى أبو ذر إلى"الربذة"في جوف الصحراء، فبني مسجدا، ووهبه عثمان بعض النياق والأموال، ومملوكًا يقوم بخدمته.

وأرسل معاوية أهل أبي ذر الذين خلفهم في دمشق، فلحقوا به في الربذة، فخرجوا ومعهم جراب ثقيل، فقال معاوية للناس معرضا بأبي ذر، كأنما يرد أن يشوهه ويسقطه في عيونهم.

"انظروا إلى هذا الذي يزهد في الدنيا ما عنده؟!".

فقالت امرأة أبي ذر:"والله ما هو دينار ولا درهم!ولكنه كان إذا خرج عطاؤه ابتاع منه أشياء لحوائجنا".

وغضب عِلي وعدد من المهاجرين لما حل بأبي ذر.

وقالت بطانة الخليفة إن أبا ذر اختار الخروج من المدينة، وقال آخرون بل نفاه الخليفة قهرا إلى الربذة كما نفىغيره ممن أنكروا على بني أمية وعمال عثمان أنهم يكنزون الذهب والفضة، وفي الأمة فقراء!وممن أنكروا بطش هؤلاء العمال!!

أما أبو ذر فقال:"كنت في الشام، فاختلفت أنا ومعاوية في الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله. قال معاوية أنها نزلت في أهل الكتاب. قلت:نزلت فينا وفيهم. فكان بيني وبينه في ذلك خصام. فكتب إلى عثمان رضي الله عنه يشكوني، فكتب إلى عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتها. فكثر عِلي الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك!فذكرت ذلك لعثمان رضي الله عنه، فقال لي:إن شئت تنحيت فكنت قريبا. فذلك الذي أنزلني الربذة . ولو أمروا عِلي عبدا حبشيا لسمعت وأطعت!".

امتثل أبو ذر لأمر الخليفة، فلما سار إلى الربذة، أمر الخليفة الناس ألا يخرجوا لوداعه، ولكن الناس خرجوا، فلم تر المدينة يوما أكثر هلعا وجزعا من يوم خروج أبي ذر منه!..

وأمر عِلي□ بن أبي طالب الناس أن يمتثلوا لأمر الخليفة فلا يخرج أحد منهم ليودع أبا ذر!

ووقف عِلي□ يشيع أبا ذر:" يا أبا ذر إن القوم خافوك عِلي □ دنياهم، وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، وأهرب بما خفته عليهم، فما أحوجهم إلى ما منعتهم، وما أغناك عما منعوك، وستعلم من الرابح غدا، والأكثر حسدا، لقد أرحلت عن الفناء (فناء الحرم النبوي حيث كان يحب أبو ذر أن يجلس ليعظ الناس)، وامتحونك بالبلاء والله لو كانت السماوات والأرض على عبد رتقاً(سدا)ثم اتقىالله عز وجل، لجعل الله له منها مخرجا، فلا يؤنسك إلا الحق، ولا يوحشك إلا الباطل".

وكان مع عِلي□ ولداه الحسن والحسين وأخوه عقيل، وصديقه عمار بن ياسر.

وتحدث الآخرون مودعين، فرد أبو ذر عليهم قائلاً:"عليكم السلام ورحمة الله وبركاته. بأبي وأمي هذه الوجوه، فإنني إذ رأيتكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله على آله وسلم، وما لى بالمدينة شجن ولا سكن غيركم، وإنه ثقل عِلي عثمان جواري بالمدينة كما ثقل على معاوية بالشام، فآلي أن يسيرني إلى بلدة فطلبت إليه أن يكون ذلك إلى الكوفة، فزعم أن يخاف أن أفسد الناس بالكوفة على أميرها أخيه لأمه الوليد بن عقبة، وآلي بالله أن يسيرني إلى بلدة لا أرى فيها أنيسا، ولا أسمع بها حسيسا. وإني والله ما أريد إلا الله صاحبا، وما لي مع الله وحشة، حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين".

ولقد أراد مروان أن يمنع علِيا من توديع أبي ذر، فضرب عِلي كرم الله وجهه بسوطه بين أذني راحلة مروان، فشكا إلى عثمان، فكلم علِيا.وعاتبه لأنه ودع أبا ذر. فرد عِلي عتاب عثمان رضي الله عنه وسأله عما جعله يخرج أبا ذر من المدينة، فقال عثمان إنه يكذب، فرد عِلي بأنه لا يظن

أن أحدا أبا ذر بعد قول رسول الله فيه:"ما أقلت الغبـراء، ولا أظلت الخضراء، رجلاً أصدق لهجة من أبي ذر"..

ثم استعبر عِلي وهو يقول حزيًنًا مشفقًا على أبـي ذر:"لك الله يا أبا ذر!"إنه كما قال عنه الرسول، يعيش وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده!.

فلما مات أبو ذر وحيدا فـي منفـاه، بكـاه عِلـي والصحابة أحر بكاء.ولام عِلي فيه عثمان لوما شديدًا!

وشكا عثمان إلى بعض الصحابة من شدة عِلي معه، فأتوا عليا وفيهم زيد بن ثابت الأنصار وهو مـن أصـدقاء عثمان، ورجل يدعى المغيرة بن الأخنس وهو ابـن عمـة عثمان، فقال زيد بن ثابت الأنصاري لعِلي:"أما بعد فـإن الله قد جعلك من الرسول بالمكان الذي أنت به، فإنت للخير كـل الخير أهل، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان ابن عمك ووالى هذه الأمة، فله عليك حقان:حق الولاية وحق القرابة، وقد شكا إلينا أنك ترد أمره عليه.

وقد مشينا إليك نصيحة لك وكراهية أن يقع بينك وبين ابـن عمك أمر نكرهه لكما".

فقال عِلي: "والله ما أحب الاعتراض ولا الرد عليـه، إلا أن يأبى حقـًا الله لا يسعني أن أقول فيه إلا الحـق. والله لأكفن عنه ما وسعني الكف".

فقال المغيرة بن الأخنس وكان رجلاً وقحا: "إنك والله لتكفن عنه أو لنكفك عنه، فإنه أقدر عليك منك عليه، وإنمـا أرسل إليك هؤلاء القوم من المسلمين لتكون له الحجة عليك عندهم".

فقال عِلي : "أأنت تكفني؟فوالله ما أعز الله أمر ا أنـت ناصره؟اخرج ابعد الله نواك (دارك)، ثم أجهد جهدك، فـلا أبقي الله عليك ولا على أصحابك إن بقيتم"!

لكم يحزن عِلي، ويسوءه ما انتهي إليه ذو النـورين من هذا الاستسلام لذوي قرباه!!

إنه لأوصل الصحابة للرحم..هذه إحدى فضـائله، ولكن أولي الأرحام ركبوا بها رقاب العباد..واأسفـاه على عثمان!!..ولكنك مهما يكن من أمر يجب عليك يا بـن أبـي طالب ألا تتخلى عنه!

إنك وحدك تكاد ترى خيوط مؤامرة يدبرها أعـداء الإسلام، مستغلين في ذلك أخطاء ولاة الأمصار من أقربـاء

عثمان..!..ولكم روى لك عمار بن ياسر منذ عاد من مصر!.. كما روى لك آخرون عادوا من الكوفة والبصرة وجاءوا من البادية ومن خراسان وبلاد ما وراء النهرين..

يجب أن تبذل النصيحة له ويجب أن تنهض بما هو واجب عليك وحق لك، من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر..

واتخذ عِلي مكانه في المسجد حيث تعود أن يعلم الناس، ويفسر لهم القرآن، ويعظهم، ويدعوهم إلى الآخذ بكل ألوان المعرف، وإلى التفكير والتدبر..

فقال:"لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به"..

"إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخلقان من خلق الله سبحانه، وإنما لا يقربان من أجل، ولا ينقصان من رزق".

"انهوا عن المنكر وتناهوا عنه، فإنما أمرتم بالنهي بعد التناهي".

"إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب، لما عموا عاقر الناقة بالرضا".

" لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
فيولي عليكم شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم!".
وسمع عِلي وهو في المسجد أن عبد الرحمن بن
عوف يشتكى وجعا، فذهب يعوده فوجده يبكي بكاء شديدًا
وحوله عدد من الصحابة، وهو يقول:"إن مصعب بن عمير
كان خيرا مني، توفي عِلي عهد رسول الله ولم يكن له
ما يكفن به!وإن حمزة بن عبد المطلب كان خيرا مني لم نجد
له كفنًا!وإني أخشي أن أكون ممن عجلت له طيباته في
حياة
الدنيا. وأخاف أن أحبس عن أصحابي بكثرة مالي!".
وكان عبد الرحمن بن عوف قد كسب مالاً كثيرا في
التجارة، وأصبح يملك الآلات المؤلفة..
فلما رآه عِلي يبكي، أخذ يهون عليه، ويواسيه هو
والصحابة الآخرون!..
فيم الجزع ولم البكاء خشية غضب الله، وقد أنفق
الكثير من المال في سبيل الله، حتى لقد أعتق في يوم واحد
ثلاثين عبدا من حر ماله!؟
وكم من مرة نزل للمسلمين عن نصف ماله؟.

ولقد تصدق لكل مقاتل بقي من أهل بدر بأربعمائة دينار ذهبا، وكان عدتهم يومئذ مائة رجل!..

ما خوفه أن يكون كانزا للمال، وهو الذي أنفق الكثير في سبيل الله ووسع على إخوانه المسلمين!!

لقد كان علي يضرب للناس مثلاً رجلاً غنيا ينفق في سبيل الله بأحد اثنين:عثمان ابن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهما .

***

والمسلمون يقارنون بين ابن عوف وأغنياء بني أمية ممن يكنزون، وبين عمال أبي بكر وعمر وبين هذا العامل أو ذاك من بني أمية، وما يريد الواحد منهم إلا أن يكون جبارا في الأرض!!

فلما اشتد النكير على عثمان لأنه يؤثر رهطه بالعطايا، ويوليهم الولايات، صعد المنبر وأثني عليه ثم قال:"أما بعد، فإن لكل شيء آفة، ولكل نعمة عاهة، وإن آفة هذا الدين وعاهة هذه الملة، قوم عيابون طعانون..أما والله يا معشر المهاجرين والأنصار، لقد عبتم علي أشياء، ونقمتم أمورا، قد أقررتم لابن الخطاب بمثلها، ولكنه قمعكم بلسانه، ووطئكم

برجله، وضربكم ُتلكم، وأوطأتكم كتفي فـاجترأتم بيده!ولِ ِذ

عِلي!ولم يجترىء أحد على أن يملأ بصره من عمر ولا علىأن يشير بطرفه إليه!أما واالله لأنا أكثر مـن ابـن الخطـاب عددا، وأقرب ناصرا!! لقد أخرجتم مني **خلقــًا** لـم أكـن أحسنه، ومنطقًا لم أنطق به!

فكفوا عني ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم!أتفقدون من حقوقكم شيئًا!؟فما لى لا أفعل في الفضل ما أريد؟!فلِمَ كنـت إماما إذن؟!.أما واالله ما أتيت الذي أتيـت إلا وأنــا أعرفـه، وواالله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي ولم يكونـوا يختلفون فيه".

ثم قام مروان بن الحكم فقال:"إن شئتم حكمنـا واالله بيننا وبينكم السيف!".

فقال له عثمان:"اسكت لاسكتَّ . دعني وأصحابي!ما منطقك في هذا؟ألم أتقدم إليك ألا تنطق!؟

فسكت مروان، ونزل عثمان عن المنبر، فاشتد قول الناس وعظم.

وتعاهد عشرة مـن كبـار المهـاجرين أن يكتبـوا بمطالبهم وآرائهم كتابا إلى عثمان، وحمل عمار الكتاب إلــى

عثمان وعنده مروان الذي أصبح لا يفارقه وجماعة من بني أمية.

فلما قرأ عثمان الكتاب، وفيه طلب تغيير عماله من بني أمية، وإعادة ما أقطعهم من أرض وما أعطاهم من عطايا إلى بيت المال، سأل عثمان عمارا عمن كتب معه هذا الكتاب؟

فقال عمار:"نفر تفرقوا فرَقاً منك!".فقال:"ولم اجترأت على من دونهم؟من هم".فقال عمار:"لا أخبرك!".

فقال مروان:"يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (يعني عمارا) قد جرأ عليك الناس.وإنك إن قتلته اعتبر من وراءه".

فأمر عثمان بأن يضرب عمار.

فضربه مروان ومن معه من بني أمية حتى فتقوا بطنه..فغشي عليه، فجروه حتى طرحوه على باب دار عثمان، وكان اليوم باردا، والمطر ينهمر!وبقي عمار مغشيا عليه تحت المطر..

فأمرت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، فأدخل منزلها.

وغضب فيه بنو المغيرة وكان حليفهم، فلما خرج عثمان لصلاة الظهر، قالوا له:"أما والله لئن مات عمار من ضربه هذا لنقتلن به رجلاً عظيما من بني أمية"يعنون عثمان نفسه!!

والتقي عثمان في المسجد بعِلي ، وكان معصوب الرأس يشكو وجعا.قال له عثمان:"والله يا أبا الحسن ما أدري:أأشتهي موتك أم أشتهي حياتك؟!فوالله لئن مت ما أحب أن أبقي بعدك لغيرك، لأني لا أجد منك خلفًا..فأنا منك كالابن العائق من أبيه:إن مات فجعه، وإن عاش عقه، فإما سلم فنسالم، وإما حرب فنحارب!فلا تجعلني بين السماء والأرض، فإنك والله إن قتلتني لا تجد مني خلفًا، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفًا".

فقال عِلي:"إن فيما تكلمت به لجوابا، ولكني مشغول بوجعى.أقول كما قال العبد الصالح يعقو: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون)".

ثم نصحه بأن يقصي مروان، ويعزل عماله، ويحاسبهم، ويسترد ما وهبهم بغير حق من الأموال والاقطاعات، ويعمل على إرضاء المسلمين فإن الفتنة

أوشكت أن تطل بقرونها وأعداء الإسلام والدولة الفتية الجديدة يتربصون!!..

ثم قام رجل من الأنصار يسأل:""ما بال هؤلاء النفر من أهل المدينة يأخذون العطايا ولا يغزون في سبيل الله؟!إنما هذا المال لمن غزا فيه، وقاتل عليه، إلا من كان من الشيوخ من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام".

فقال عثمان:"أستغفر الله وأتوب إليه.أيها الناس، يا أهل المدينة من كان له زرع فليلحق بزرعه، ، ومن كان له ضرع فليلحق بضرعه!فإنا والله نعطى مال الله إلا لمن غزا في سبيله إلا من كان من شيوخ الصحابة".

فسأله رجل من المهاجرين:"فما بال هذا القاعد الشارب لا تقيم عليه الحد؟!"..كان يعني الوليد بن عقبة أمير الكوفة، فقد كان سكيرا، وقد صلى الصبح بالناس أربع ركعات وهو سكران، فلما نبهوه عربد عليهم بقوله:"إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم!".

فأمر عثمان به فأقيم عليه الحد، وجلد ثمانين جلدة، أخذًا باجتهاد عِلي .

فلما عولج من جراحاته، وخرج إلى النـاس، جهـر بنقد عثمان وعاب عليه أنه خص بني عمه وذوي قرباه مـن بني أمية بالإمارة على الولايات، دون الصحابة، وأنه تـرك الشورى، ما يستشير أهل التقوى، ولا يستعملهم على أمر من أمور المسلمين، بل جعل ذلك كلـه لبنـي أميـة وحـدهم، واستغني برأيه عن الشورى!ثم إنه يدر الأرزاق والضـياع والأعطيات على أقوام بالمدينة ليسوا من الصحابة ولا مـن السابقين إلى الإسلام، أو أهل البلاء فيه، ولا هـم مـن ذوي الحاجة، وفيهم الغلمان والأحداث، وكلهم من بني أمية!ثم إنه ترك مروان يبني القصور من مال المسلمين، ويغترف مـن بيت المال!!

واجتمع الناس حول عمار مؤيدين.

فأشار مروان على عثمان أن ينفي عمارا، فـدعاه، وهدده إن تكلم بشيء من هذا بعد أن يخرجه من المدينة، كما خرج أبو ذر!

فشكا عمار إلى عِلي فـذهب إلـى عثمـان فقـال له:"ياعثمان!اتق الله فإنك سيرت رجلاً صالحا من المسلمين، فهلك في تسييرك، ثم أنت الآن تريد أن تنفي نظيره".

فقال عثمان رضي الله عنه، وكان مروان ما انفك يوغر صدره علَى عِلِيِ كرم الله وجه:"أنت أحق بالنفي منه!"فقال عِلي :"رم ذلك إن شئت!".

فعرف شيوخ المهاجرين والأنصار بما كان، فذهبوا إلى عثمان فقالوا:"إن كنت كلما كلمك رجل سيرته ونفيته، فإن هذا شيء لا يسوغ، فكف عن عمار".

***

واشتد غضب الناس في الأمصار على الولاة، فجاءت وفود من مصر والكوفة والبصرة..

جاءوا جميعا في السلاح، واحتلوا ظاهر المدينة! جاءوا يشكون في أمرائهم أقارب عثمان ويطالبونه بعزلهم!

وتوجس عِلي خيفة مما يراه..لئن حرك السخط الناس إن أعداء الإسلام سيندسون ليشعلوا الفتنة..ومن يدري؟! إن الذين تآمروا علىعمر فقتلوه لم يعرفهم أحد قط!!

وأتي عثمان علِيا في داره يستنجد به ويستغيثه، ويطالبه أن يرد وفود الأمصار وهم من أهل التقوى، وطلاب العدل، والمساكين، ووجهاء البلاد وفقرائها.

وكان عثمان يعرف مكانة عِلي في قلوبهم، وتعلق المظلومين والمساكين به.ويعرف أنه كما وصفه الرسول:إمام المتقين والمساكين والزاهدين.

فقال عِلي :"يا أمير المؤمنين على أي شيء أردهم؟".

قال عثمان:"على أن أصير إلى ما تراه لي وتشير على به".

فركب إليهم عِلي ومعه بعض الصحابة، وكلمهم في الرجوع إلى بلادهم ووعدهم أن يروا من الخليفة ما يرضي الله ورسوله والمتقين.وأنه سيعزل الولاة الظلمة، ويقصى مروان مستشار السوء، ووعدهم أن ينعموا بعدل عثمان وتقواه وقنوته!

وأسرع عِلي يبشر عثمان بأن وفود الأمصار وعدوا بالرجوع إلى أمصارهم بشرط أن يغير الأمراء المستبدين، ويقصي مروان، ويشرف بنفسه على إقامة العدل بين الناس.

فسر عثمان، وتعهد بأنه سيفعل كل ما يشير به عِلي .

النـزوع فقال عِلي:"يا أمير المؤمنين تكلم كلاما يسمعه الناس منك، ويشهدون عليك، ويشهد على ما في قلبك من الإنابة، فإن البلاد قد تمخضت عليك".

فقال:"يا عِلي ، إن أفعل أكـن قـد قطعـت رحمـك واستخففت بحقك".

فذهب عثمان إلى المسجد الجامع واعتلـى المنبـر وقال:"أيها الناس، أنا أول من اتعظ، أستغفر الله ممـا فعلـت وأتوب إليه، فمثلى نزع وتاب، فإذا نزلت فليأتيني أشـرافكم فليروا رأيهم، فوالله لئن ردني الحق عبدا لأستن بسنة العبد، ولأذلن ذل العبد، وما عن الله مذهب إلا إليه، فوالله لأعطينكم الرضا، ولأنحين مروان وذويه، ولا أحتجب عنكم".

فهاجت الأشجان، وخفقت القلـوب بأشـواق العـدل والتراحم والأخوة، وبكل ما يعلقون من آمال على هذا الشيخ الجليل، القانت، الورع، الذي يسمي فـي المـلأ الأعلـى ذا النورين!

ورق عِلي، ورق الناس، فبكوا جميعا..وبكى الشـيخ حتى اخضلت لحيته!

ولكنه عاد إلى منزله، فوجد فيه مروان بن الحكـم، وسعيد بن العاص، ونفرا من بني أمية، فقال مروان:"يا أمير المؤمنين أتكلم أم أسكت؟"فقالت امرأة عثمان نائلـة بنـت الفرافصة(وهي من أسرة نصرانية كبيرة في الشام دخلت في

الإسلام حديثا):"بل اسكت يا مروان!إنهم أثموه، فقال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها".

وكانت في الحق قد فرحت بما انتهت إليه خطة عِلي من تصالح بين أمير المؤمنين ووفود الأمصار..

فقال لها مروان:"ما أنت وذاك؟فوالله لقد مات أبوك وما يحسن يتوضأ".

فقالت:"مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء.إنك لتكذب عِلي أبي، ولكن والله لولا أن أباك عم أمير المؤمنين، وأنه يناله غمه، لأخبرتك عنه بما لم أكذب فيه".وكانت تعرف أن رسول الله قد طرد الحكم أبا مروان من المدينة ولعنه، فأعرض عنها مروان وقال:"يا أمير المؤمنين أتكلم أم أسكت؟". قال:"تكلم".

قال: "بأبي وأمي يا أمير المؤمنين!والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع، فكنت أول من رضي بها، وأعان عليها، ولكنك قلت ما قلت حين بلغ السيل الزبى.والله لإقامة على خطيئة يستغفر منها، أحسن من توبة تخوف عليها، وإن شئت تقر بالتوبة، ولا تقر بالخطيئة وقد اجتمع

بالباب أمثال الجبال من الناس فأخرج إليهم".فقال عثمان:"فاخرج إليهم وكلمهم، فإني أستحى أن أكلمهم!".

فخرج مروان إلى الباب، والناس يركب بعضهم بعضا، وهم في فرح مما وعدهم به أمير المؤمنين أن يرضيهم وأن ينحى عنه مروان، ولا يحتجب عنهم.

يالعثمان القانت التقي ذي النورين من مروان وعصبته، وكيدهم وطموحهم وأطماعهم!!

قال مروان للناس:"ما شأنكم به؟قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب!شاهت الوجوه إلا من أريد.ارجعوا إلى منازلكم، فإن يكن لأمير المؤمنين حاجة بأحد منكم يرسل إليه، وإلا قر في بيته، أم أنكم جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا؟!اخرجوا عنا.

واالله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم، ولا تحمدوا غب رأيكم.ارجعوا إلى منازلكم فإنا واالله ما نحن بمغلوبين عِلي ما في أيدينا"!

فرجع الناس..مذهولين من الصدمة، مجانين من الغيظ..

وذهبوا إلى عِلي فأخبروه بما قاله مروان!

فســـأل عِلــي بعــض الثقــات مــن المهـــاجرين والأنصار..سألهم واحدا بعد واحد عن مقالـة مـروان بعـد خطبة عثمان!.

فلم يختلفوا على ما قاله مروان، وجعلوا يقولون:"قبح الله مروان!خرج عثمان إلى الناس فأعطاهم الرضا، وبكـى على المنبر وبكى الناس حتى نظرنا إلى لحية عثمان مخضلة من الدموع.ووعدنا ألا يحتجب منا وأن يعطينا الرضا، فلمـا عاد إلى بيته لم يزل مروان به حتى فتله عن رأيـه وأزالـه عما كان يريد!".

فوقف عِلي مغضبا حائرا يقول للناس:"أي عباد الله.يا للمســلمين!إنـــي إن قعــدت فـــي بيتـــي قـــال لـــى أميـــر المؤمنين:تركتني وقرابتي وحقى، وإني إن تكلمت فجاء مـا يريد، يلعب به مروان، فصار سيقة له يسوقه حيث يشاء بعد كبر السن، وصحبة رسول الله!".

ومكث عثمان في داره ثلاثة أيام ما خرج اســتحياء من الناس.

مضى إليه عِلي، فقال له:"أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك، ويخدعك عن عقلك، مثل

جمل اللعينة يقاد حيث يشاء ربه، ويسار به!!واالله ما مروان بذى رأي في دينه ولا في نفسه!وأيم االله إني لأراه وردك ثم لا يصدرك! وما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك:أذهبت شرفك وغُلبت على أمرك ورأيك!".

وخرج محزونـًا يكاد يبكي أسفـًا عِلي عثمان، وما جره إليه مروان!!

فلما خرج من عند عثمان دخلت عليه امرأته نائلة فقالت:"قد سمعت قول عِلي لك..وليس يعاودك!وقد أطعت مروان حيث شاء".

قال:"فما أصنع؟".قالت:"تتقي االله، وتتبع سنة صاحبيك، فإنك متي أطعت مروان فتلك...ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة، وإنما تركه الناس لمكانه منك، فأرسل إلى عِلي فاستصلحه، فإن له قرابة، وهو لا يعصي".

فأرسل عثمان إلى عِلي فقال لرسول عثمان:"قد أعلمته أني غير عائد".

فلما بلغ مروان قول نائلة فيه قال لها:"يا ابنة الفرافصة!"فقال عثمان:"لا تسؤها بحرف فأسوى وجهك!فهي تاالله أنصح لي منك".

فانصرف مروان، وذهب عثمان إلى منزل عِلي يسأله النصح!

فقال عِلي:"أبعد ما تكلمت على منبر رسول االله ، وأعطيت من نفسك، ثم دخلت بيتك، يخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك ويؤذيهم!؟واالله ما أنا عائد إليك".

فقال عثمان:"قطعت رحمي، خذلتني وجرأت الناس عَلَى !".

قال عِلي:"واالله إني لأذب عنك، بل أنا لأكثر الناس ذبا عنك، ولكني كلما جئت بشيء أظنه لك رضا، جاء مروان بأخرى، فسمعت قوله وتركت قولي واستدخلت مروان".

واضطرم السخط على عثمان رضي االله عنه..

وأخذ مروان ورهط بني أمية وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت يجادلون الناس عن عثمان.

أهل فقالوا إن علِيا يعيب على عثمان أنه ترك أهل التقوى من الصحابة وولى أقاربه، وعمر صنع هذا، فولى الذكاء لا أهل التقوى فالدولات لا تقوم على التقوى والورع، بل على الدهاء وحسن السياسة!..

ورد عليهم الناس بأن عمر كان يقمع الولاة ولا يسلطهم على الرقاب..وأن من عزلهم عثمان من الصحابة هم أهل تقوى ومقدرة، وهم قدوة!

وأن عمر كان يقول لعماله على الأمصار:"لست أدع أحدكم يظلم أحد أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر، حتى يذعن بالحق، وإني بعد شدتي تلك لأضع خدي على الأرض لأهل العفاف".ولهذا عابه عماله.!

أما عثمان فقد استخف به عماله، ولم يرعوا له وقارا، وكلهم من ذوي قرباه، فظلموا الرعية، وظلموا عثمان، واستفزوا السخط على الخليفة المظلوم، وجعلوا لأعداء الإسلام سبيلا

عِلي أمير المؤمنين!

قال بنو أمية أن علِيا وأصحابه يعيبون عليهم الترف، وما من شيء في الإسلام يلزمهم الزهد الذي ينتهجه عِلي،

والذي انتهجه عمر، والذي ينادي به أبو ذر سليمان وعمار وابن مسعود، فقد تغير الزمان.وحسبهم أن الخليفة نفسه زاهد، يأكل الطعام الخشن، وإن أطعمنا خير الطعام!

والذين يدعون إلى الزهد والمال موفور إنما ينسون قوله تعالى(ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحفيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات) وقوله تعالى: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة).

أما الغضب لأبي ذر، واتهام عثمان بأنه هو المسئول عن موته، فقد قال أبو ذر نفسه:"والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ذلك ورأيت ذلك خيرا لي، ولو أنه سيرني ما بين الأفق إلى الأفق، أو لو أنه ردني إلى منزلي، لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذلك خيرا لي"..

ورد عليهم معارضوهم بقولهم أنه لا حق لأحد في أن يملك ملكًا أو يعيش مترفًا مستمتعا، إذا كان في الأمة من يعانون من الحاجة مسلمين كانوا أم ذميين، وحينئذ يجب

على من يملك أن يبذل ماله لإصلاح حال الناس..وهو آنفاق واجب في سبيل الله!

وقال بنو أمية إنه لا حق لعلي فيما يعيبه هو وصحبه على عثمان من قطعة عطاء ابن مسعود من بيت المال، لأنه رأى في توزيع المال رأي علي ..إن لوم الخليفة على هذا لا حق لهم فيه، ذاك أن الخليفة قد ندم على فعلته، بل لقد ذهب يعود ابن مسعود وهو مريض، واستشفع عنده أمراته ليعفو عنه، فلما مات بكاه عثمان وقال:"دفنتم والله خير من بقي من صحابة رسول الله".

ثم إن ابن مسعود نفسه عفا عن عثمان، حتى أنه طرد بعض أهل العراق من مجلسه، لما جاءوه يحدثونه عن الثورة على عثمان فذكروا القتل، وقال لهم:"أما إنكم إن قتلتموه، لن تصيبوا مثله!".

أما عن إيثار عثمان لمروان بن الحكم، بعد أن لعنه الرسول وهو في صلب أبيه، فإن عثمان كان قد تشفع للحكم عند رسول ❐ ووعده بالعفو عنه، وعلى أية حال، فقد زالت أسباب الغضب عليه، فأعاد عثمان ابنه مروان إلى المدينة!..

وسخر الناس من هذا الكلام!!

وزاد بنو أمية قولهم أن عثمان ما ضرب عمار بن ياسر وهو من خير الصحابة، إلا لأنه خالفه في الرأي، وأوشك أن يفتن الناس!!

فما أراد به الأذى بل ضربه ضرب التأديب، غير أن الضاربين اشتدوا وبالغوا حتى فتقوا بطنه فلا تثريب على الخليفة نفسه!

وعمار على الرغم من ذلك قد عفا عن عثمان، كما عفا من قبل أبو ذر، حتى أن الرجلين كليهما، عنفا كل من كان يكلمهم في الثورة على عثمان!

واستمرت المدينة تتجادل حول عثمان، وعثمان لا يكاد يرى إلا خائفًا..

وعِلي مازال معتزل الناس أسفًا، ولا يشترك فيما يدور من جدال حول عثمان!

ومر يومان، اضطرمت فيهما المدينة بالصخب والخلاف.

فرأى عثمان أن يدعو إليه زعماء الأمصار الساخطين على أمرائهم، وهؤلاء الأمراء، وأرسل إلى عِلي ، فقال عِلي للرسول أنه لن يعود فيرى عثمان، حتى يقصي

عنه مروان، فقد غلبه على حكمته ورأيه، فأصبح الناس طرا لا يأمنون أن يعدهم الخليفة موعدة فيها رضاهم، حتى يأتي ابن الحكم، فيوسوس في صدره، ويظل به حتى يحمله على تغيير رأيه، ثم يرد عنه محبيه وعارفي فضله، وأصحاب الرجاء في قنوته وتقواه ردا قبيحا منكرا!

***

الفصل التاسع
واثارات عثمان...!

كتب عثمان إلى أهل الأمصار رسائل قال فيها:"أما بعد، فقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواماً منكم يشتمون، وآخرون يضربون، فيا من ضرب سرا، ويا من ادعى شيئاً من ذلك، وافوني في موسم الحج، فليأخذ كل بحقه حيث كان، مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزى المتصدقين".

فلما علم عِلي بهذه الرسائل جاشت محبته لعثمان وللحق، فبكى، ودعا الله أن يحمي عثمان، وأن يقصي عنه حاشية السوء!

ولما قرئ هذا الكلام في الأمصار، أبكى الناس..وتعاهدوا على أن يتوافدوا إلى المدينة في الموسم!

وبعث عثمان إلى عماله ليشاورهم في الأمر، فقدموا عليه، وأدخل معهم في المشورة مروان بن الحكم، وعمرو بن العاص..فقال لعماله:"ويحكم!ما هذه الشكاية؟ وما هذه الإذاعة؟ والله لأخاف أن يصدق ما يقال عنكم، وما يعصب (يلحق) هذا إلا بي، وما يتحمله غيري"!

فسألوه مستنكرين:ألم يبعث إليهم من يحقق في هذه الأقاويل فهل وجدوا مؤاخذة واحدة؟!.

ثم قالوا عن أصحاب الشكاوى واللائمين:"لا والله ما صدقوا، ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً"!

وصدق عثمان أن الشاكين يتقولون على عماله الأقاويل!فقال لهم:"أشيروا علي، إن لكل أمير وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائي، وأهل ثقتي، وقد قال لي أقوام:إن ناسا من المسلمين اجتمعوا ونظروا في أعمالك، فوجدوك قد ارتكبت أمورا عظاما، فاتق الله!لقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إلى أن أعزل عمالي، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم".

قال مروان:"أرى يا أمير المؤمنين أن تشغلهم بالجهاد عنك حتى يذلوا لك، ولا تكون همة أحدهم إلا في نفسه، وما هو فيه من دبر(مرض)دابته، وقمل فروته،

وقال سعيد بن العاص:"احسم عند الداء فاقطع عنه الذي تخاف، فإن لكل قوم قادة، متي يهلك قادتهم تفرق الناس، ولا يجتمع لهم أمر".

فقال عثمان:"هذا هو الرأي لولا ما فيه !".

وقال معاوية معاوية:"أشير عليك أن تـأمر أمـراء الأجناد، فيكفىك كل رجل منهم ما قبله وأكفىك أنـا أهـل الشام".

وقال رابع المستشرين :إن الناس أهل مطمع من هذا المال، تعطف عليك قلوبهم".

وقال عمرو ابن العاص:"أرى أنك قد لنـت للنـاس، وتراخىت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريق صاحبيك أبي بكر وعمر فتشتد في مواضع الشدة وتلين في مواضع اللين".

وعاد سعيد بن العاص يقول:"بل اقتل هؤلاء الـذين تخرج هذه الأقاويل من عندهم"!

وأيده معاوية..

ولكن عثمان رضي الله عنه قال:"لا والله، لا أكـون أول من يخلف الرسول في مدينته بسفك الدماء".

وشعر عمرو بن العاص أن رجالاً على باب عثمان يتسمعون ويتصنتون، فقام عمـرو خطيبـا فقـال بصـوت جهير:"يا أمير المؤمنين إنك قد ركبت الناس بما يكرهـون،

فوليت عليهم عمال سوء، فزاغوا وزغت، فاعتدل أو اعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزما وأمض قدما".

فغضب عثمان وقال له:"قَمِلَتْ والله جِبُّتُك منذ عزلتك عن العمل".

فسكت عمرو حتى تفرقوا، فقال:"والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم عِلي من ذلك، ولكني علمت أن الباب من يبلغ الناس قول كل رجل منا، فأردت أن يبلغهم قولي، فيثقوا بى، فأقود إليك خيرا، وأدفع عنك شرا"!..

وكان عثمان قد عزل عمرو بن العاص عن مصر، وولي مكانه أخاه من الرضاعة ابن أبي سرح، وظل عثمان يجزل العطاء لعمرو، وظل عمرو يحلم بأن يعود حاكما لمصر!..

***

تعاهدت الوفود ألا تبرح المدينة حتى يعطيهم الخليفة موثقا من الله أن يغير سياسته!

وشعر عِلي بالنار المضطرمة توشك أن تلتهم كل شيء، والخليفة مطمئن إلى البطانة، والبطانة بسوء عملها

تؤجج النار!!.ولم يعد الوقت صالحا للصمت بعد..ومهما يكن غضبه من الخليفة فليعاود التحذير.

فقام عِلي إلى عثمان، عسى أن يستطيع أن يرده إلى سياسة تجمع شمل الناس، ويستخلص حكمته ورأيه وتقواه من سيطرة مروان الذي أصبح لا يبرح الخليفة ساعة من ليل أو نهار، حتى لقد جهرت بالشكوى منه زوجته نائلة بنت الفرافصة!

ومضى عِلي فنصح عثمان أن يقصى عنه مروان كما وعد الناس من قبل وأن يعزل عماله الذين اشتكاهم أهل الأمصار كما وعدهم، فما يصلح هؤلاء العمل هؤلاء العمال لولاية أمر المسلمين، وما تولوا الأمر إلا لأنهم أقرباؤه!..

فقال عثمان:"وهم أقرباؤك أيضا"!

قال عِلي:"نعم.إن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم".

وظل عِلي يحاور عثمان، ويناشده أن يجيب مطالب المظلومين من أهل الأمصار، ويبعد عنه حاشية السوء، وشرح له الخطر الذي يوشك أن ينطحهم بقرنيه، والبلاء الذي سينقض ويعم الجميع إن لم يغير عثمان سياسته!!

ولكن عثمان لم يستجب له.فقال عِلي، وقلبه يكاد يتمزق من الأسف والإشفاق على عثمان:"إنـي أحذرك الله وسطوته ونقماته، فإن عذابه شديد أليم!وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، وتلبس أمورها وتتركهم شيعا، ولا يبصرون الحق لعلو الباطل، يموجون فيه موجا، ويمرجون فيه مرجا""!

وخرج عِلي كرم الله وجهه من عند عثمان رضي الله عنه، وكلاهما دامع العينين!!فلا عِلي كرم الله وجهه بالقادر على إقناع عثمان رضي الله عنه، فيستنقذه بمشورته، ولا عثمان بمستطيع أن يتخلَّى عن ذوي قرباه من بني أمية الذين يتخيلون أن عثمان يحابيهم، ولا يدركون أنه إنما يبرهم امتثالا لأوامر الله ورسوله بالبر بذوي القربى!!وهكذا

اقتنصوه من فضيلته، وكان عثمان كما وصفه عِلي أوصل الناس للرحم..وما زال بنو أمية بعثمان حتى أقنعوه أن الناس يستخفون به لحيائه ورقته، وإذن فيجب أن يشتد ليسترد هيبة الملك!!..وما كان عثمان ملكًا بل إماما!!

عثمان إمام يريد أن يحكم بورع الخلافة، وبالقوة الحازمة التي تنبع من التقوى وحسن الأسوة، لا بالبطش

والسيطرة والغلبة التي أتت بنيان الفرس والروم من القواعد، فانهارت الدولتان أمام أول زحف يدعو إلى العدل والحرية!!

ولكن إلحاح بني أمية على عثمان دفعه إلى اتخاذ شرطة، وعين رئيسا لها من بني أمية، وأبقي صاحب الشرطة على النظم التي خلفها الرومان في مصر والشام، وتركها الفرس في العراق وبلاد ما وراء النهرين..

فكان صاحب الشرطة غولاً مخيفًا يرهب الناس، وجعل همه حماية النظام السياسي، فضرب بعض الصحابة، وسجن آخرين حتى ماتوا، وأرهب المعارضين، ونفاهم من الأرض، فألهب هذا كله مشاعر السخط على عثمان المظلوم، وعجل بانفجار الكارثة!!

ولكن عليًا كرم الله وجهه استطاع على الرغم من سلطان مروان على عثمان رضي الله عنه، أن يقنعه بلقاء وفد مصر، فهو أكثر وفود الأمصار سماحة واستعدادا لتبادل الرأي، وكان عثمان يخشي هؤلاء المصريين، فقد وسوس في صدره مستشارو السوء، أن هذا الوفد ممن فتنهم عمار خلال إقامته في مصر فملأ قلوبهم ضغنًا على عثمان!

وخرج عثمان مع عِلي رضي الله عنهما إلى وفد مصر، وقد جاء معهم نفر من الصحابة الذين يعيشون في مصر ونزلوا خارج المدينة، امتثالا لرأي عِلي فقد رآهم في عدة الحرب، وهم عدة مئات، فخشي أن يروعوا المدينة، وخاف الغليان!

ودعاهم عثمان إلى المدينة ليلقوه في المسجد الجامع، فوجدوا في المسجد بعض الصحابة فشكوا إليهم ما صنعه ابن أبي سرح عامل عثمان على مصر..كانوا قد شكوه إلى عثمان في زيارتهم السابقة، فوعدهم بعزله، وأرسل إليه كتابا مع نفر منهم، فضرب ابن أبي سرح من شكوه إلى عثمان ضربا أليما، وعذبهم، أما صاحبهم الذي قدم إليه كتاب عثمان بالعزل، فقد قتله أبشع قتلة!!

ورأى كبار الصحابة فيما فعله ابن أبي سرح استهانة بأحكام الإسلام وبالخلافة، وإزراء على مقام الإمامة، فقام طلحة، فتكلم عن عثمان كلاما شديدا، واتهمه بأنه حط من هيبة الخلافة والإمامة:"لقد تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل، وهو قد قتل منهم رجلا فأنصفهم من عامِلِك".

ثم إن علِيا كرم الله وجهه انتحى بعثمان رضـــي الله عنه ينصحه، فقال"إنما يسألونك رجلاً مكان رجل، وقد ادعواقبله دما، فاعزله عنهم واقض بينهم، فإن وجب لهم عليه حق فانصفهن منه".

وأثم عِلي حاكم مصر، لأنه يبطش بالقبط وهم فــي ذمة الله ورسوله، وقد أوصى الرسول بهم خيرا!!..

فأعلن عثمان أنه يعزل أخاه من الرضاعة ابن أبــي سرح عن ولاية مصر، أما القصاص منه، وقتلـه بالرجـل الذي قتله من أهل مصر، فهو يسألهم العفو ويطالب أوليـاء الدم أن يرضوا بالدية.

وفرض من ماله دية كبيرة.فوعدوه أن يحدثوا أولياء دم القتيل حين يعودون إلى مصر.

ومازال عثمان بالمصريين حتى طابوا نفسا..

كل هذا ومروان يرى ويسمع، وقد دبر أمرا:فهؤلاء المصريون أصحاب قلوب طيبة، وإذن فمن السهل خداعهم!!

وصارح المصريون عثمان بما يعيبون عليـه، مـن إيثار لذوي قرباه من بني أمية، وإغداقه عليهم، وهو القانـت

الورع، حتى لقد عزل كبار الصحابة وأهل الرأي، وولَّى مكانهم أحداثا من بني أمية!

ثم إنه خصص كثيرا من الأراضي للمراعي، وما ترعى فيها غير دوابه هو، ودواب بني أمية!

فقال لهم إنه لا يملك إلا راحلتين، وأن عمر قد خصص هذه المراعي لإبل الصدقة، فلما زادت الإبل، وزاد هو في مساحة المراعي.

ثم قالوا له:تذكر الآية الكريمة من السورة التاسعة (يونس): (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالاً قل الله أذن لكم أم على الله تفترون)."نريد ألا يأخذ أهل المدينة عطاء فإنما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ❐ ".

وكانوا يعنون منع بني أمية من أعطيات لا يستحقونها، فوافق عثمان و استرد مبالغ كبيرة كان قد منحها منذ لحظات لبعض بني أمية، ومنهم مروان!

وقال لهم عثمان:"وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحم ربي.

أستغفر الله وأتوب إليه".ثم قال:"اختاروا رجلاً أوليه عليكم".فقالوا:"محمد بن أبي بكر".

ووافق عثمان عن طيب خاطر.

وفاضت دموع أهل مصر من التأثر لرقة عثمان، ودهمه الشجن، وبكى الجميع!..

وأعطاه وفد مصر موثقًا من الله ألا يشقوا عليه عصا الطاعة، وألا يفارقوا الجماعة، وأعطاهم موثقًا من الله أن يعمل ما يرضيهم.وقال."إني ما رأيت والله وفدا في الأرض هم خير من هذا الوفد من أهل مصر"!

ورضي أهل مصر، ودعوا الله أن يوفق عثمان، وأن يبعد عنه بطانة السوء.

وعلمت وفود الأمصار بما كان بين الخليفة ووفد

مصر. وخرج محمد بن أبي بكر مع وفد مصر، ومعه عهد عثمان بتوليته وعزل ابن أبي سرح، وأرسل عثمان معهم نفرا من كبار المهاجرين والأنصار ليحققوا فيما بين ابن أبي سرح

وأهل مصر وليسترضوا أهل الذمة الذين ظلمهم من قبل، ولينظروا إن كان أولياء دم الرجل الذي قتله يعفون ويكتفون

بالدية، أم يتمسكون بالقصاص، فإن تمسكوا وجب على محمد بن أبي بكر أن يقيم حد الله:النفس بالنفس!..ولكم في القصاص حياة..

حتى إذا بعدوا مسيرة ثلاث ليالٍ عن المدينة، إذ هم بغلام أسود على بعير يتعرض لهم ثم يتركهم، ثم يرجع إليهم، قالوا للغلام:"مالك؟إن لك لأمرا فما شأنك؟كأنك طالب أو هارب!"قال لهم:"أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر"فأشاروا إلى محمد ابن أبي بكر وقالوا:"هذا عامل مصر معنا".قال:"ليس هذا أريد".فأخبروا أميرهم الجديد محمد ابن أبي بكر بأمر الغلام.فطلبه، فجاءوا به، فقال له محمد:"من أنت؟".فاضطرب الفتي وتخبط فمرة يقول:"أنا غلام مروان"ومرة يقول:"أنا غلام أمير المؤمنين".وعرفه بعض الصحابة:"إنه غلام عثمان".فسأله محمد:"إلى من أرسلك؟"قال:"إلى عامل مصر" قال: "بماذا؟" قال: "برسالة".

قال: "أما معك كتاب؟ "قال "لا" ففتشوه، فلم يجدوا معه كتابا، ووجدوا معه قصبة فيها شيء يتقلقل، فحركوه ليخرج فلم يخرج، فشقوا القصبة فإذا فيها كتاب ملفوف إلى عبد الله بن أبي سرح!.

فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار، ثم فك الكتاب بمحضر منهم، فقرأه فإذا فيه:"إذا أتاك محمد بن أبي بكر ومن معه، فاقتل محمد بن أبي بكر، واصلب من معه، أو قطِّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، حتى يهلكوا وابق علم عملك، وقر فيه حتى يأتيك رأيي".

وعلى الكتاب خاتم عثمان..كان نقش خاتمه:"آمنت بالله مخلصا".و"لتصبرن أو لتذمن".

فلما رأوا الكتاب، وقرءوه مليا، روعوا به، وعرفوا فيه خط مروان ابن الحكم كاتب عثمان أمير المؤمنين.

***

قدموا المدينة جميعا، مذهولين كأنما سلبت عقولهم، لا يدرون ما يستقبلون من أمرهم، وجاءوا علِيا مع الصباح، فرآهم يتطاير الشرر من عيونهم، وعلى صفحات الوجوه شر مستطير، فقال لهم:"ما ردكم بعد ذهابكم؟ارجعوا إلى بلادكم صحبكم الله".

فقالوا:"ألم تر عدو الله ماذا كتب فينا؟".فنهرهم عِلي ، وقال لهم:"، عثمان ما كان عدو الله، وما بقي على الأرض اليوم من هو أتقى من عثمان!".

فأخبروه بقصة غلام عثمان، وقدموا له كتاب عثمان إلى ابن أبي سرح.

وعادوا يلحون على عِلي أن يقوم معهم إلى عثمان فقال:"لا والله لا أقوم معكم".

وعندما كان وفد مصر يكلم علِيا، أقبل وفد الكوفة ووفد البصرة.وجاءت الأعراب من البوادي..

رجعوا جميعا إلى المدينة كأنما كانوا على ميعاد!

فقال عِلي:"كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر، وقد سرتم مراحل حتى رجعتم؟!هذا أمر والله بُيِّتَ بليل"!فقالوا:"ضع الأمر كيف شئت.لا حاجة لنا في هذا الرجل، فليعتزلنا".

وذكروا القتل أمام عِلي، ففزع، وزجرهم زجرا عنيفاً، وأقسم لهم أنه سيقاتلهم دفاعا عن حياة عثمان.

وأحس عِلي بأن ثمة مؤامرة كاملة، وأن هناك خيوطًا تربط الساخطين في كل الأمصار..لعله ليس السخط وحده، فلا ريب أن هناك من يستثمر هذا السخط ليشغل الفتنة!..وشعر بأن الصحابة الذين جهروا بلوم عثمان قد جرأوا عليه الثائرين!!

وفكر عِلي كرم الله وجهه في عمرو بن العاص.!

ذلك أن عمرو بن العاص لم ينس لعثمان أنه عزله،

وكان ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحته!

فكان يأتي عليا مرة يحرضه على عثمان، فينهره عِلي، فيأتي الزبير، ويأتي طلحة فيؤلبهما على عثمان، ويعترض حجاج

بيت الله والمعتمرين فيكلمهم بما أحدث عثمان!.

فقال له عثمان:"أتطعن عِلي وتأتيني بوجه وتذهب عني بآخر؟"فقال عمرو:"إن كثيرا مما ينقله الناس إليك باطل!فاتق الله يا أمير المؤمنين في رعيتك".قال عثمان:"والله لقد استعملتك على ظلَعك وكثرة القالة فيك".فقال عمرو:"قد كنت عاملاً لعمر بن الخطاب، ففارقني وهو عني راضٍ".قال عثمان:"أنا والله لو أخذتك بما أخذك به عمر من شدة

لاستقمت لى، ولكني لِنْتُ لك فاجترأت عَلى !".

وكان عمر قد رد إلى بيت المال نصف مال

عمرو..! فخرج من عند عثمان إلى فلسطين، فأقام في قصر

له في إحدى ضياعه مما أقطعه عثمان!

وانتظر في قصره يقول:"العجب ما تأتينا عن ابن عفان!"

***

ذهب وفد مصر إلى عثمان فقالوا له:"خرجنا من مصر نريد قتلك فردنا عِلي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، وضمن لنا النزوع عما تكلمنا فيه، قابلتنا وأجبتنا إلى ما أردنا، واستعملت عِلينا محمد بن أبي بكر الذي اخترناه، فرجعنا إلى بلادنا راضين ندعو لك، وبعد مسيرة ثلاثة أيام رأينا في الطريق غلامك وكتابك بخط كاتبك وعليه خاتمك تأمر فيه ابن أبي سرح بقتلنا!!".فقال:"ماكتبت هذا ولا أرسلت أحدا".

قالوا:"بل فعلت، وهذا هو غلامك وجملك، وخاتمك".قال:"قد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل، وقد ينقش الخاتم على الخاتم وغلامي انطلق بغير علمي، وجملي أخذه من الدار بغير أمري"فقالوا:"بل نقضت العهد والميثاق فأحل الله دمك"فقال:"إنما هما اثنتان، أن تقيموا عَلى رجلين من المسلمين يشهدان أني كتبت هذا الكتاب، أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت".

فطلبوا منه أن يسلمهم الذي زور عليه الكتاب:مروان بن الحكم.

فاستمهلهم حتى يشاور علِيا، وذهبوا إلى خيامهم خارج المدينة!

وفزع عثمان إلى عِلي فدخل عليه بيته وقال:"يا بن عم، إنه ليس لي متركك، وإن قرابتي قريبة، لي حق عظيم عليك، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم، وأنا أعلم أن لك عند الناس قدرا، وإنهم يسمعون منك، فأنا أحب أن تركب إليهم فتردهم عني".فقال عِلي:"علام أردهم؟"قال:"عِلي أن أصبر إلى ما أشرت به علَى ورأيته لي.ولست أخرج من يديك".فقال عِلي:"إني قد كنت كلمتك مرة بعد مرة!ثم أخرج فيكلمك سواي!إن ذلك كله فعل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومعاوية وعامر بن عقبة أطعتهم وعصيتني".قال عثمان:"فإني أعصيهم وأطيعك".

***

وروى أهل مصر ما كان من أمرهم وأمر عثمان لأهل المدينة، فانضم أهل المدينة إلى وفود الأمصار، وشددوا النكير علَى عثمان.

وأقبل معاوية علَى بعض الصحابة فقـال لهـم:"يـا معشر الصحابة، أوصيكم بشيخى فواالله لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلاً ورجلاً".والتفت إلى عمار فقال:"يا عمار بن ياسر، إن بالشام مائة ألف فارس، يأخذون العطاء، مـع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم، لا يعرفـون غيـر العطـاء، لا يعرفون عليا ولا قرابته، ولا عمارا ولا سابقته، ولا الزبيـر ولا صحابته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا يهابون سـعدا ولا دعوته، فإياك يا عمار أن تقعد غدا في فتنة لا تنجلى، فيقـال هذا قاتل عثمان، وهذا قاتل عِلي !".

فعنف عِلي كرم الله وجهه معاوية علـى مـا قـال، معاويـة

وتشادا.. وذهب معاوية إلى عثمان فسأله:"ما ترى يا فإن هؤلاء المهاجرين قـد طـال فـيهم مقامي؟استعجلوا القدر".فقال معاوية:"معي ثلة من جند الشام فالرأي أن تـأذن لي فأضرب أعناق هؤلاء القوم!"فقال عثمـان:"سـبحان الله، أقتل أصحاب رسول الله بـلا حـدث أحـدثوه، ولا ذنـب ركبوه!؟".قال معاوية:"فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلونك!".قـال عثمان:"لا أكونن أول من خلف رسول الله فـي أمتـه

بإهراق الدماء".قال معاوية:"فاقبل مني أن أرسل لك أربعة آلاف فارس من خيل أهل الشام يكونون لك ردءا، وبين يديك يدا"قال عثمان:"أرزقهم من أين؟".قال:"من بيت مال المسلمين".قال عثمان:"وأروع بهم جيران الرسول؟لا فعلت هذا".قال:"ففرق عنك المهاجرين فلا يجتمع اثنان منهم ببلد واحد، واضرب عليهم البعوث والعيون حتى يكون دبر (إلا مرض)بعير أحدهم أهم عليه من صلاته".فقال عثمان:"سبحان الله!شيوخ الصحابة وكبار أصحاب رسول الله وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم، وأفراق بينهم وبين أهلهم وأبنائهم؟!لا أفعل هذا".فقال معاوية:"فأجعل لي الطلب بدمك إن قتلت".قال عثمان:"نعم هذه لك، إن قتلت".

ومضى معاوية إلى الشام، والمدينة كلها تغلي بالسخط!

وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة النصوح، ويحتجون، ويقسمون عليه بالله أن يعطيهم حق الله فإن لم يفعل قتلوه!

هان عليهم الخليفة المظلوم، فما من أحد يخاطبه إلا قدم بين يدي طلبه، تهديدا بالقتل!!

وأرسل إليه وفد مصر من يقولون له:"ما أنت إلا صادق أو كاذب، فإن كنت كاذبا فقد استحققت القتل لما أمرت به من قتلنا بغير حق، وإن كنت صادقا فقد استحققت الخلع لضعفك عن هذا الأمر، وغفلتك وخبث بطانتك، ولا نترك هذا الأمر بيد من يقطع الأمر دونه!".

فقال:"لا أنزع قميصا ألبسنيه الله، ولكني أتوب".قالوا:"قد رأيناك تتوب، ثم تعود، ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك، أو تلحق أرواحنا بالله، وإن منعك أهلك وأصحابك قاتلناهم".فقال لهم:"أما أن أتبرأ من خلافة الله فالقتل أحب إلى من ذلك، وأما قتالكم من يدافع عني فإني لاآمر أحدا بقتالكم، فمن قاتلكم فبغير أمري".

وكان علي حاضرا، فلما رأي أصواتهم ترتفع في وجه عثمان وهم يشغبون عليه بالتهديد ولا يرعون وقارا لمكانة عثمان وقنوته وشيخوخته، قال لهم:"عثمان بن عفان لا يكذب، إنه ذو النورين!والله إنه لصادق".

ثم قام علي مغضبا فأخرج الناس، وخرج عائدا هو إلى داره فلزمها..وعادوا هم إلى خيامهم في ظاهر المدينة.

أصبح أهل المدينة وقد لزموا بيوتهم، فما يخرج أحد منهم إلا حاملاً سيفه.ويتداعى الكل على دار عثمان يطالبونه بأن يخلع نفسه.

واستشار عثمان بطانته، فأشار عليه مروان أن يستنجد بعماله على الأمصار ليرسلوا إليه مددا، وخاصة معاوية، واقترح مروان على الخليفة أن يرسل إلى عِلي بن أبي طالب فلا يدعه حتى يرد عنه الناس، ويعدهم بأن الخليفة سيعطيهم ما يريدون، ثم يطاولهم الخليفة ويماطلهم، إلى أن يأتي المدد من خيل الشام وسائر الأمصار!

فقال عثمان:"إنهم لا يقبلون التعلل، قد كان مني في المرة الأولى ما كان".

فقال مروان:"أعطهم ما سألوك، وطاولهم ما طاولوك.فإنهم قوم بغوا عليك، ولا عهد لهم".

فدعا عثمان علِيا وفي عزمه أن يرضي الناس، لا أن يطاولهم ويماطلهم كما أشار مروان!..وأتى عِلي دار عثمان، فوجد الناس على بابها، فشق الناس إلى داخل الدار، وسط الغليان!!

فقال عثمان:"يا أبا الحسن، إنه قد كان من الناس ما قد رأيت، وكان مني ما قد علمت، ولست آمنهم على قتلي، فارددهم عني، فإني أعطيهم ما يريدون من الحق مني ومن غيري، وإن كان في ذلك سفك دمي".فقال له عِلي: "الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك!..وإنني لأرى قوما لا يرضون إلا بالرضا، وقد كنت أعطيتهم في قدمتهم الأولى عهدا من الله:لترجعن عن جميع عن جميع ما نقموا، فرددتهم عنك ثم لم تف لهم بشيء من ذلك!

فلا تغرني هذه المرة من شيء فإني معطيهم عليك الحق".قال عثمان:"نعم، فأعطهم، فوالله لأفين لهم"فقال عِلي:تكلم كلاما يسمعه الناس، فيشهدون ويشهد الله على ما قلبك من الإنابة والتوبة فإن البلاد قد تمحضت عليك، ولا

آمن أن يجئ ركب آخر من الكوفة أو البصرة، فتقول:يا عِلي اركب إليهم، فإن لم أفعل تراني قد قطعت رحمك، واستخففت بحقك!".

ولكن عثمان لم يخرج إلى الناس، حياء من الناس، وفوض عليا عنه، فخرج عِلي إلى الناس فقال:"أيها الناس إنكم إنما طلبتم الحق.فقد أعطيتموه:إن عثمان قد زعم أنه

منصفكم من نفسه ومن غيره، وراجع عن جميع ما تكرهون، فاقبلوا منه".فقالوا:"قد قبلنا فاستوثق منه لنا، فإنا والله لا نرضي بقول دون فعل!".فقال لهم عِلي□:"ذلك لكم".ثم دخل فأخبر عثمان بما يقول الناس.فقال عثمان لعِلي□:"اضرب بيني وبينهم أجلاً يكون لي فيه مهلة.فإني لا أقدر على رد ما
كرهوا في يوم واحد!".

فقال عِلي□:"ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرك".فقال عثمان:"نعم ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام".واشترط عِلي □ كرم الله وجهه على عثمان رضي الله عنه ألا يطاول الناس أكثر من ثلاثة أيام..فينبغي قبل مرور أيام ثلاثة أن يصدر الخليفة أوامره، بما وعد به من تغيير وإصلاح.

وكتب عِلي□ كتابا شرط فيه على الخليفة رد كل مظلمة، وعزل كل عام كرهته الرعية، وعقاب مروان بن الحكم.

وأشهد عِلي □ بعض كبار الصحابة على هذا الميثاق.

وخرج عِلي □ فأعلم الناس بما جرى، ودعاهم أن يكفوا عن الخليفة ويمهلوه ثلاة أيام.

وانصرف الناس راضين..أما مروان بن الحكم فاتخذ جندا، واستعد!!

ومر يوم بعد يوم، وجاء اليوم الثالث فأتوا عِليا يستنجزونه وعد الخليفة!

وشعر عِلي بحرج شديد، فما عساه يقول للناس!إنه ليواجه موقفًا ضنكًا ما واجه مثله من قبل، حتى لأصبح يخجل من مواجهة الناس، فكلما ضمن أمامهم عهدا لعثمان، خذله عثمان..وعِلي بعد لا يرضي بأن ينال الناس من عثمان !!..

ولكنهم ينالونه بالذم، وها هم أولاء يذكرون القتل!!واأسفاه على عثمان!

ها هو ذا اليوم وهو خير البرية صلاحا وتقوى وقنوتًا، يسلم رأيه وعقله وورعه وحكمته لشر البرية كيدا وطمعا، ليجعلوه مطية ذلولاً إلى ما يشتهون!وارحمتا للقانت المظلوم!!

ووارحمتا لعِلي !..

يرى المنكر كله أمامه، فلا هو قادر على تغييره كله، كما يأمره دينه، ولا هو بمستطيع الصبر عن بعضه، فتقواه

تأبي عليه أن يرضي بالدنية في دينه أو دنياه، وأن يسكت عن منكر نهي عنه الله!!

وها هو ذا يجد نفسه مسئولاً أمام الله عن تغيير هذا المنكر!

وهو يرى أنه إن نال عثمان بكلامه، أجج الثورة عليه، فانتهت إلى شر نهاية!إنه ليحمل نفسه على الصمت، وما يملك إلا نصح عثمان..ولكن هيهات!!

وعثمان يحمله مسئولية الثورة عليه، ويطالبه بصرف الثائرين عنه.فهو وحده القادر عليهم!!..وهم لا يعصون له أمرا..!

ثم إن هؤلاء يحملون علِيا مسئولية ما يصنعه عثمان، فهم وحده من بين صحابة الرسول أقدر الناس عليه!!

وفي الحق أن أقدر الناس على عثمان كان مروان ومن يليه من بني أمية أقرباء عثمان!

وأمر مروان صاحب الشرطة أن يتأهب للقتال!

وبعد صلاة عصر اليوم الثالث، وقبل أن يؤذن بصلاة المغرب، فينتهي اليوم الأخير من الأجل المضروب، تنادى الثوار بأن الخليفة ليس أمامه إلا بضعة أمور يختار

أحدها: إما أن يعتزل ويترك الأمر لمن هو أقدر عليه وأنهض، وما ذاك إلا عِلي كرم الله وجهه!وإما أن يسلمهم مروان، ويعزل الولاة الأمويين ويسترجع منهم الآلاف المؤلفة والأراضي التي وزعت عليهم، ويرد الظالم، ويطلق السجناء الذين سجنهم صاحب الشرطة لأنهم نقدوا الخليفة، ويقتص من نفسه ومن صاحب الشرطة لمن ضربهم وآذاهم من كبار الصحابة فإن لم يحبهم إلى كل أولئك قتلوه..

وحاول عِلي أن يثنيهم عن هذا كله، وأن يقنعهم بإعطاء الخليفة مهلة ساعة حتى يكلمه بعد صلاة المغرب، ولكنهم أبوا!..

فأرسلوا إليه نفرا منهم يطلبون منه عزل عماله الفساق، ورد المظالم كما وعد، فردهم قائلاً:"إن كنت أستعمل من أردتم وأعزل من كرهتم فلست في شيء من الأمر".

وعادوا إلى أصحابهم يتنادون بقتل عثمان!

وإذ كان عِلي يجادلهم ويجادلونه، أتى عبد الله بن عباس عليا يحمل إليه أمرا بأن يبرح المدينة.وأن يلزم ماء له بينبع.

وشعر عِلي بالأسى على ما آل إليه أمر عثمان!ولمح في ثنايا الأمر كيد مروان...وقال:"يا بن عباس، ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملاً أقبل وأدبر.بعث إلى أن أخرج ثم بعث إلى أن أقدم، ثم ها هو ذا الآن يبعث إلى أن أخرج.والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثما".

يا له من أسى يخالجه الإشفاق على الشيخ الجليل، وتغشاه راحة حزينة!ذلك أن علِيا آخر الأمر سيجنب نفسه

الحرج بين أمل الناس فيه، وما تقترفه بطانة عثمان!

وإذ تلقى عِلي كرم الله وجهه أمر عثمان رضي الله بأن يبرح المدينة إلى ينبع، دعا للأمة باجتماع الشمل، وخرج إلى حيث أبعده الخليفة!

وقبل أن يبرح المدينة رجا كبار الصحابة أن يكفوا الناس عن الخليفة، وأن يميلوا إليه القلوب ما استطاعوا!

أما الزبير فغادر المدينة إلى مكان أبعد من أن يحرجه فيه عثمان أو الناس، وأدنى من أن يجهل فيه ما يجرى في المدينة من أحداث.

وأغلق طلحة عليه داره.

ورفض باقي الصحابة أن يصرفوا الثوار عن عثمان، أو يميلوا إليه قلوب الناس، ولكنهم التزموا ألا يؤلبوا عليه أحدا!..

فلما خرج علي من المدينة منفيا إلى ينبع، اشتد الحصار والطعن على عثمان فحصبوه في المسجد وهو على المنبر يخطب الجمعة حتى غشي عليه، ثم منعوه من الخروج حتى للصلاة، فأشرف عليهم عثمان وقال لهم:"يا أهل المدينة!أستودعكم الله، وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدي..وأنشدكم بالله أتعلمون أن لي سابقة خير أوجب الله على كل من جاء بعدي أن يعرفوا لي فضلها!؟لا تقتلوني فإنه لا يحل لكم إلا قتل ثلاثة:رجل زنى بعد إحصانه ووالله ما فعلتها في جاهلية ولا في إسلام، أو كفر بعد إيمانه، أو قتل نفسا بغير حق، فإنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم، ثم لا يرفع الله عنكم الاختلاف أبدا!..".فقالوا"إنا نجد في كتاب الله قتل غير الثلاثة:من بغى، ومن سعى في الأرض فسادا، ومن حال دون شيء من الحق ومنعه.وأنت بغيت، ومنعت الحق وحلت دونه، وكابرت عليه ولم تقتص من نفسك لمن ظلمته، وتمسكت بالإمارة عينا".

فدخل عثمان إلى داره وهم على أبوابه يشددون الحصار..وخرج طلحة من عزلته..

كان المحاصرون ألفًا من أهل الكوفة، وعدة مئات من أهل مصر، ومئات من أهل البصرة، وأهل الميدنة، وطلحة يروح ويجيئ بينهم.

وقال طلحة لقواد الحصار:"إن عثمان لا يبالي ما حصرتموه، وهو يدخل إليه الطعام والشراب فامنعوا الماء أن يدخل إليه".فمنعوا الماء، فأرسل عثمان إلى عبد الله ابن عباس، الذي نصبه أميرا عِلي الناس في الحج، وإلى حجاج بيت الله الحرام جميعا رسائل قال فيها:"بسم الله الرحمن الرحيم.إلى من حضر الحج من المسلمين.أما بعد فإني كتبت إليكم كتابي هذا وأنا محصور وأشرب من بئر القصر، ولا آكل من الطعام ما يكفىني، ولا تسمع مني حجة أقولها، ولقدازدادوا على الله عز وجل جرأة، حتى أغاروا عِلينا في

جوار رسول الله، وثابت إليهم الأعراب، فهم كالأحزاب يوم الأحزاب أو كمن غزانا بأحد، فمن قدر على اللحاق بنا فيلحق، فأنشد الله رجلاً من المسلمين بلغه كتابي إلا قدم عِلي، فأخذ الحق في، ومنعني من الظلم والباطل".

وبعث إلى معاوية وأهل الشام خاصة كتابا آخر، وله بأهل الشام أوثق صلة، فامرأته نائلة من أكبر قبائل الشام، وعشيرته بنو أمية هاجر منهم في الجاهلية رهط كبير فأقاموا في الشام، وأصهروا إلى أهلها، وأصبحوا أهل منعة فيها، ثم إن معاوية ابن عمه وأحد كبار مستشاريه يحكم الشام كلـه، ويغدق على أهله أكثر مما يتمنون، وقد أصبح له هناك جيش من مائة ألف فارس، لا يعرفون غيره، ولا يدينون لغير مـا يعتقده، ويجهلون كما قال معاوية لعمـار شـأن الصـحابة الأوائل من كبار المهاجرين والأنصار، إنهم لمائة ألف مقاتل وما يحركهم كما وصفهم معوية إلا الدينار، كلما أضاء لـهـم مشوا فيه!!

كتب عثمان إلى ابن عمه معاوية:"بسم االله الـرحمن الرحيم.أما بعد فإني في قوم طال فيهم مقـامي، واسـتعجلوا القدر في، إن أهل المدينة قد كفروا وأخفوا الطاعة، ونكثـوا البيعة وانضم إليهم الأعراب ووفود الأمصار فخيروني بـين أن أنزع لهم رداء االله الذي كساني، وبين أن أقيـدهم ممـن قتلت ومن كان له سلطان يخطئ ويصيب فابعث إلـى مـن قبلك من مقاتلة أهل الشام فياغوثاه!..ياغوثـاه!..ولا أميـر

عليكم دوني، فالعجل العجل يا معاوية ثم أدرك ولا أراك تدرك!".

فلما ورد كتاب عثمان إلى معاوية، آثر أن ينتظر عقبى الصراع، إذ علم أن صحابة الرسول قد تخلوا عن عثمان إلا قليلاً، منهم زيد بن ثابت وحسان بن ثابت وأبو هريرة، وهو يعلم أن هؤلاء ليس لهم على قلوب الناس في المدينة والأمصار والأعراب، مثل سلطان الصحابة الذين خالفوا عثمان، وخذلوه..

واستبطأ عثمان رد معاوية، ولكنه علم أنه يتربص ليرى نتيجة الحصار وأنه لا يريد أن يجهر بمخالفة أكثر الصحابة، وكان عثمان - على ورعه وتقواه - عِليما بدهاء ذوي قرباه من رؤوس بني أمية، بصيرا بمكرهم، فطناً إلى ذكاء

احتيالهم على الأمور!..

فعدل عن مخاطبة معاوية، وبعث برسائل إلى ذوي قرباه

من بني أمية الذين استوطنوا الشام منذ أجيال، وإلى أصهاره أهل زوجته نائلة، وإلى أمراء جند الشام يستنفرهم، ويذكرهم بوجوب طاعته، ونجدته، وإغاثته، وأشار إلى ما

أغرقهم فيه من مال، فما أصابوا المال والأعطيات والضياع وبنو القصور، إلا بأمره إلى عاملة معاوية، أن يغدق عليهم!!

فقاموا إلى نصرته على الرغم من تثاقل معاوية!..

وكتب عثمان إلى أجناد البصرة، فركبوا في العدة والعديد إلى المدينة لينجدوه.

عواتقنا أما الذين يحاصرونه فكتبوا إليه:"اعلم أنا والله الله نغضب، وفي الله نرضي، وأنا لن نضع سيوفنا عن حتى تأتينا منك توبة مصرحة، أو ضلالة مجلجلة، وإنك لتعلم قضيتنا إليك، والله عذِيرنا منك".

أما أهل المدينة ومن والاهم من الأعراب فقد بعثوا إليه مرة أخرى يدعونه إلى التوبة، ويطالبونه بأن يعطيهم ما يلزمهم من حق الله وإلا قتلوه!

قالوا له جميعا:" إنك لا تريد أن تعاقب مروان على ما اقترفه من غدر وخيانة وفساد في الأرض باسمك، وما تريد أن تسلمنا إياه".فقال:"لا والله ما أسلمكم مروان لتقتلوه!"قالوا:"ألا تريد أن تعاقب مروان بجرمه وغدره وتحريضه على القتل، وأنت ضربت من قبل رجالاً من أصحاب رسول الله ❐ وغيرهم بغير ذنب إلا أنهم

يعظونك ويأمرونك بمراجعة الحق، ويستنكرون من أعمالك! فاقتص من نفسك لمن ضربته وأنت له ظالم". قال: "الإمام يخطئ ويصيب، فلا أقتص من نفسي لأني لو اقتصصت لكل من أصبته بخطأ أهلك نفسا!" قالوا: "إنك قد أحدثت أحداثا عظاما فاستحققت بها الخلع، وإذا كلمت فيها أعطيت التوبة، ثم عدت إليها". فقال: "إني والله الفقير إلى الله الخائف منه، وأنا أتوب ولا أعود إلى شيء كرهه المسلمون". قالوا: "كيف نقبل توبتك وقد بلونا منك أنك لا تعطى من نفسك من ذنب إلا عدت إليه".

وكان عثمان رضي الله عنه توابا أوابا، دامع

الاستغفار. وأدركت نائلة بنت الفرافصة أن زوجها سيقتل

عطشا وجوعا وصبرا، وأن أهل الدار هالكون معه جميعا، فنصحته أن يرسل إلى عِلي بن أبي طالب ليأتيه من حيث نفاه في ينبع. وقالت له: "أتقرب منك مروان بن الحكم وتقصي ابن عم رسول الله ﷺ عِلي ابن أبي طالب؟!" فقال مروان محتجا: "أقول يا أمير المؤمنين؟" فزجره عثمان، وكأنه أدرك آخر الأمر أن نصائح مروان تكاد تورده موارد التلف.. وقال

له:"لا تقل شيئًا ولا تفتح فاك فض الله فاك..واتركني الساعة"..

وأقبل عثمان على زوجته نائلة يسألها النصيحة، و ▯ه يـ▯م الثائرين ووعيدهم يقتحم عليها أسوار القصر!!

ونائلة الآن أحب زوجاته إليه، وهي امرأة ذات جمال وعقل وكمال وحكمة، وقد تزوجها عثمان وهو شيخ كبير...وأحبت هي عثمان في شيخوخته، وآزرته في محنته.

أما كيف تزوجها وهو أمير المؤمنين، يعيش في المدينة، وهي تعيش مع أهلها في ضياع وقصور بالشام، فقصتهما أن ابن عمه سعيد بن العاص حين كان أميرا للكوفة تزوج هندا بنت الفرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبه، فتحدث الناس بطاعتها، وحفظها لزوجها، وتفانيها في خدمته.إلى حسن فائق كان حريا أن يجعلها تدل عليه! فبلغ ذلك عثمان فكتب إليه:"قد بلغني أنك تزوجت امرأة يثني الجميع عليها، فاكتب إلى▯ نسبها وجمالها". فكتب إليه سعيد:"أما بعد فإن نسبها أنها بنت الفرافصة ابن الأحوص، وجمالها أنها بيضاء مديدة".فكتب إليه عثمان:"إن كانت لها أخت فزوجنيها".فبعث سعيد إلى الفرافصة يخطب

إحدى بناته لعثمان رضي الله عنه، فأمر الفرافصة ابنه "ضبا" فزوجه نائلة، وكان ضبا أخوها مسلما، والفرافصة أبوها نصرانيا وأسلمت نائل.وزفت إلى أمير المؤمنين.

ونصحها أبوها وهو يودعها لتزف إلى عثمان:"يا ابنتي إنك تقدمين على نساء من نساء قريس، هن أقدر على الطيب منك، فاحفظي عني خصلتين:تكحلي، وتطيبي بالماء حتى تكون ريحك ريح من أصابه مطر".

وقد جمعت إلى الجمال الرائع كمال العقل..ولقد نازعها مروان التأثير على رأي عثمان، ولكنه عندما ضاقت عليه الأمور وادلهم ـتبما أخذ به من مشورة مروان، عاد إلى رأيها.

قالت له ومحاصروه يخيرونه بين الاستجابة لمطالبهم أو القتل:"عمرك الله كم نصحت لك أن تقضي عنك مروان!وقلت له إنك متى أطعته قتلوك!فاتق الله فأرسل إلى عِلي بن أبي طالب فاستصلحه لنفسك واسترضه فإن له قرابة منك، والناس يطيعونه وما من أحد من العرب أو أهل الأمصار يعصيه وأنت تعرف".

وأبدى عثمان بعض التردد فقد لا يجيبه عِلي ، وقد لا يتصدى للناس، بعد ما كان من تعهده للناس أن الخليفة سيعمل ما يرضيهم.ويقصي عنه بطانة السوء!!

قالت نائلة:"أفٍ لهم يا أمير المؤمنين:!أقصهم عنك هونًا فما غلبوك على عقلك وقلبك إلا لأمر لهم فيه مصلحة، وللمسلمين فيه مضرة، أرسل إلى عِلي فاستعتبه، فخلقه يأبي عليه أن يخذلك، وتقواه ستدفعه إلى غوثك.ألم يقل فيه الرسول ❐ :عِلي إمام المتقين؟فناشد فيه تقواه!وقد علمت العرب أنه فارسها فناشد فيه أخلاق الفروسية.فإنك منذ علمتني مكارم الأخلاق التي جاء بها الإسلام ما أرى أحدا بعد الرسول ❐ أحرص عليها من ابن عمه عِلي بن أبي طالب.أليس هو القائل:"من شكا الحاجة إلى مؤمن فكأنه شكاها إلى الله.فلا تشك إلا لعِلي ، وأقص مروان".

قال عثمان:"أأغدر بابن عمي وكاتبي ووزيري مروان بن الحكم!".قالت نائلة:"إنك لن تغدر به!فما ضرك إن صنعت هذا؟الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله"!قال:"هذا قول عِلي يا نائلة".قالت نائلة:"أرسل إليه يغثك يا أمير المؤمنين وينفس عنك فهو القائل:كفارات الذنوب العظام إغاثة

الملهوف والتنفيس عن المكروب.لقد وضعت نفسك مواضع التهمة باتباع مشورة مروان.وكما قال عِلي:من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن إلا نفسه، وإنه ليصدق عليك قوله:رب ملوم لا ذنب له!"قال:"وهو القائل يا نائلة:إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى أَفَن وعزمهن إلى وهن".

قالت:"وهو القائل:من استقبل وجوه الآراء، عرف مواقع الخطأ.فلا والله لا أدعك منذ اليوم لرأي مروان وحده ليغلبك على حكمتك، ويضعك مواضع التهم، فتلام بل تقتل بلا ذنب إلا ذنبه!أرسل إلى عِلي ينجدك فهو لا يقول غير ما يعمل وهو القائل:أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلا ويد الله بيده ترفعه".

فقال عثمان:"سأبعث إليه، ونرى ما سيكون إن شاء الله.وما شاء الله كان".

فقالت نائلة:" لا تسأل عما يكون، ففي الذي كان لك شغل!نعمت النصيحة ومن وعظ بها على المؤمنين!".

***

قام عثمان فكتب إلى عِلي في ينبع مستصرخًا مستغيثاً:"أقبل فقد بلغ السيل الزبى، وارتفع أمر الناس في

شأني فوق قدره، وزعموا أنهم لا يرضون بشيء مني دون دمي!وطمع في حتى العاجز الذي لا يستطيع أن يدفع عن

نفسه. وإنك لم يفخر عليك
كفاخر

ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب وقد
كان يقال أكل السبع خير من افتراس الثعلب
فأقبل عِلي أو لي!
فإن كنتُ مأكولاً فكن أنت آكلى
وإلا فأدركني ولما أمزق!
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

ولم يكد عِلي كرم الله وجهه يقرأ هذه الرسالة حتى هرع إلى عثمان رضي الله عنه، واخترق إليه مثل السد المنيع من المحاصرين، فتنحى له الناس، بما له في قلوبهم من هيبة ومكانة، وسأل الناس:"ويحكم أتريدون قتل عثمان؟"فقالوا:"ما أردنا إلا مروان، فأما قتل عثمان فلا".

وعاد إلى داره وهو يخشي على عثمان القتل، فقال لولديه الحسن والحسين:"اذهبا بسيفكما حتى تقوما على باب عثمان، ولا تدعا أحدا يصل إليه".

وتكلم إلى كبار الصحابة وحثهم علىإغاثة أمير المؤمنين ونجدته، فخف إليه بعضهم، أما شيوخهم فبعثوا أولادهم بالسيوف ليمنعوا الناس أن يدخلوا على عثمان.

واجتمع حول دار عثمان نحو مائة في سلاحهم ليحموه.

وسمع عثمان بما يجرى خارج الدار فقال:اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله فإنه حمل على هؤلاء وألبهم.واالله إني لأرجو أن يكون منها صفرا وأن يسفك دمه، إنه انتهك مني مالا يحلّ له.

وعاد الناس في اليوم التالي يسألون عثمان أن يعاقب مروان أو يخرجه إليهم..كانوا أكثر من ألف شاهري السيوف، ومعهم النبال.فسألهم عِلي لماذا يمنعون عنه الماء، وكان قد جاء بعدة قرب، أدخلها إلى عثمان، وكلمه في أمر مروان، فرفض عثمان أن يسلمه أو يعاقبه أو يمسه، وخرج عِلي مهموما، فعلم أنه فشل، وشكا المحاصرون لطلحة أن عليا جاء بالماء والطعام على باب الدار لعثمان، فما استطاعوا رده لهيبته، فقال طلحة لعِلي "ما أنت وهذا"؟وجرى بينهما كلام شديد.

وقف عِلي يخطب في الناس:"أيها الناس، إن الذي تفعلون لا يشبه أمر المؤمنين، ولا أمر الكافرين، فلا تقطعوا عن هذا الرجل بالماء ولا المادة، فإن الروم والفرس لتأسر فتطعم وتسقي".

وجاء بعض الصحابة في عيونهم الدمع يسألون الناس أن ينصرفوا عن عثمان..ولمح الأشتر دموعا في عيون بعض الصحابة، فقال لهم:"تبعثون إلينا فإذا حضرنا أقبلتم تعصرون عيونكم؟أليس هذا كتابكم؟".

ومضى الأشتر يقرأ" من المهاجرين الأولين وبقية الشورى.إلى من بمصر والكوفة والبصرة من الصحابة والتابعين.أما بعد، أن تعالوا إلينا، وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها، فإن كتاب الله قد بدل، وسنة رسول الله قد غيرت، وأحكام الخليفتين قد بدلت.فناشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان، إلا أقبل إلينا، وأخذ الحق لنا، وأعطاناه، فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح، الذي فارقتم عليه نبيكم، وفارقكم عليه الخلفاء، غلبنا على حقنا، واستولي على فيئنا، وحيل بيننا وبين أمرنا، وكانت الخلافة

بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة، وهي اليوم ملك عضوض، من غلب على شيء أكله".فأقسم الصحابة أنهم ما بعثوا هذه الكتب..من إذن الذي أرسل يحرض على عثمان ويستثير الناس، ويستغل سخطهم على مظالم عمال عثمان؟!

***

واستمر الحصار أياما، وعلِي لا يستطيع أن يقنع عثمان بإرضاء الناس، ولا يستطيع صرف الناس عنه، فاعتزل..

وبعد أيام من الحصار أطل عثمان على الناس فقال:"ما تنقمون علي وما من يوم إلا وأنتم تقسمون فيه خيرا!؟هل تعلمون أني اشتريت بئر رومة من مالي ليشرب منها المسلمون، فلم تمنعونني أن أشرب منها؟هل تعلمون أني اشتريت أرضا فزدتها في المسجد، فهل علمتم أن أحدا منع أن يصلي في المسجد غيري؟!".

وجاءت الأنباء إلى المدينة أن جيش الشام وأجناد البصرة أصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة، فاستغل غضب الناس، وأصروا على أن ينتهوا من أمر عثمان قبل أن يأتيه مدد الشام والبصرة، فزحفوا على باب الدار.فأغلقها

المدافعون دونهم، وحمل واحد منهم علىأحد المحاصرين فقتله، واحتمي بالدار، وجن جنون المحاصرين وطالبوا بتسليم القاتل، وإلا اقتحموا الدار، فقال عثمان:"لا أسلم رجلاً نصرني إلى رجال يريدون قتلي!".

فرمى المحاصرون بالسهام من كل جانب، فأصيب الحسن بن عِلي بسهم فخضبه الدم، وأصاب مروان سهم وهو في الدار، وخضب محمد بن طلحة، وشج قنبر مولى عِلي، فخشي محمد بن أبي بكر -وكان من قواد الحصار - أن يغضب بنو هاشم للحسن فيشعلوها فتنة، فأمر رماة السهام أن يكفوا.

وحاول عمار بن ياسر أن يكف الناس عن الحصار وقال لهم:"أتمنعون عثمان ماء بئر رومة وهو الذي اشتراها بماله وسقاكم منها بلا ثمن؟".

ولكن المحاصرين أبعدوه، وكان شيخًا في نحو التسعين، وشددوا ضغطهم على الدار ليقتحموها، وتهيأ من في الدار للقتال، فقال لهم عثمان:"ما أحب أن ألقى الله وفي عنقى قطرة دم مسلم".وطلب من حماته أن ينصرفوا جميعا، فانصرف بعضهم ودخل عليه الحسن بعد أن عولج فقال

لعثمان:"مرني بما شئت يا أمير المؤمنين فإني طوع يديك".قال عثمان:"ارجع يا ابن أخي، اجلس في بيتك حتى يأتي الله بأمره!إن أباك الآن لفي أمر عظيم من أمرك فأقسمت عليك لما خرجت إليه"ولكن الحسن خرج يدافع أمام الداء مع القلائل الذين بقوا!...وأحرق المحاصرون باب الدار، واستبسل المدافعون عن عثمان.

فلما عجز المحاصرون عن اقتحام الدار تسلقوا دارا مجاورة، ودخلوا على الخليفة مخدعه، وما معه غير امرأته، فضربه رجل على مفصله فقال عثمان:"إنها أول يد كتبت القرآن".

وكان محمد بن أبي بكر قد دخل عليه، وقال له:"ما أغني عنك بنو أمية!".

فقال له عثمان:"يا ابن أخي لو رآني أبوك رضي الله عنه لبكاني، ولساءه مكانك مني!"فخجل محمد، وخرج كسيفًا، منكس الرأس من الحياء، مثقل القلب من الندم، وحاول أن يصرف المحاصرين عن أمير المؤمنين ولكن الوقت قد فات.فقد ضربه رجل آخر وهو يقول:"سجنت أبي حتى مات في السجن".

ودعا عثمان بوضوء فتوضأ، ووضع المصحف في حجره وشرع يقرأ حتى وصل إلى الآية: (فسيكفىكم الله وهو السميع العِليم).فتكاثروا عليه وامرأته تدافع عنه، حتى أجهزوا عليه.

وتعالى صراخ النساء، وخرجت امرأته إلى الذين يحرسون الدار فقالت:"إن أمير المؤمنين قد قتل".وكانت يداها تقطران دما فقد قطعوا أصابعها وهي تدافع عنه، ونهبوا كل ما في الدار قائلين:"أيحل دمه ويحرم متاعه!".ثم نزعوا الحل عن أجساد النساء!..في طرقات المدينة..وفروا هاربين.

وبلغ الخبر علِيا وهو في المسجد بين القبر والمنبر فقال:"تبا لكم آخر الدهر!".

واندفع إلى دار عثمان، وأكب عليه يبكي.

وأقبل المهاجرون الذين عارضوا عثمان من قبل، وعلا نشيجهم أسفًا على عثمان!

وغشي على عِلِي من شدة الحزن والبكاء.فلما آفاق ضرب الحسن والحسين ضربا شديدا، وشتم عبد الله بن الزبير، ومحمد بن طلحة، وسائر أبناء الصحابة وغيرهم من المهاجرين والأنصار الذين كانوا يحرسون عثمان.

وخرج عِلِي شاردا من شدة الحزن، لا يدري ما يفعل، فقال له طلحة:"مالك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين؟"قال:"يقتل أمير المؤمنين ولم تقم عليه بينة ولا حجة؟".فقال طلحة:"لو دفع مروان لم يقتل"فقال عِلي :"لو دفع مروان لقتل الناس مروان قبل أن يحاكم؟!".

وأتى عِلي داره فأغلقها عليه.

وكتبت نائلة إلى معاوية وأهل الشام تصف ما حدث لعثمان، وبعثت مع الرسول قميص عثمان مخضبا بالدم، وأناملها المقطوعة!!

ودخل أهل مصر الدار فوجدوا عثمان مقتولاً، فندموا وبكوا.وأقسموا أنهم ما كانوا يريدون قتله حقًا، وإنما كانوا يهددونه ليغير سياسته.

أما القتلة فقد انطلقوا في المدينة شاهري السلاح، ومضوا إلى بيت المال، وهو مكتظ بالآلاف المؤلفة من دنانير الذهب، فهرب حراس بيت المال، وانتهبه القتلة!!..

ولقد بكى الناس عثمان إلا قليلاً.منهم عمرو بن العاص.

وعلم وهو في ضيعته بفلسطين أن عثمان قد قتل فقال: "أنا أبو عبد الله!إذا حككت قرحة نكأتها!إن كنت لأحرض عليه، حتى أني لأحرض عليه الراعى على رأس الجبل!"..

وكانت عائشة وهي في الحج قد قالت لابن عباس:"يا ابن عباس أنشدك الله فإنك قد أعطيت لساناً إزعيلاً(فصيحا ذلقًا)أن تخذل عن هذا الرجل وأن تشكك فيه الناس، فقد بانت لهم بصائرهم.وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح، فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر".فقال:"يا أمه(يا أم المؤمنين لو حدث بالرجل حدث ما فزع الناس إلا صاحبنا"(يعني علِيا).فقالت:"إِيها عنك، إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك".

واجتمع أصحاب رسول الله ❐ من المهاجرين والأنصار، وفيهم طلحة، والزبير الذي عاد إلى المدينة بعد مقتل عثمان، فأتوا علِيا وهو في داره قد أغلق عليه بابه، فقالوا:"إنه لا بد للناس من إمام".قال:"لا حاجة لي بأمركم، فمن اخترتم رضيته".

قالوا:"لا نختار غيرك".قال:"أن أكون وزيرا خير من أن أكون أميرا".قالوا:"إنا لا نعلم أحد أحق بالأمر منك!ولا أقدم سابقة، ولا أقرب قرابة من رسول الله ❐ ".

وذهب إليه مثل أمواج من الناس من أهل المدينة وأهل الأمصار والأعراب فقالوا:"نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام، وما ابتلينا له من بين القرى!فقال عِلي:"دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان، لا تقوم به القلوب، ولا تثبت عليه العقول"!فقالوا:"ننشدك الله!ألا ترى ما نحن فيه!ألا ترى الإسلام؟ألا ترى الفتنة!؟ألا تخاف الله؟"

فقال:"إن أحببتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا أحدكم إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه".

وانصرف عنه الناس ليأتوه في الغد، فتزاحموا على بابه، منذ الصباح التالي.وهو يمتنع عليهم، فقالوا:"والله ما نحن بتاركيك حتى نبايعك".قال:"ففي المسجد ولا تكون البيعة إلا عن رضا المسلمين جميعا".

وخرج إلى المسجد، فكان أول من بايعه طلحة فقال:"إنا الله!أول من بدأ البيعة يد شلاء.لا يتم هذا

الأمر".(وكان طلحة قد اتقى النبل بيده عن النبي في أحد، فشلت أصابعه)وبايعه الزبير بعد طلحة.فقال لهما علي: "إن

أحببتما أن تبايعاني، وإن أحببتما بايعتكما".قالا:"بل نبايعك". وانطلقت الأصوات ترج المدينة في فرح بالبيعة لعلي ، والناس يكبرون ويهللون.. من خلال هذا الضجيج المستبشر انطلق صوت حزين باكٍ في نبرته نذير موحش!! كان هو حسان بن ثابت يختم قصيدته في رثاء عثمان بقوله:

لتسمع وشيكاً في ديارهم

الله أكبر واثارات عثمانا!

***

الفصل العاشر

بعد البيعة

بعد مقتل عثمان، حكم الثائرون المدينة وأرهبوا أهلها، وظل المسلمون خمسة أيام بلا إمام!

فلا عِلي بن أبي طالب قبل البيعة، ولا الناس يعدلون عنه إلى غيره!

واضطربت الأمور في المدينة وفي الدولة كلها، حتى طمع الروم في استرداد ما فتحه العرب من بلادهم، فقاد قسطنطين بن هرقل ملك الروم أسطولاً من ألف سفينة، يريد بلاد المسلمين، فداهمهم في البحر الأبيض ريح عاصف وإعصار، فغرق الأسطول!ونجا قسطنطين فأتي صقلية، فصنع له الذين كانوا بها من الروم حماما، فقتلوه فيه، وقالوا:"قتلت رجالنا".

وخشي عِلي كرم الله وجهه أن يثب الأعداء على الثغور، فيحتلوا أرض المسلمين، كما خشي أن يعود الناس من موسم الحج إلى أمصارهم، وهم بلا خليفة، فيستقل كل أمير بالولاية التي يحكمها فتتمزق الدولة، وتتفرق جماعة

المسلمين!..كما خشي أن يفتك الثوار بالوادعين مـن أهـل

المدينة.. من أجل ذلك قبل البيعة لأنه لابد للناس مـن إمـام
يحكم بالعدل، ويحمي الذمار، ويوزع الأموال بالقسط، ويقيم حدود الله، ويأخذ الكتاب بقوة ويمسك بقبضة قادرة مـوازين الأمور، ويقيم الحساب، ويفرض هيبة الأحكام..
ولم يكد عـِلِي يصبح إماما وأميرا للمـؤمنين حتـى قـال:"أيهـا النـاس أخرجـوا عـنكم الأعـراب".وقـال للأعراب:"عودوا إلى مياهكم".وطالـب أهـل الأمصـار أن يعودوا إلى ديارهم..وبدأ بعضهم يخرج من المدينـة ولكـن المدينة ما برحت تحت وطأتهم..وإن كان الإمام ليجـد فـي استخلاصها منهم يوما بعد يوم..
وخطب الإمام عِلي أمير المؤمنين في الناس:"إن الله تعالى أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر، فخذوا بـالخير ودعوا الشر.أدوا الفرائض إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة، إن الله حرم حرما غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم علـى الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل أذى المسـلم إلا

بما يجب.بادروا أمر العامة...اتقوا الله عباد الله في عباده وبلاده.إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون)".

وما كان لدى أمير المؤمنين إلا خيار بين أمرين لا ثالث لهما:فإما أن يكون إمام بكل ما في الإمامة من ورع الخلافة، وجلال القدوة، والأمانة والقوة، وإما أن يكون ملكًا بكل ما في الملك من زخرف وسطوة!..

أما الجمع في دولته بين ورع الإمامة وأبهة الملكية، فمن هنا جاءت مأساة عثمان رضي الله عنه، وهو القانت ذو النورين!!..يصوم الدهر، وما يكاد يشبع من طعام ثم يمنح أبا سفيان مائتي ألف دينار، ويسمح لأعوانه أن يتخذوا القصور والضياع، وأن يلبسوا الديباج!وهو بعد يبيحهم من ألوان الترف والمتاع كل ما حرمه عليهم أبو بكر وعمر واستهجنه عِلي !

ثم إنه لتصدق بماله، ويغيث به المسلمين المرة بعد المرة، ولكنه يوم قتل وجدوا عند خازن ماله نحو ألف ألف درهم وخمسين ألف دينار..!..غير ما خلفه رضي الله عنه من ضياع في حنين ووادي القُرى وغيرها، وما خلف أبو بكر أو عمر من قبله إلا دراهم معدودات!!..

وعلى الرغم من أنه أعطى بعض الناس ما أوخذ به،

فلم يحفظ له هؤلاء فضله عليهم..

منح طلحة ضياعا في العراق، كانت تدر عليه ألف دينار

كل يوم، حتى إذا حاصره الثوار,ورأي طلحة يحرضهم عليه، أخذ يبكي ويتوجع لما يفعله به طلحة ولكم دعا عليه الله!!وكان يقول:"ويلي من طلحة!."أعطيته كذا وكذا ذهب

وهو يروم دمي.اللهم لا تمتعه!ولقه عواقب بغيه!"

ورأي الإمام عِلي أن عثمان كان حريا بأن ينجو، على الرغم من كل شيء، لو أنه أقصى مروان وعاقبه، وعزل بعض عماله وحاسبهم، ورد إلى بيت المال بعض ما أخذه أقاربه!!

في اللحظات المتوترة من الحصار، أصبح عثمان صائما فقال لامرأته نائلة إن أبا بكر وعمر جاءاه في الرؤيا فبشراه أنه سيفطر معهما الليلة!!

وفي تلك اللحظات العصيبة، كان المحاصرون يهددونه بالقتل، ولا يريدون إلا العزل!وصرف عثمان من يحرسونه من المهاجرين والأنصار وقال لهم:"أنتم في حل من نصرتي".وكان بين المحاصرين عدد من الصحابة..

فلم يبق أمام باب داره إلا القليل من أنصاره، فيهم الحسن بن عِلي وبعض أبناء الصحابة!

كان في وسع المحاصرين أن يقتحموا الباب إن أرادوا،

ولكنهم لم يفعلوا!..

وتقدم صحابي منهم يناشد عثمان أن يعتزل، فيجنب الناس الفتنة، فإذا برجل من أنصار عثمان يرميه بسهم فيقتله!فيحتدم غضب المحاصرين ويطالبون عثمان بأن يسلمهم القاتل أو يقتص هو منه، فهو ما زال ولي الأمر!..

ولكنه أبى، وقال:"لم أكن لأقتل رجلاً نصراني، وأنتم تريدون قتلي"!..

وهكذا تسور بعضهم عليه الدار من الدور المجاورة!
ما كان هؤلاء الذين قتلوه من الصحابة ولا من أبنائهم ولا من أهل التقوى..بل كانوا أعداء الإسلام!

على أن عثمان رضي الله عنه هو الذي صنع مأساته ونهايته الفاجعة بنفيه.

ذلك أنه أخذ نفسه بورع الإمامة والخلافة والسنة الشريفة، ولكنه جعل أقاربه وعماله الجبارين على رقاب الناس، فأخذوا الرعية لا بسياسة الإمامة الورعة، بل بسياسة الملك العضوض!!ورأى الخليفة أن البر بذوي القربى ألا يسوءهم، فتركهم يحبسون مخالفيهم ويضربونهم بالسياط، وهم من خيرة الصحابة البررة..فأثارت مظالمهم ثائرة الناس على الخليفة، ووجد أعداء الإسلام في تفرق الشمل ثغرة تسللوا منها..!

وعلى الرغم من كل شيء، فإن علِيا كرم الله وجهه، ليذكر الناس أنه جاء عثمان رضي الله عنه في اللحظات المعذبة، مهتما بعمامة رسول الله ، ومعهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهم أجمعين، فحمل عِلي ومن معه على الناس حتى فرقوهم عن دار الخليفة.

وقال له علـي: "لا أرى القـوم إلا قاتليـك، فمرنـا فلنقاتل".

فقال عثمان: "أنشد الله رجلاً رأي الله حقـًا، وأقر أن لى عليه حقـا ألا يريق بسببي قطرة من دمه"!..

فخرج عِلي إلى المسجد، وترك ولديـه مـع أبنـاء الصحابة يحرسون دار عثمان، فلما حضرت الصلاة نـاداه الناس: "يا أبا الحسن! تقدم وصـل بالنـاس". فقـال: "لا واالله لا أصلى بكم والإمام محصور!" فصلى وحده..

عِلي يذكِّر الناس بهذا، والناس يذكرون أنها لم تكـن غير ساعات حتى جاء علِيا نعى عثمان، فبكى قائلاً: "تبا لكـم آخر الدهر"!

وأسرع إلى دار عثمان، وكان منه ما كان!

ما برح عِلي يتذكر كل هذه الأحداث الملحة المخيفة، والناس يذكرون! حتى إذا بايعوه وتولى الأمر. قـرر أن يبـدأ بالتحقيق في مقتل عثمان، ويقتص من القتلة.

وقرر أن يعيدها إمامة وخلافة متأسيا بمعلمه العظيم رسول الله ❐ ..

وإنه ليتذكر الخليفتين أبا بكر وعمر، ويعاهد نفسه أن يعود إلى خير ما كان عليه!

لو أن عثمان أخذ بسياسة عمر، كما أخذ عمر بنصيحة أبي بكر:"احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ❐ الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم، وأحب كل امرئ لنفسه!فلتشتد عليهم عند زلة واحد منهم، وأعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله"!!..

ليت الخليفة المقتول كان قد تأسى بعمر مع عماله..ولكنه كان رفيقًا بهم، فرتعوا حتى سخطت الرعية.

يجب أن يعيد الإمام الجديد إذن إلى إمارة المؤمنين وضاءة الإمامة وتقواها وعزمها وعدلها الصارم، وحزم الخلافة وورعها وحسمها في مواجهة المتكالبين على الدنيا، الذين وصفهم أبو بكر بقوله:"انتفخت أجوافهم، وطمحت أبصارهم، وأحب كل امرئ منهم لنفسه"..هؤلاء الراغبون في أن تكون الولاية على الناس سطوة ملك عضوض!.

من أجل ذلك كان أول ما يشغل بال عِلي عزل الولاة الظلمة، ورد ما أخذوه بغير حق من بيت المال، وإعادة توزيع الثروة على الأمة بالعدل والقسطاس:كل وبلاؤه..كل

وعمله..كل وحاجته..وليفعلن ما وعد به عمر ولم يمهله القدر ليفعله:"أن يرد فضول الأغنياء على الفقراء".إعمالاً للحديث الشريف الذي يعني أن من كان له فضل مال فليصدق به على من لا مال له!..

لقد اشتد عمر، فوقف حائلاً بين قريش، وبين نزعاتها ومطامعها في دنياها الجديدة، ولو فعل عثمان مثله، ما اضطربت الدنيا، ولما استبد المترفون!..فلابد لهم من قارعة!!

***

في أول جمعة بعد البيعة لعلي.اجتمع الناس في المسجد، فأبدوا الندم والتأسف على عثمان رحمه الله!

وأكثر الناس على طلحة والزبير.

قال الناس لهما:"أيها الرجلان!قد وقعتما في أمر عثمان!فخلِّيا عن أنفسكما".

فقام طلحة فحمد الله وأثني عليه ثم قال:"أيها الناس، إنا والله ما نقول اليوم إلا ما قلناه أمس:إن عثمان خلط الذنب بالتوبة حتى كرهنا ولايته، وكرهنا أن نقتله، وسرنا أن نكفاه، وقد كثر فيه اللجاج، وأمره إلى الله!".

ثم قال الزبير:"أيها الناس، إن الله قد رضي لكم الشورى، فأذهب بها الهوى، وقد تشاورنا نحن أهل الشورى وأهل بدر، فرضينا علِيا فبايعناه، ومن رضي به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة، فمن لم يبايعه منكم فليبايع!وأما قتل عثمان فإنا نقول فيه:أمره إلى الله، وقد أحدث

أحداثا والله وليه فيما كان!".

فلما بايع من بقي من عامة الناس لم يجد الإمام عِلي

أحدا من بني أمية في المسجد.

وأبدى الإمام عجبه من بني أمية!ذلك أن شيخهم أبا سفيان، جاءه بعد أن بايع الناس أبا بكر، ورضي به الأنصار، فصاح مستنفرا مستفزا، مستنكر أن تخرج الخلافة من بني هاشم!!

في الحق أن العباس كان يرى خلافة رسول الله حقا لعِلي بن أبي طالب..ولقد شجعه على ذلك تشيع عدد كبير من الأنصار وكل شيوخ بني أمية لعِلي..وما شايع بنو

أمية عليا إلا تعصبا للقبيلة..فالعهد بالجاهلية ونعراتها قريب، وبنو هاشم رهط عِلي والعباس أبناء عم بني أمية وكلهم بنو عبد مناف..وبنو عبد مناف هم سادة قريش فكيف يصبح

لغيرهم الملك؟!..من أجل ذلك رأي أبو سفيان أنه من إذلال بني عبد مناف أن يخرج الأمر إلى بني تميم قبيلة أبي بكر، ثم إلى بني عدى قبيلة عمر، وهما ما هما بالقياس إلى بني عبد مناف، أكثر قبائل قريش مالاً، وأعزها نفرا!..

فلما أوصى عمر بعد مقتله بالشورى بين السنة وفيهم عثمان بن عفان، جهد بنو أمية حتى تمت له البيعة، فهو من رؤسائهم، وزعموا أنهم لا يرضون بعِلي -على الرغم من فضله وقرابته ومكانته من الرسول-لأن النبوة والخلافة ينبغي ألا يجتمعا في بني هاشم!..

لقد ظفروا بالنبوة، فليظفر بنو أمية بالخلافة!!

ولقد أدرك عِلي كرم الله وجهه خطر هذه النعرة الجاهلية عندما قال له أبو سفيان عميد بني أمية بعد البيعة لأبي بكر:"ابسط يدك أبايعك".فردها عِلي قائلاً:"إن تريد إلا الفتنة!"ثم قال مناهضا حمية الجاهلية وتعصبها القبلي:"أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة".

بعد أن بويع عِلي إماما، هرب مروان ومن معه من رؤساء بني أمية وكانت هناك عائشة أم المؤمنين..بعد أن

فرغت من الحج والعمرة قال حين علمت بمقتل عثمان:"إيه صاحب الأصبع(تعني طلحة)!الله أبوك.أما أنهم وجدوا طلحة كفؤا لها.إيه أبا شبل!إيه يا ابن عم!"

ولكنها علمت وهي في الطريق إلى المدينة أنهم بايعوا عليا.

فأمرت أم المؤمنين برد ركائبها إلى مكة، وراحت تخاطب نفسها وتقول بصوت مرتفع:"قتلوا عثمان بن عفان مظلوما!رحمه الله".فقال لها بعض من سمعوها:"بالأمس كنت تحرضين عليه واليوم تبكينه!ألم نسمعك تقولين أبعده الله؟!لقد رأيناك من أشد الناس عليه حتى قتل، فلما لم يبايع الناس ابن عمك طلحة ولا زوج أختك الزبير، بكيت عثمان يا أم المؤمنين؟!"فقالت:"والله كنت من أشد الناس عليه، ولكني نظرت في أمره فرأيتهم استتابوه!، حتى إذا تركوه كالفضة البيضاء، أتوه صائما فقتلوه!..".

***

أما ما كان من أمر الناس بالمسجد، فقد بايعوا جميعا إلا سبعة نفر من الأنصار، فيهم زيد بن ثابت، حسان بن ثابت، فقد أقروا أن يعتزلوا وألا يحضروا البيعة..وأصبح

عِلِي إماما وأمير للمؤمنين، بجماع أهل الشورى وأهل بدر، وهم أصحاب الحق الأول في اختيار ولي الأمر، فمن رضوا به كان هو الخليفة، وأجمعت الكثرة الكاثرة من المهاجرين والأنصار عِلي البيعة..ورد طلحة إليه مفاتيح بيت المال، وما كان أخذه من دار عثمان من خيل وإبل.

أما الذين هربوا من بني أمية، والأنصار السبعة، فقد فر بعضهم إلى معاوية فلاذوا به وأجزل لهم العطاء، فوق ما كان عثمان رضي الله عنه قد أعطاهم، ودفع النعمان ابن بشير إلى معاوية قميص عثمان مضرجا بالدم وفيه أنامل نائلة بنت الفرافصة التي قطعها القتلة وهي تدافع عن زوجها..

***

كان معاوية والذين هربوا إليه فرارًا من بيعة عِلي

يعرفون أن عليا إذا أصبح خليفة، فسيحملهم على الزهد، ويسترد منهم ما نالوه أيام عثمان، وسيحرمهم من كل متاع، وكل مآربهم في حياتهم الجديدة الرغدة، وسينصر عليهم المساكين، ويظل بهم حتى يفقدوا أبهة الملك، وزخرف الغني، وسطوة الجاه!!..سيكون أشد عليهم من عمر..وإن

بعضهم ليكنز الذهب المكدس، ويملك الضياع الشاسعة، ولديه القصور والضياع والإماء الحسان..وسيسترد عِلي هذا منهم، حتى الإماء!!لأنه يرى ما في أيديهم حقـًا لبيت المسلمين!!

وما كان معاوية ولا مروان، ولا سواهما من بني أمية على خطأ في تقدير ما عسى أن يصنعه عِلي ما إن استقرت له الخلافة والإمامة وإمارة المؤمنين.

فقد وقف يخطب الناس على منبر الرسول، فقال:"أيها الناس، الدنيا دار حق وباطل، ولكل أهل، ألا ولئن غلب الباطل فقديما كان وفعل، ولئن قل الحق فلربما ولعل!!ولقلما أدبر شيء وأقبل!ولئن رد عليكم أمركم إنكم لسعداء.إن االله عز وجل أدب هذه الأمة بالسيف والسوط فاستتروا في بيوتكم، وأصلحوا ذات بينكم، فإن التوبة من ورائكم، وما عَلى إلا الجهاد، ألا وإن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها، فتقحمت بهم النار.ألا وإن التقوى مطايا ذلك حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها، فأوردتهم الجنة، وفتحوا لهم أبوابا، ووجدوا ريحها وطيبها وقيل لهم: (ادخلوها بسلام آمنين)اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هي الجادة عليها يأتي الكتاب وآثار النبوة، إن على الإمام الاستقامة،

وعلى الرعية التسليم.ليس أمري وأمركم واحدا، وإني أريدكم الله وأنتم تريدونني لأنفسكم!وأيم الله لأنصحن للخصم، ولأنصفن للمظلوم...ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم، إن من صرحت له العبر عما بي يديه من المثلات، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات".

ثم قال:"ألا وإن كل ما أقطعه عثمان من مال الله مردود إلى بيت مال المسلمين، فإن الحق قديم لا يبطله شئ، ولو وجدته تفرق في البلدان لرددته!فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق، أقول قولي هذا وأستغفر الله لى ولكم".

فلما سمع أصحاب الإقطاعات والولاة ذلك، خافوه على ما في أيديهم..

وعلق معاوية قميص عثمان على منبر جامع دمشق؛وجمع الناس حوله يبكون ويصيحون، وصاح معاوية بعجز بين من قصيدة حسان:"الله أكبر!واثارات عثمان"وزاد عليها:

ياليت شعرى وليت الطير تخبرني

ما كان شأن عِلي ﷺ وابن عفانا

وأعلن معاوية العصيان، وزعم أنه يطالب عِليا بثأر عثمان، وأنه لن يبايع حتى يسلمه القتلة!وتحدى معاوية عِليا فأرسل إليه كتابا مفتوحا ليس فيه إلا بيت واحد من الشعر القديم:

ليس بيني وبين قيس عتاب

غير طعن الكلى وضرب الرقاب

ودارت حروب هلك فيها كثير من أئمة الدين من المهاجرين والأنصار حتى إذا آل الملك لمعاوية، زار المدينة، ودخل بيت عثمان فما راعه إلا صيحة عائشة بنت عثمان من خلال دموعها الفاجعة:"واأبتاه!".

لقد أصبح معاوية ملكًا، فلَم يأخذ بثأر عثمان، ولَم يقتص من القتلة، وهو يعرفهم؟!!..بل إنه الآن ليصطنعهم، ويغدق عليهم من مال المسلمين، ويقطعه الضياع!! فقال لها:"يا ابنة أخي، إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أمانًا، وأظهرنا لهم حلما تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه، وهو يرى مكان أنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا!ولأن تكوني

بنت عم أمير المؤمنين خيرا من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين".

إن الإمام ليواجه موقفا صعبا حقا، فالثوار يستولون على المدينة..وما قبل الخلافة، إلا لأنه خشي أن ينتشر نبأ مقتل عثمان في الآفاق، ويعود الناس من موسم الحج إلى بلادهم بنبأ مقتل عثمان ودون بيعة لأمير على المؤمنين فيثور كل والٍ في ولايته ويستقل بها، فتتمزق الأمة، وتتفوق الجماعة، وتتحول الدولة الكبرى التي أسسها الإسلام في عهد أسلافه الخلفاء الراشدين الثلاثة إلى دويلات متفرقة متناحرة، فيفشل المسلمون وتذهب ريحهم!!.

من أجل ذلك قبل علي البيعة.فلما أصبح أميرا للمؤمنين ذهب إلى نائلة امرأة عثمان فعزاها وقال لها:"من قتل عثمان؟".قالت:"لا أدري!دخل عليه رجال لا أعرفهم إلا أن أرى وجوههم، وكان معهم محمد بن أبي بكر".

فدعاه أمير المؤمنين، وقد نشأ في حجره فقد تزوج أم محمد عندما مات عنها أبوه، وكان في المهد صبيا.

وسأله الإمام علي فيما ذكرته نائلة فقال محمد:"صدقت، قد والله دخلت عليه، فذكر لي أبي فقمت

عنه، وأنا تائب إلى الله تعالى، والله ما قتلته!.ولا أمسكته ليقتلوه!".

فقالت نائلة:"صدق، ولكنه هو أدخلهم فقتلوه".

دخل وظل محمد يقسم لأمير المؤمنين أنه خرج نادما، وحاول أن يصدهم عنه، وأنه برئ من دم عثمان..فما إلى عثمان وهو ينوي القتل.بل لحمله على اعتزال الأمر!

وصدقت نائلة قول محمد، وصدقت توبته النصوح، كما صدقه الإمام عِلي .

أما الذين قتلوا عثمان، فلا أحد يستطيع أن يعرف من هم على التحقيق.وما زالت المدينة تضطرب بالثوار من الأعراب وأهل الأمصار والغرباء!!

إنها لمشكلة كبرى حقًا..لا يستطيع أن يحلها حتى يستقر له الأمر، وتستمسك السلطة، ويسترد هيبة الدولة.

وبقيت المعضلة الثانية..وهي عزل الولاة الذين ركبوا رقاب الناس، وأججوا باستبدادهم السخط على عثمان، ثم رد ما أخذوه بغير حق من أموال وضياع!.

وخرج إلى المسجد الشريف، وصعد المنبر فحمد الله وأثني عليه وقال:"اعلموا أن لسان صدق يجعله الله للمرء في

الناس خير له من المال.فلا يزداد أحدكم كبرياء ولا عظمة في نفسه...واعلموا أن الدنيا قد أدبرت، والآخرة قد أقبلت...فافزعوا إلى قوام دينكم، وإتمام صلاتكم وأداء زكاتكم، والنصيحة لإمامكم، وتعلموا كتاب الله، واصدقوا الحديث عن رسول الله، أوفوا بالعهد إذا عاهدتم، وأدوا الأمانات وارهبوا عذابه، واعملوا الخير تجزوا خيرا.يفوز بالخير من قدم الخير".

وشرح لهم الإمام معني الحديث الشريف:"لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن أربع:عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وعن علمه ماذا عمل به".

كان الإمام عِلي يرغبهم في البذل ويذكرهم بما تعلموه من الكتاب والحكمة، ويهيئهم لرد ما أخذوه من قطائع إلى بيت المال.

فبدت البغضاء في وجوه البعض، وبان عليهم القلق مما عسى أن يأخذهم به من شدة تذكرهم بشدة عمر!

ثم أتي طلحة والزبير أمير المؤمنين فقالا:"هل تدرى علام بايعناك يا أمير المؤمنين؟".قال؟"نعم.على السمع

والطاعة.وعلى ما بايعتم عليه الخلفاء من قبلي أبا بكر وعمر وعثمان".فقالا:"ولكنا بايعناك على أنا شريكاك في الأمر".قال:"لا ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون".فقال طلحة:"استعملني على البصرة فأكون لك عدة وقوة".وقال الزبير:"ولّنِي الكوفة فأكون على الخيل معك وعلى عدوك".فقال الإمام عِلي:"حتى أنظر ذلك".وكان ابن

عباس حاضرا، فلما خرج قال:"يا أمير المؤمنين أعط طلحة والزبير ما يطلبان". فذكره أمير المؤمنين بما تعلمه من رسول الله ❐ :أن الولاية لا تعطى لمن يطلبها ولا لمن يحرص عليها!

ولكن عبد الله بن عباس، عاد يلح وكان الإمام قد استوزره

في أمر طلحة والزبيرى "أرى أنهما أحبا الولاية، فإن كنت عازلا ًعاملى عثمان على البصرة والكوفة، فاستعمل بدلاًًً منهما الزبير واليا على وطلحة على البصرة،

الكوفة".

فضحك الإمام عِلي ، وقال لوزيره:"ويحك يا عبد الله بن عباس:إن العراقيين بهما الرجال والأموال، ومتي تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع؛ويضربا الضعيف

بالبلاء، ويقويا على القوى بالسلطان!ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية، لكان لي فيها رأي ولو كنت مستعملا أحدا لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام".فقال ابن عباس:"يا أمير المؤمنين.إن معاوية وأصحابه وعصبته وأقرباءه من بني أمية أهل دنيا!إن أبقيتهم في مناصبهم وأبقيت في أيديهم أموالهم وضياعهم، فلن يبالوا من ولي هذا الأمر!وإن تعزلهم، وتسترد منهم ما تحت أيديهم ليقولن:أخذها بغير شورى، وهو الذي قتل صاحبنا، ولا آمن طلحة والزبير أن ينضما إليهم".

وجاء ثلاثة نفر من قريش، هم وجوه أمية، وهم:مروان، وسعيد بن العاص، والوليد بن عقبة، فقال الوليد بن عقبة:"إنك وترتنا جميعا:أما أنا فقتلت أبي صبرا يوم بدر، وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر، وأما مروان فقد شتمت أباه وعبت على عثمان حين ضمه إليه.ونحن إخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف فنبايعك على أن تترك لنا ما أصبناه من إمارة وما في أيدينا من أموال وضياع، وتقتل قتلة صاحبنا".

فغضب الإمام عِلي من هذه المساومة، وأبى أن يعدهم بشيء، ورفض بيعتهم وشروطها، وقال:"أما ما ذكرت

يا وليد من وتري إياكم فالحق وتراكمُ!وأما أن أضع عنكم ما في أيديكم فليس لي أن أضع حق الله عنكم أو عن غيـركم، وأما إعفائى عما في أيديكم فما كان الله والمسـلمين فالعـدل يسعكم، وأما قتلي قتلة عثمان، فلو لزمني قتلهم اليوم لقتلـتهم بالأمس، ولكن لكم أن أحملكم على كتاب الله وسنة نبيه، فمن ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيق، وإن شـئتم فـالحقوا بملاحقكم".فقال مروان:"بـل نبايعـك ونقـيم معـك فتـرى ونرى"!..ولكنهم فروا إلى مكة جميعا..

فخرج الإمام إلى الناس يقول عن بني أميــة:"والله لا يزالون حتى لا يدعوا الله محرما إلا استحلوه، ولا عقـدا إلا حلوه!وحتى لا يبقي بيت مدر ولا وبر إلا دخله ظلمهم (بيت مدر أي مبني من الطوب أو الحجر أو نحوه، وبيت الوبر هو الخيمة)، وحتى يقوم الباكيان يبكيان:باك يبكي لدينه، وبـاك يبكي لدنياه.وحتى تكون نصرة أحدكم من أحـدهم كنصـرة العبد من سيده إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابـه، وحتـى يكون أعظمكم فيها عناء أحسنكم بالله ظنًا، فـإن أتــاكم الله بعافية فاقبلوا وإن ابتليتم فاصبروا، فإن العاقبة للمتقين".

***

عمل الإمام عِلي جهد طاقتـه ليعيـد الوحـدة إلـى المسلمين..إنه ما قبل البيعة إلا من أجل هذه الوحدة، ولكن ها هم أولاء بنو أمية ينشقون وها هو ذا معاوية يوشك أن يمزق الدولة، فينسلخ بالشام!ولئن تمزقت الدولة لأصابها الوهن!!إنه ما من أحد ينسى يوم أجدب الحجاز في عهد عمـر، وكـاد النـاس أن يهلكوا، لولا شعور المسلمين بأن أمتهم أمة واحـدة وأن كل قطر من الأقطار هو مدد لأخيه، وقوة للأمة كلها!

ورحم الله زمانـًا أرسل فيه عمرو بن العاص، عامل عمر بن الخطاب عِلى مصر، قوافل تغيـث أهـل الحجـاز بالطعام والماء والثياب:كان أولها في المدينة، وآخرهـا فـي الفسطاط!!

***

أرسل أمير المؤمنين يطلب البيعة من معاوية للمـرة الثالثة، ويحذر أهل الشام من الشقاق!ولكنه لم يتلق ردا..!

وخلال الاضطراب، أغار أحد أصـحاب معاويـة-واسمه الضحاك-برجاله على الحيرة واليمامة، فنهبوا بيـت المال، وهربوا إلى الشام.فأرسل إليه أخوه عقيل ابـن أبـي طالب كتابا ينبئه فيه بأمر هذه الغارة، ويعـرض عليـه أن

يخرج إليه ليؤيده.فرد عليه الإمام عِلي كرم الله وجهه برسالة جاء فيها:"...إن قريشًا قد اجتمعت على حرب أخيك، اجتماعها على رسول الله قبل اليوم، وجهلوا حقي، وجحدوا فضلي، ونصبوا لي الحرب وجدوا في إطفاء نور الله، اللهم فاجز قريشًا عني بفعالها، فقد قطعت رحمي وظاهرت عَلى ، أما ما ذكرت من غارة الضحاك على الحيرة واليمامة، فهو أذل وألأم من أن يكون مر بها، فضلاً عن الغارة، ولكنه جاء في خيل، فسرحت إليه جند المسلمين، فلما بلغه ذلك ولّى هاربا، فاتبعوه فلحقوه ببعض الطريق، حين همت الشمس للإياب، فاقتتلوا، وقتل من أصحابه بضعة عشر رجلاً ونجا هاربا بعد أن أخذوا منه بالمخنق، ولولا الليل ما نجا!وأما ما سألت أن أكتب إليك فيه، فإن رأيى الجهاد حتى ألقى الله، لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة، لأني محق، والله مع المحق..وما أكره الموت على الحق، لأن الخير كله بعد الموت لمن عقل ودعا إلى الحق. وأما ما عرضت به من مسيرك إلى بنيك وبني أبيك، فلا حاجة إلى ذلك، فذرهم راشدا مهديا، فوالله ما أحب أن تهلكوا معي إن هلكت".

وتنادى الناس، واحتشد الأقوام لنصرة عِلي ، وأرسلوا إليه بذلك وقالوا:"إن في أمرك وأمر قريش عجبا إذ أ َّخروك وقدموا غيرك!".

واحتشد الآلاف من الذين استبشروا بمشرق النور الجديد من العدل والتقوى والمساواة، وكل ما يمثله الإمام عِلي كرم الله وجهه. ولكنه لم يأذن بالخروج بعد حتى يعذر الذين شقوا عصا الطاعة وخالفوا الجماعة، وأشعلوا الفتنة، فأرسل إلى معاوية مرة أخرى وانتظر الرد، وأرسل إلى طلحة والزبير، وقعد في المدينة، يقيم العدل، ويضع دستور الحكم الجديد على أساس من فهمه العميق لأحكام القرآن والسنة، وإدراكه الواسع لحاجات الناس.

وجاءه مال كثير من الخراج، فقال الإمام عِلي:"اعدلوا فيه بين المسلمين جميعا، ولا تفضلوا أحدا على أحد لقرابة أو لسابقة".وكان قد جعل عمار بن ياسر على بيت المال.

فدفع عمار ومساعدوه إلى كل واحد ثلاثة دنانير، لم يفرقوا بين عربي ولا أعجمي، فجاء طلحة والزبير، فسألا عمارا ومساعديه:"ليس هكذا كان يعطينا عمر!فهذا منكم أم

أمر صاحبكم؟".قال عمار:"هكذا أمرنا أمير المؤمنين".فمضيا إليه، فوجداه قائما في الشمس، ومعه أجيره، وقد أمسك كل منهما بأدوات الزراعة، وهو يغرس نخلاً.فقال له:" يا أمير المؤمنين ألا ترى أن ترتفع بنا إلى الظل؟".فجاءهما حيث أَوِيا إلى الظل، فقالا:"إنا أتينا إلى عملك على قسمة هذا الفئ

فأعطوا كل واحد منا مثل ما أعطوا سائر الناس".قال:"وما تريدان؟".قالا:"ليس كذلك كان يعطينا عمر".

قال الإمام علي:"فما كان رسول الله ❐ يعطيكما؟".فسكتا..فقال:"أليس كان رسول الله ❐ يقسم بالسوية بين المسلمين من غير زيادة؟".فسكتا.قال:"أسنة رسول الله أولى بالاتباع أم سنة عمر؟".قالا:"بل سنة رسول الله .ولكن يا أمير المؤمنين لنا سابقة وغناء (نفع)وقرابة فإن رأيت ألا تسوينا بالناس فافعل".قال"سابقتكما أسبق أم سابقتي؟وقرابتكما أم قرابتي؟وغناؤكما أعظم غنائى؟".قالا:"بل أنت يا أمير المؤمنين أعظم غناء وقرابتك أقرب وسابقتك أسبق".قال:"فوالله ما أنا وأجيري هذا في هذا المال إلا بمنزلة واحدة".

قالا:"جئنا لهذا ولغيره فأنت تحرمنا حقوقنا!".فقال لهما:"ألا تخبراني أي شيء لكما فيه حق دفعتكما عنه؟أم أي قسم استأذنت عليكما به؟أم أي حق رفعه إلى أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته، أم أخطأت بابه، والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة(حاجة)، ولكنكم دعوتموني إليها، وحملتموني عليها، فلما أفضيتُ إلى

نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استسن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم فاقتديته، فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما، ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلته، فأستشيركما وإخواني المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما، وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة (التسوية بين المسليمن في قسمة الأموال)فإن ذلك أمر لم أحكم فيه برأيى، ولا وليته هوى مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد فرغ منه، فلم أحتج إليكما فيما قد فرغ الله من قسمه، وأمضى فيه حكمه، فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبى [1]، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر.رحم

---

[1] أعتبه سره بعد ما ساءه، والاسم منه عتبى.

الله من رأى حقًا فأعان عليه أو رأي جوار فرده، وكان عونًا بالحق على صاحبه".وانصرفا عنه مغضبين، وتوجس في نفسه خيفة منهما، وهجس في نفسه خاطر أفزعه:أيمكن أن ينقضا البيعة؟ويلحقا بمعاوية؟!

وأمر بأن يحتشد الناس في مسجد الرسول، ثم خطب الناس فقال:"أيها الناس إنكم بايعتموني على ما بويع عليه من كان قبلي، وإنما الخيار للناس قبل أن يبايعوا، فإن بايعوا فلا خيار لهم، وإن على الإمام الاستقامة وعلى الرعية التسليم، وهذه بيعة عامة، من رغب عنها رغب عن دين الإسلام واتبع غير سبيل أهل هذا الدين!!".

وفرح المساكين والفقراء وعامة الناس فرحا عظيما بالتسوية في القسمة، وبما أحياه أمير المؤمنين من سنة الرسول في هذا الأمر..وفرح الموالي خاصة، ولكن بعض العرب داخل نفوسهم شيء من هذا الأسلوب في توزيع المال!

جاءته امرأتان فقالتا:"يا أمير المؤمنين، نحن امرأتان مسكينتان".فقال لهما:"قد وجب حقكما علينا وعلى كل ذى سعة من المسلمين إن كنتما صادقتين".فلما تبين له صدقهما

قال لأحد أصحابه:"انطلق بهما إلى السوق فاشتر لكل واحدة منهما طعاما وثلاثة أثواب، وأعط كل واحدة منهما من عطائى مائة درهم".فلما ولتا عادت إحداهما فقالت:"يا أمير المؤمنين بما فضلك الله به وشرفك"فقاطعها وقال:"وبماذا فضلني الله وشرفني؟".قالت:"برسول الله ❐ ".قال :"صدقت، وما أنت؟"

قالت:"امرأة من العرب وهذه من الموالي أفلا فضلتني عنها؟".فقال:"قرأت ما بين الدفيتن فلم أجد لولد إسماعيل(العرب) على ولد إسحق فضلاً ولا جناح بعوضة".

وبعد أيام جاءه خراج جديد.فقال:"أيها الناس إن آدم لم يلد عبدا ولم يلد أمة، وإن الناس كلهم أحرار.فمن كان له بلاء فصبر في الخير فلا يمن به على الله عز وجل، ألا وقد حضر شيء ونحن مساون فيه بين الأسود والأحمر".

وعاتبه عدد من المهاجرين والأنصار لأنه يسوى بين الجميع، وقد كان عمر على الرغم من شدته..يفضل المهاجرين وأهل بدر وأهل السابقة في الإسلام.فقال لهم:"ألا إنه من استقبل قبلتنا وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله(يعني المسلمين)، ومن أكل ذبيحتنا(يعني أهل

الذمة)أجرينا عليه أحكام القرآن، وأقسام الإسلام، ليس لأحد على أحد فضل إلا بتقوى الله وطاعته، جعلنا الله وإياكم من المتقين، وأوليائه وأحبائه الذين لا خوف عليه ولا هم يحزنون...ألا إن هذه الدنيا التي أصبحتم تتمنونها، وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم، ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له، ولا الذي دعيتم إليه، ألا وإنها ليست بباقية لكم، ولا تبقون عليها....فانظروا يا معشر المهاجرين والأنصار ما وصفتم به في كتاب الله ونزلتم به عند رسول الله ❐ وجاهدتم عليه، فيم فضلتم؟

أبالحسب والنسب؟أم بعمل وطاعة، فاستتموا نعمة الله عليكم رحمكم الله-بالصبر لأنفسكم، والمحافظ على ما استحفظكم الله من كتابه..ألا وإنه لا يضركم تواضع شئ من دنياكم بعد حفظكم وصية الله والتقوى، ولا ينفعكم شيء حافظتم عليه من أمر دنياكم بعد تضييع ما أمرتم به من التقوى، فعليكم عباد الله بالتسليم لأمره، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه".

"فأما الفئ فليس لأحد فيه على أحد أثرة، قد فرغ الله عز وجل من قسمه، فهو مال الله، وأنتم عبد الله المسلمون،

وهذا كتاب الله، به أقررنا وعليه شهدنا، وله أسلمنا، وعهد نبينا بين أظهرنا، فسلموا -رحمكم الله- فمن لم يرض بهذا، فليتول كيف شاء، فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه، أولئك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وأولئك هم المفلحون.. فلا رجال قد كانت الدنيا غرتهم، فاتخذوا العقار وفجروا الأنهار، وركبوا أفره الدواب، ولبسوا ألين الثياب، فصار ذلك عليهم عارا وشنارا إن لم يغفر لهم الغفار فلا يقولن إذا منعتهم ما كانوا فيه يخوضون، وصيرتهم إلى ما يستوجبون، فينقمون ذلك ويستنكرون، ويقولون ظلمنا ابن أبي طالب، وحرمنا ومنعنا حقوقنا، فالله عليهم المستعان!!.. ألا وإن للمتقين عند الله أفضل الثواب، وأحسن الجزاء والمآب، لم يجعل الله تبارك وتعالى الدنيا للمتقين ثوبا، وما عند الله خير للأبرار".

ثم قال: "لو كان المال مالي لسويت بينهم، فكيف والمال مال الله وهؤلاء عباده؟!".

وبدأ خلافته بتحديد وظيفة المال وتنفيذ مبدئه الذي أوجزوه في قوله: "إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بتخمة غني".

دخلت عليه أخته أم هانئ بنت أبي طالب، فدفع إليها عشرين درهما، سألت أم هانئ مولاتها الفارسية:"كم دفع إليك أمير المؤمنين".فقالت:"عشرين درهما".

فطلبت من أخيها أن ينصفها فيميزها فقال لها:"يا أختاه انصرفي رحمك الله.ما وجدنا في كتاب الله فضلاً لآل إسماعيل على آل إسحق!".

ولذلك عندما عاد بعض المهاجرين والأنصار فألحوا عليه أن يفضلهم في العطاء لأنهم أصحاب سابقة في الإسلام - كما كان يفعل عمر - قال لهم مؤنبا:"إني لا أرزؤكم من فيئكم شيئاً!أفترونني مانعاً نفسي وولدي ومعطيكم؟!لأسوين بين الأسود والأحمر..

والله لقد أدركت أقواما كانوا يبيتون الله سجدا وقياما كأن صرير النار في آذانهم، وإذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في اليوم العاصف...إن الله حدودا فلا تتعدوها، ولقد فرض فروضا فلا تنقصوها، وأمسك عن أشياء لم يسمك عنها نسياناً بل رحمة من الله لكم فاقبلوها ولا تكلفوها.الحلال بين والحرام بين والشبهات بين ذلك، فمن ترك ما اشتبه عليه

فهو لما استبان له أترك، والمعاصي حمي الله، فمـن رتـع حولها يوشك أن يقع فيها..ومن حام حول الحمى وقع فيه!".

وتعود أن يوزع كل مال يجيئه ولا يبقي منه شيئًا في بيت المال..وبعد أن يفرغ من توزيع المال يذهب إلى بيـت المال فيكنسه، ويصلي فيه.

***

تولي عِلي أمر الناس بعد مقتل عثمـان بأيـام فـي أواخر ذى الحجة عام ٥٣هجرية.

وبعد البيعة وقف يخطب، فحمد الله وأثنى عليه ثـم قال:"إن الله عز وجل أنزل كتابا هاديا يبين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر.الفرائض أدوها إلـى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة.إن الله حرم حراما غير مجهولـة، وفضـل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بـالإخلاص والتوحيد المسلمين، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بـالحق، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب.بادروا أمر العامة...اتقوا الله عبادة في عباده وبلاده.

إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم.أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه..وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيـتم الشـر

فدعوه، (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض).صدق الله العظيم".

ورجع أمير المؤمنين إلى بيته فأتاه طلحة والزبير في عدد من الصحابة فقالوا:"إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء قوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل."فقال:"يا إخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم.ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم (جمع عبد)، وثابت (رجعت واجتمعت) إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون؟".قالوا:"لا".قال:"فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه أبدا إلا أن يشاء الله.إن هذا الأمر أمر جاهلية.وإن لهؤلاء القوم مادة [1] وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبدا. إن الناس من هذا الأمر إن حرك - على أمور:فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون،

---

[1] ما يعانون به، وكان كرم الله وجهه يشعر بوجود مؤامرة ويحاول أن يكشف عنها،ويشعر أن هناك من أعداء الإسلام من يعين المتآمرين..وكان هذا رأيه منذ قتل عمر رضي الله عنه.

وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس، وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق. فاهدأوا عني، وانظروا ماذا يأتيكم، ثم عودوا".

آخر كان المهاجرون كلهم قد بايعوا علِيا إلا قليلاً منهم سعد بن أبي وقاص الذي اعتزل الأمر ولزم بيته في

عهد عثمان لما اختلف معه، فقال عِلي لسعد حين أصر على الاعتزال وعدم البيعة:"والله ما عليك مني بأس".

ومن المهاجرين الذين لم يبايعوا عبد الله بن عمر الذي ثار به بعض أنصار عِلي فصرفهم عنه الإمام وقال:"أنا ضامنه".

مسلمة وبايع الأنصار إلا نفرا يسير منه حسان بن ثابت، وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة..ذلك أن محمد بنقال أن الرسول أمره باعتزال الناس إذا انفجرت الفتنة...كمارفض البيعة بنو أمية كما ذكرنا آنفاً، وفروا جميعا إلى مكة..

عِليا فاشتد أمير المؤمنين على قريش، وحال بينهم وبين الخروج من المدينة.فقال رجال في المدينة:"والله إن لمستغن برأيه وأمره عنا، ولا نراه إلا سيكون على قريش

من غيره (١) "..وقال آخرون:"لترك هذا الأمر إلى علي أمثل."فلما سمع علي ذلك طلبهم فذكر حاجته إليهم جميعا

وأشاد بفضلهم، حسن بلائهم.

(١) ودخل عليه المغيرة بن شعبة فقال له:"يا أمير المؤمنين إن لك عندي تصيحة.

قال:"وما هي؟"فقال:"إن أردت أن يستقيم لك الأمر فاستعمل طلحة على الكوفة، والزبير على البصرة، وابعث لمعاوية بعهده على الشام حتى تلزمه طاعتك، فإذا استقرت لك الخلافة فادرأهم (٢) كيف شئت برأيك"فقال علي:"أما طلحة والزبير فسأرى رأيي فيهما، وأما معاوية فلا يراني الله مستعملاً ولا مستعيناً به ما دام علي خلاه، ولكني أدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمون (٣). فإن أبى حاكمته إلى الله تعالى".

فانصرف المغيرة عن الإمام مغضبا لما لم يقبل منه النصيحة.ثم أصبح فجاءه قائلاً:"يا أمير المؤمنين، نظرت فيما

---

(1) يقصدون عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(2) أدفعهم.

(3) البيعة.

قلت بالأمس وما جاوبتني به، فوجد أنك قد وُفِّقتَ الخير وطلبت الحق".

وانصرف فلقيه الحسن بن عِلي وهو خارج، فسأله أباه عما قال المغيرة، قال عِلي:"أتاني أمس بكذا، وأتاني اليوم بكذا".قال الحسن:"نصحك والله أمس، وخدعك اليوم".

فقال له عِلي:"إن أقررت معاوية عِلينا في يده كنت متخذ
المضلين عضدا، ولا يراني الله كذلك أبدا".

وقال المغيرة في ذلك:

نصحت عليا في ابن هند نصيحة

فردت فلا يسمع لها الدهر ثانية

وقلت له:أرسل إليه بعهده

على الشام حتى يستقيم معاوية

ويعلم أهل الشام أن قد ملكته

فأم ابن هند بعد ذلك هاوية

وتحكم فيه ما تريد فإنه

لداهية-فارفق به-وابن داهية

فلم يقبل النصح الذي جئته به

وكانت له تلك النصيحة كافيه

***

وقال له عبد الله بن العباس رضي الله عنهما:"يا أمير المؤمنين أنا أشير عليك أن تثبت معاوية وحده فإن فيه جرأة، فإن بايع لك فعلى أن أقلعه من منزلـه"فقـال عـلـي:"والله لا

أعطيه إلا السيف"ثم تمثل بقول الأعشى:

وما ميتة إن متها غير عاجز

بعار إذا ما غالت النفس غولها [1]

فقال عبد الله بن عباس:"يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع، لست بصاحب رأي[2] في الحرب، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول:الحرب خدعة؟ "قال علي:"بلى"فقال ابن عباس:"أما والله لئن أطعتني لأصدرنهم بعد ورد [3]، ولأتركنهم ينظرون في دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها، في غير نقصان عليك ولا إثم لك".

ولكن الإمام رفض أن يكيد كما يكيد معاوية.

---

(1) ما اغتال النفس وأهلكها.

(2) يعتي المكر والحيلة.

(3) إلا يكون حالي معهم كمن يرجع قوما من الماء بعد أن وردوه.

كان يقول:"أنا أدهي من معاوية، ولولا التقى لكنت أدهي العرب".

فلما رآه ابن عباس سيعالج المكر بشجاعة الصراحة ونبالتها، ولن يرد على الكيد بالكيد قال له:"أطعني، والحق بمالك بينبع، وأغلق بابك عليك، فإن العرب تجول جولة تضطرب ولا تجد غيرك.فإنك واالله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليجملنك الناس دم عثمان غدا!"قال علي:"تشير على وأرى.فإذا عصيتك فأطعني"قال:"افعل، إن أيسر ما لك عندي الطاعة"فقال علي:"تسير إلى الشام فقد وليتها"فقال ابن عباس:"ما هذا برأي، معاوية رجل من بني أمية، وهو ابن عم عثمان وعامله، ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان.,وإن أدنى ما هو صانع أن يحبسني فيتحكم على لقرابتي منك.إن كل ما حمل عليك حمل على . ولكن اكتب إلى معاوية فمنه وعده"فقال الإمام:"لا واالله لا كان هذا أبدا".

وعزل أمير المؤمنين عمال عثمان...لم يثبت منهم غير أبي موسى الأشعري على الكوفة..فولَّى على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري، وأخاه سهل بن حنيف

الأنصاري على الشام.وقيس بن سعد عباده الأنصاري على مصر..وفرح الأنصار بهذا الاختيار...

وبعث ابن عمه عبيد الله بن العباس إلى اليمن..

فأما عامل عثمان على البصرة وهو ابن خاله عبد الله بن عامر فقد أخذ ما في بيت المال وفر به إلى مكة حيث كان بنو أمية الذين فروا من المدينة ينتظرون!

ووافاهم عامل عثمان على اليمن أبو يعلي بن أمية ومعه ما نهبه من بيت المال وهو مال كثير ونحو ستمائة بعير، وتوافى عليهم في مكة من خلعهم عِلي من عمال عثمان.كل منهم بما نهبه من بيت مال ولايته!!

وأرسل أبو موسى الأشعري بيعة أهل الكوفة، كما أرسل قيس بن سعد بن عبادة بيعة أهل مصر، إلا قليلاً لزموا قرية في إقليم البحيرة اسمها خِرِبَّتا واعتزلوا فيها..فتركهم قيس آمنين..

أما سهل بن حنيف الذي ولاه الإمام عِلي الشام فقد لقيه جماعة من فرسان الشام بتبوك بين وادي القرى والشام، فهددوه بالقتل إن هو دخل الشام، وردوه إلى المدينة.

فلما عاد إلى المدينة دعا كبار الصحابة وفيهم طلحة والزبير -رضي الله عنهما- فقال:"إن الأمر الذي كنت أحذركم منه قد وقع...وإنها فتنة كالنار، كلما سعرت ازدادت اضطراما واستثارت"فقال طلحة والزبير:"اِئْذن لنا نخرج من المدينة، فإما أن نكاثر وإما أن تدعنا".فقال:"سأمسك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بدا فآخر الداء الكي".

وعاد الإمام يرسل إلى معاوية فيطالبه بالبيعة والدخول فيما دخل فيه الناس ولزوم الجماعة، فلا يرد معاوية!!والإمام يستحثه ليبايع، حتى إذا مرت ثلاثة أشهر أرسل معاوية رجلاً من بني عبس ومعه كتاب، فلما فضه علي وجده خاليا من الكتابة!فقال للرسول:"ما وراءك؟!"قال:"وأنا آمن؟".قال الإمام:"إن الرسل لا تقتل"قال:"تركت قوما لا يرضون إلا بالقود [1]".قال الإمام:"ممن".قال العبسي:"من خيط رقبتك!وتركت ستين ألف شيخ كلهم يبكي تحت قميص عثمان، وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق"قال الإمام:"أمني يطلبون دم عثمان؟ألست

---

(1) القصاص.

موتورا بترة [1] عثمان؟اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان!نجا والله قتلـــه عثمـــان إلا أن يشـــاء الله، فإنـــه إذا أراد أمـــر أصابه.اخرج"قال العبسي:"وأنا آمـن؟"قـال الإمـام:"وأنـت آمن"وحاول بعض أصحاب الإمام أن يفتكوا بالعبسي، فأنقذه الإمام وحماه...ثم أمر بعض أصحابه أن يحسنوا إليه، فما زالوا به حتى انضم إليهم وهجر معاوية، وكشف لهم خطة معاوية للقتال، وللزحف على المدينة، وما يدور بين معاوية وبين خصوم الإمام من مراسلات...

ورأى عِلي أن يتجهز لقتال معاوية، وألا ينتظر حتى يزحف على المدينة معاوية بجيش الشام، بل فليخرج إليه الإمام بجيشه ليلزمه الطاعة واتباع الجماعة.

وأرسل الإمام إلى قيس بن سعد واليه على مصر وإلى سائر الولاة ليتجهزوا، ويتوافدوا إلى الشام لصد جيش معاوية الذي يتهيأ للزحف على دار الهجرة ومثوى النبي وعاصمة الإسلام..

---

[1] الترة:الثأر والظلم فيه، والموتور من لم يدرك ثأره.

وجاء طلحة والزبير يريدان الخروج من المدينة فقال لهما عِلي متـرفقًا ملاطفًا:"أحب أن تكونـا معـي، فـإني أستوحش لفراقكما".

وفي الحق أنه كان يحبهما، ويأنس إليهما، فـالزبير ابن عمته، وهو وطلحة رفيقا جهاده، وزميلاه في الأيـام الشداد الباهرة الرائعة الزاخـرة بـالبطولات والخطـر والانتصارات:أيام الجهاد فـي سـبيل االله.تحـت رايـة الرسول ..!وكلهم من العشرة الكرام البررة المبشرين بالجنة..وكم من غزوة شهدها طلحة والزبير تحت قيـادة عِلي حامل لواء الرسول..!!

***

ثم إن أم المؤمنين عائشة رضـي االله عنـهـا، كانـت بمكة بعد أن فرغت من الحج، ومعها أمهات المؤمنين رضي االله عنهن بعد أن فرغن من الحج وكن ينتظـرن جميعـا أن يعتمرن في أول المحرم.

ولكن أنباء مشوشة وصلت إلى عائشـة رضـي االله عنها عن مصرع عثمان والبيعة لطلحة رضي االله عنهمـا، فأسرعت إلى المدينة.

ولم يكد ركبها يقطع ستة أميال من مكة في الطريق إلى المدينة، حتى جاءها الخبر اليقين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل حقـًا، وأن عليًا كرم الله وجهه هو الذي بويع بالخلافة..جاءها بهذه الأنباء ابن أختها عبد الله بن الزبير فأمرت الركب أن يعود إلى مكة.فلما بلغت مكة سألها عبد الله بن عامر الخضرمي عامل عثمان على مكة عما أعادها، فقالت:"قتل عثمان -والله- مظلوما.والله لأطلبن بدمه".فقال ابن عامر:"وأنا أول طالب".

وذهبت إلى البيت الحرام فتسترت بالحجر، وشاع الخبر في الناس، وكان بنو أمية يتوافدون خفية على مكة يثيرون الذعر مما حدث في المدينة، ومما عسى أن يصنع عِلي بالناس منذ أعلن أنه سيرد القطائع إلى بيت المال، ويعيد إليه كل ما أُخذ منه بغير حق، ولو كانوا قد تزوجوا به النساء، واشتروا به الإماء!!ومنذ أعلن أن الله جعل للفقراء حقوقًا في أموال الأغنياء غير الزكاة، ,إنه ما أتخم غني إلا بجوع فقير!!

وفي الحِجر أمام الكعبة اجتمع الناس إلى أم المؤمنين فوصفت لهم ما بلغها عن مقتل عثمان.قالت:"إن العفو من

أهل الأمصار وأهل المياه البدو أو الأعراب وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس، فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام، والله لأصبع من عثمان خير من طِباق الأرض أمثالهم! والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبَثِه والثوب من درنِه..".

وإذن فقد اجتمع في مكة يطالب بدم عثمان كلٌ من: أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وبنو أمية الذين هربوا من المدينة وعلى رأسهم أولاد عثمان ومروان بن الحكم والوليد ابن عقبه وسعيد بن العاص، ثم عامل عثمان السابق على البصرة عبد الله بن عامر ويعِلي ابن أمية عامل عثمان السابق على اليمن، وسائر الذين عزلهم الخليفة الجديد، والذين طالبهم برد ما تحت أيديهم من قطائع، ومن خافوه على ثرواتهم!!

وعلم الإمام بما يجرى في مكة، فأصابه الحزن، والإشفاق على وحدة الأمة!

ودعا الله أن يعصم الأمة من الفرقة لتعود كما كانت من قبل صفاً واحدا كالبنيان المرصوص.

الإمام في المدينة يدعو الله أن يوحد الأمة..وأنباء استعداد معاوية للزحف على المدينة تترى!

فرأى الإمام أن يخرج للقاء معاوية الخارج عليه وعلى الجماعة، قبل أن يزحف على المدينة بجيش الشام، ويمزق شمل الأمة!

ودعا الإمام عِلي ابنه محمد ابن الحنفية فدفع إليه اللواء، ليقضي على الفتنة في مهدها.

ثم نودي:الصلاة جامعة. فلما اجتمع الناس في المسجد، وقف الإمام خطيبا فقال:"إن الله عز وجل بعث رسولاً هاديا مهديا بكتاب ناطق وأمر قائم واضح، ولا يهلك عنه إلا هالك، وإن المبتدعات والشبهات من المهلكات إلا من حفظ الله.وإن في سلطان الله عصمة أمركم، فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها، والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام، ثم لا ينقله إليكم أبدا..انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون يفرقون جماعتكم، لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق".

واَّثاقلَ إلى الأرض بعض الناس، ونشط آخرون فتجهزوا للقتال.

***

وجاء طلحة والزبير رضي الله عنهما إلى أمير المؤمنين عِلي كرم الله وجهه، فطلبا منه أن يأذن لهما بالخروج إلى مكة لأداء العمرة.

فقال لهما:"ما العمرة تريدان، إنما تريدان أن تمضيا إلى شأنكما، امضيا"فمضيا.

واتبعهما بصوته المرتفع يتلو قول الله تعالى: (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفي بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما)..

فلما أقبل طلحة والزبير على أم المؤمنين عائشة ومن معها قالت لهما:"ما وراءكما؟"فقالا لهما إنهما هربا من غوغاء المدينة وأعرابها..ثم أضافا:"وفارقنا قوما حيارى لا يعرفون حقًا ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسهم!"قالت:"انهضا إلى هذه الغوغاء"قالا:"بل نأتي الشام"فقال عبد الله بن عامر والِي البصرة السابق:"قد كفاكم معاوية الشام فأتوا البصرة فإن لي بها صنائع، ولهم في طلحة هوى:"قبحك الله، فوالله ما كنت بالمسالم ولا

بالمحارب، فهلا أقمت كما أقام معاوية فنكتفي بك، ثم نـأتي الكوفة فنسد على هؤلاء القوم مذاهبهم؟".

ورأت أم المؤمنين أن يذهبوا إلى المدينة، فيطـالبون بدم عثمان، ويظفروا بقتله، فقـال طلحـة والزبيـر:"يـا أم المؤمنين، دعي المدينة، فإن من معنا لا يطيق من بها مـن الغوغاء، واشخصي معنا إلى البصرة، فإنا نـأتي بلـدا قـد أضيعت وصارت إلى عِلي ، وقد أجبرنا على بيعتـه، وهـم محتجون علينا بذلك وتاركو أمرنا إلا أن تخرجي فتأمري ما أمرت بمكة، فإن أصلح الله الأمر الذي أردنـا، وإلا دفعنـا بجهدنا حتى يقضي الله مـا أراد"فقالـت لهمـا:"أتـأمراني بالقتال؟"قالا:"لا.ولكن تعظين الناس وتحضينهم على الطلب بدم عثمان". فقبلت، وشرعت تتهيأ للسفر إلى البصرة...

فلما علم الإمام بما يجري في مكة حزن حزنًا شديدًا، ورأى أن يخرج إلى مكة، فيدعو إلى وحدة الكلمة..ويناقش طلحة والزبير رضي الله عنهما فيما دفعهما إلـى الخـروج عليه، وفي استنفارهما أم المؤمنين رضي الله عنها..؟!

أبدل شيئًا فيما بينهم وبين الله من ميثاق؟!

ورأى أن يحاور أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عسى أن يقنعها بأنه لا قدرة لأحد على أن يقبض عِلي قتلة عثمان الآن، وهم ما زالوا على أعناق الناس في المدينة، وأنه لا بد من إمام تبايعه الأمة جميعا، ليرسي العدل، ويقيم الحدود، ويقود المسلمين ويحمي الثغور...فالخير للإسلام أن يتفق الجميع، وأن يحملوا معاوية -الذي شذَّ عنهم بجند الشام - على البيعة، ولزوم الجماعة، وعندما يستقر الأمر لولي الأمر سيصبح له إذن سبيل على القتلة، وسلطان على مثيري الفتنة!إنه لا بد من إمام يجتمعون عليه ليقوم عمود هذا الدين وإلا تمزق المسلمون!

وأصبح عِلي ذات صباح فسمع أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قد هرب إلى الشام لينضم إلى معاوية ويعلن مثله العصيان، ويفارق الجماعة ويشق عصا الطاعة!!

ولم يصدق الإمام..ولكن الناس أكثروا في هذا الزعيم، حتى جاءت ابنته أم كلثوم التي مات عنها عمر، فقالت إن عبد الله ما سافر إلى الشام، بل سافر إلى مكة معتمرا..وقالت:"أنا ضامنة له".فقال عِلي:"والله ما كذبت يا ابنتي ولا كذب، وإنه عندي ثقة".

وفي مكة نادى منادي أم المؤمنين:"إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة، فمن أراد إعزاز الإسلام وقتال المحلين [1] والطلب بثأر عثمان وليس له مركب ولا جهاز فليأت"..

فلحق بهم نحو ثلاثة آلاف رجل أعان على جهازهم أبو يعِلي وابن عامر، وتقدمهم طلحة والزبير فسبقا إلى البصرة، ومعهما أبناء عثمان.

خرجت عائشة من مكة فتبعها أمهات المؤمنين إلا ذات عرق عِلي مقربة من مكة يودعنها، وخرج خلق كثير يودعونها، ويتوجعون لما حدث!

وبكى الناس أحر بكاء على الإسلام! فلم ير يوم كان أكثر باكيا وباكية من ذلك اليوم حتى لقد سمي "يوم النحيب"..!

وكانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على جمل ضخم اشتراه أبو يعِلى، وقد جعل لها هودجا من حديد ودروع، وجعل فيه موضعا لعينيها.

---

(1) الذين استحلوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام كما قالت أم المؤمنين من قبل.

وكانت قد حاولت من قبل أن تقنع أمهات المـؤمنين أن يخرجن معها، فاعتذرن عن عدم الخروج في صمت.

أما أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضـي الله عنهمـا فوافقت، وتهيأت للخروج معها إلى البصرة، ولكـن شـقيقها عبد الله بن عمر -الذي أتى مكة-منعها قائلاً:"والله ما أحب أن لى الدنيا وما عليها وأني أظهرت أو أضمرت عداوة عِلي. لقد أمر الله أمهات المؤمنين بغيـر هـذا فقـال:(وقـرن فـي بيوتكن)وأنت من أمهمات المؤمنين، فلا تخالفي الله ورسوله يا بنت عمر"فلزمت حفصة رضي الله عنها دارها بالمدينـة، ولم تدخل في الأمر.

وحين سمعت عائشة مـا قالـه عبـد الله لشـقيقته حفصـة قالت:"غفر الله لعبد الله بن عمر" رضـي الله عن الجميع.

أما أم المؤمنين أم سلمة فجاءتها عائشة رضــي الله عنها فقالت:"أنت أول مهاجرة مـن أزواج رسـول الله ، وأنت كبيرة أمهـات المـؤمنين..وأنـت..."، فقاطعتهـا أم سلمة:"لأمر ما قلت هذا!"قالت عائشـة:"إن القـوم اسـتتابوا عثمان فلما تاب قتلوه صائما في شهر حرام، وقـد عزمـت على الخروج إلى البصرة ومعي الزبير وطلحة، فـاخرجى

معنا لعل الله يصلح هذا الأمر على أيدينا".فقالت أم سلمة:"يـا عائشة إنك تعرفين منزلة عِلي عند رسول الله .فأي خروج تخرجين بعد هذا؟"فقالت عائشة:"إنما أخرج للإصـلاح بـين الناس، وأرجو فيه الأجر إن شاء الله"قالت أم سلمة:" أي أجر يا عائشة؟!قال تعالى: (وقرن في بيوتكن)عودي فقري فـي بيتك".

ثم أن أم سلمة أرسلت إلى عِلي رضي الله عنهما:"يا أمير المؤمنين لولا أن أعصى الله تعالى عز وجل -وأنـت لا تقبل مني هذا - لخرجت معك.هذا ابني عمر يشـهد معك مشاهدك"وأرسلت ابنها عمر بن سلمة بهذا الكتاب، وجهزتـه للحرب!

وكان بعض أصحاب عائشة رضي الله عنهـا، قـد جاءوا عبد الله بن عمر في مكة فقالوا له:"إن عائشـة خفـت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس، فاشخص معنا، فأنـت أحق بها؟أي بالخلافة)وإن علِيا يرى إنفاذ بيعته، وإن معاوية لا يرى أن يبايع له، فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور، وإلا فهي الهلكة".فقال:"إن بيت عائشة خير لها مـن هودجها، وإن المدينة خير لكم من البصرة، والذل خير لكـم

من السيف.ولن يقاتل علِيا إلا من كـان خيـرا منــه، وإن الشورى و االله قد كانت".

***

وجاءت الأنباء إلى الإمام بخروج عائشة وأصحابها من مكة، ثم علم بزحف معاوية بجيش الشام إلى المدينة..!..

وجمع الإمـام كبـار الصـحابة مـن المهـاجرين والأنصار، وشاورهم في الأمر، وقال لهم:"وأيم االله ما زلـت مبغيا على منذ قضى رسول االله ، وأيم االله لأقـاتلن بمـن أطاعني من عصاني".

لقد رفض الإمام عِلي أن يصدق أن عائشة وطلحـة والزبير سيحاربونه..ورأى أن يخرج إليهم قبل أن يتجه إلى معاويـــة ليوحـــد الصـــف، ويلزمـــوا هـــم معـــه معاويـــة الطاعة..ولكنه علم أنهم كانوا قد اجتمعوا مع آخرين في بيت عائشة فقال بعضهم:"نسير إلى عِلي فنقاتله في المدينة".فقـال آخرون:"ليس لكم بأهل المدينة، ولكنا نسير حتـى نـدخل البصرة والكوفة، ولطلحة بالكوفة شيعة وهـوى، وللزبيـر بالبصرة هو ومعونـة".

مهما يكن ما بلغه فلا بد له من أن يسير إليهم، فيدعوهم إلى جمع الشمل، ويثنيهم عن الخروج إلى البصرة.

ولكنهم كانوا قد خرجوا من مكة..

وحين علم الإمام عِلي بخروجهم من مكة قال:"إن الله عز وجل جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة، وجعل لمن لزم الأمر واستقام الفوز والنجاة فمن لم يسعه الحق أخذ بالباطل.ألا وإن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد ملئوا على سخط إمارتي، ودعوا الناس إلى الإصلاح، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكف إن كفوا، وأقتصر على ما بلغني عنهم".

وأقام في المدينة يدعو الله في ضراعة وإشفاق أن يردهم إلى وحدة الصف...

فلما تيقن أنهم يريدون البصرة، قال:"إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين، وما كان عليهم في المقام فينا مؤونة ولا إكراه".

وخرج من المدينة حزيًنًا، عساه يلحق بهم قبل أن يدخلوا البصرة!

وعلى باب المدينة أمسك عبد الله بن سلام بعنان جواده، وسأله ألا يبرح من المدينة لأنه إن خرج منها فلن يعود إليه أبدا ..!!

ولكن الإمام مضى موجع القلب دامع العين وهو يدعو الله ينقذ الإسلام ويجنب المسلمين الفتنة، وينقذهم من الشقاق، ويهديهم إلى الوفاق!!

أكان عليه أن يأخذ بنصيحة ابن عمه عبد الله بن العباس، ويثبت معاوية على الشام؟!

ولكن الإمام ما كان يستطيع إلا أن يتبع سياسة الإمامة مهما تجر عليه..وها هو ذا معاوية يجرئ عليه الناس كما أنذر ابن عباس من قبل!!ولكن الإمام كان قد استيقن من قبل أنه لا يستطيع استعمال معاوية، وهو يعيب عليه سياسته في الناس!!

فما كان من خلق الإمام أن يهادن في الحق أو أن يتنازل أو يساوم فيه أو يمكر!!

وما انفك يعلن بكل صراحة الإمامة وورعها وتقواها:"لا آتي أمرا أجد فيه فسادا لديني طلبا لصلاح دنياي.وما كنت متخذ المضلين عضدا".

***

لما سارت عائشة وطلحة والزبير يريدون البصـرة بمن شايعهم، أقبل عليهم المغيرة ابـن شـعبة فـي بعـض الطريق، فقال:"أيها الناس، إن كنتم إنما خرجتم مع أمكـم [1] فارجعوا بها خير لكم..وإن كنتم غضبتم لعثمـان فرؤسـاكم قتلوا عثمان.وإن كنتم نقدتم على عِلي شيئًا فبينوا مـا نقـدتم عليه.أنشدكم الله.فتنتان في عام واحد!!".

ومضى عنهم..وتقدم القوم في الطريق إلى البصرة.وفي بعض الطريق وقف سعيد بن العاص يخطـب أقاربه من بني أمية، وقد خلفوا وراءهم غير بعيد عائشة وطلحة والزبير وأشياعهم.فقال:"إنكـم إنمـا تخرجـون تطلبون بدم عثمان، فإن كنتم تريدون ذلك فإن قتلة عثمان على أعجـاز هـذه المطـي وراءكـم فميلـوا علـيهم بأسيافكم.وإلا فانصرفوا إلى منازلكم ولا تقتلوا في رضى المخلوقين أنفسكم فلن يغنوا عنكم يوم القيامة شيئًا:"فقـال

---

[1] يعني أم المؤمنين.

مروان وهو أشد القوم دهاء ومكرا:"لا بل نضرب بعضهم ببعض، فمن قتل كان الظفر فيه، ومن بقي طلبناه وهو واهن وضعيف".

ولكن أحد الملأ من بني أمية قال السعيد:"بل نسير لعلنا نقتل قتلة عثمان جميعا".

فخلا سعيد بن العاص بطلحة والزبير فسألهما:"إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر؟أصدقاني".قالا:"لأحدنا أينا اختاره الناس".قال:"بل لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه"قالا:" ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم".قال:"أفلا أراني أسعى لأخرجها من بني عبد مناف"فرجع ببعض بني أمية، وقال مروان:"أما أنا فهواي الشام"ورحل إلى معاوية...ولحق بقية بني أمية بعائشة والزبير وطلحة..

حتى إذا انتهوا إلى ماء سمعوا نباح كلاب..فسألت عائشة متوجسة:"أي ماء هذا؟"قالوا:"ماء الحوأب"فصرخت في ذعر:"ما أراني إلا راجعة!".

وبهت الجميع!

ثم سألوها:"ولم يا أم المؤمنين".قالت:"سمعت رسول الله يقول لنسائه:كأني بإحداكن تنبحها كلاب الحوأب.ثم اتجه إلى وقال:إياك أن تكوني أنت يا حميراء".

ولكن ابن أختها عبد الله بن الزبير حلف لها:"بالله لقد خلفت ماء الحوأب أول الليل".وجاء لها بشهود زور خمسين من الأعراب فحلفوا على ذلك!

ومضى الركب في طريقه إلى البصرة.

***

وحين اقتربوا من البصرة..وجدوا طلحة يحب الانفراد بنفسه..فقال له رجل:"أرى أحب المجالس إليك أخلاها، وأنت ضارب بلحيتك على زورك!".

قال طلحة رضي الله عنه في حسرة:"بينا نحن يد واحدة على من سوانا، إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضا، إنه كان مني في عثمان شيء ليس توبتي إلا أن يسفك دمي في طلب دمه"!

وكتبت أم المؤمنين عائشة إلى بعض القرشيين المقاتلين المرابطين بالبصرة تأمرهم بأن يخرجوا لنصرتها، أو فليقروا في بيوتهم، فقالوا:رحم الله أم

المؤمنين!أمرت أن تلزم بيتها وأمرنا أن نقاتل، فتركت ما أمرت به وأمرتنا به، وصنعت ما أمرنا به ونهتنا عنه.

وخرج شاب من بني سعد إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما:"أما أنت يا زبير فحواري رسول الله ❐، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله ❐ بيدك، وأرى أمكما معكما فهل جئتما بنسائكما؟"قالا:"لا"..قال:"فما أنا منكما في شيء"واعتزل.

وشرع رجال القبائل الذين جاءوا مع عائشة وأصحابها يتصلون برجال قبائلهم في البصرة.

فاستعر غضب رجال القبائل الأخرى، وانتظروا جيش عِلي لينضموا إلى من جاء معه من قبائلهم..واضطرمت العصبية كما كانت في الجاهلية!!وهذا كله هو ما كان يحاربه عِلي وطلحة والزبير تحت راية الرسول، ولقد شهدت عائشة العرب يتطهرون منه منذ عهد الرسول..حين ألف الإسلام بين

قلوبهم، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا.

وأقامت عائشة وأصحابها خارج البصرة في انتظار الفرصة السانحة لدخولها..ولكن البصرة كانت قد بايعت

عليا من قبل، ودانت لعامل عِلي عليها عثمان ابن حنيفة الأنصاري.

***

أما عِلي فإنه لما خرج من المدينة توافى عليه آلاف المساكين والأتقياء وعشاق العدل والمحبين..وخرج معه أولاده وكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار في طليعتهم عمار ابن ياسر الذي قال عِلي عنه إن الرسول كان إذا استقبله قال:"مرحبا بالطيب المطيب"والذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم:إن عمار ملئ إيمانًا إلى مشاشه(رؤوس العظام كالمرفقين والمنكبين والركبتين).."وقال عنه:"إنما تقتله الفئة الباغية".

وقد جاء عمار إلى الكوفة يطلب نصرة أبي موسى الأشعري والي الكوفة.فطلب أبو موسى من الناس أن يعتزلوا، فهي الفتنة..فقال عمار للناس في المسجد:"أيها الناس أبا موسى ينهاكم عن الشخوص إلى هاتين الجماعتين، ولعمري ما صدق فيما قال.وما رضي الله من عباده بما ذكر.قال الله عز وجل: (وإن طائفتان من

المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي).وقال: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله الله).فلم يرض من عباد بما ذكر أبو موسى من أن يجلسوا في بيوتهم ويخلوا بين الناس، فيسفك بعضهم دماء بعض!فسيروا معنا إلى هاتين الجماعتين، وأسمعوا منهم، وانظروا من أولى بالنصرة فاتبعوه فإن أصلح الله أمرهم رجعتم مأجورين وقد قضيتم حق الله، وإن بغى بعضهم على بعض نظرتم إلى الفئة الباغية، فقاتلتموها حتى تفيء إلى أمر الله كما أمركم الله.وافترض عليكم".

وعاد عمار إلى الإمام عِلي فأخبره بأمر أبي موسى، فأوفده ومعه ابنه الحسن، وابن عباس، وقيس بن سعد بن عبادة، إلى أبي موسى وأهل الكوفة بكتاب جاء فيه:"أما بعد فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سامعه كمن عاينه.إن الناس طعنوا عثمان، فكنت رجلاً من المهاجرين أقل عيبه، وأكثر استعتابه [1]. وكان هذان الرجلان طلحة

---

[1] استرضاءه.

والزبير أهون سيرهما فيه اللهجة والوجيف [1] ، وكان فيه قول على غضب، فانتحى له القوم فقتلوه، وبايعني الناس غير مستكرهين، وهما أول من بايعني على ما بويع عليه من قبلي، ثم استأذنا في العمرة، فأذنت لهما، فنقضا العهد، ونصبا الحرب، وأخرجا أم المؤمنين من بيتها ليتخذاها فتنة، وقد سارا إلى البصرة اختيارا لأهلها، ولعمري ما إيإي تجيبون، ما تجيبون إلا الله". ثم أمر بعزل أبي موسى الأشعري، وولَّى مكانه الأشتر.

فبايع أبو موسى الأشعري لعِلي ، وبايع معه أهل الكوفة جميعا لم يتخلف منهم رجل!..وكان عثمان بن عفان قبل حصاره الذي قتل فيه بأيام قد ولَّى أبا موسى الأشعري على الكوفة!

ونزل طلحة والزبير ومعهم عائشة البصرة، فتكاثر عليها الناس يسألونها:"لماذا خرجت؟!ما الذي أخرجك من بيتك؟"ويسألون طلحة والزبير"أتحافظون على نسائكم في البيوت وتخرجون امرأة من نساء النبي من اللآتي أمرهن الله أن يقرن في بيوتهن"؟!

---

(1)الإسراع.

فلما أكثر الناس قالت لهم:"أيها الناس واالله ما بلغ من ذنب عثمان أن يستحل دمه، ولقد قتل مظلوما!غضبنا لكم من السوط والعصا، ولا نغضب لعثمان من القتل؟وإن من الرأي أن تنظروا إلى قتلة عثمان فيقتلوا به، ثم يرد هذا الأمر شورى على ما جعله عمر بن الخطاب".

واضطرب الناس وماجوا، واختلفوا فيما قالته، حتى ضرب بعضهم وجوه بعض، فأقبل رجل من أشراف البصرة، فأخرج كتابا، فقال لطلحة:"هل تعرف هذا الكتاب؟ألم تكتبه لنا بالأمس تؤلبنا على قتل عثمان، فما ردك عما كنت عليه؟"وارتفعت الأصوات وساد الصخب.فصاح ابن قدامة أحد أشراف البصرة:"يا أم المؤمنين، لقتل عثمان كان أهون علينا من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون!إنه كانت من االله تعالى حرمة وستر فهتكت سترك.وأبحت حرمتك!إنه من رأى قتالك فقد رأى قتلك، فارجعي إلى
منزلك، وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعتبي االله".وتلاحى الناس، ثم تفرقوا..

***

وجاء مروان بن الحكم من الشام، فأنبأ عائشة وطلحة والزبير أن معاوية يرجو أن يملكوا العراق، فإذا ملكوه سيدعو إلى بيعة طلحة خليفة، ومن بعده الزبير!..ثم قال لطلحة والزبير:"على من منكما أسلم بالإمرة"؟!فقال ابن طلحة:"على أبي".وقال ابن الزبير:"بل على أبي".فقالت عائشة:"أتريد أن تفرق أمرنا يا مروان؟فليصل بالناس ابن أختي عبد الله بن الزبير".

وفي الحق أن مروان ومعاوية يريدان أن يضربا عليا بعائشة وطلحة والزبير جميعا، ثم يضربا كل واحد منهم بالآخر، وإنهم جميعا ليطالبون عليا بدم عثمان!

أتحتمل الأمة هذا الشقاق؟

أخذ الإمام ينظر في أمر معاوية وطلحة والزبير:كيف يجمع شمل الأمة بعد ما خرج الثلاثة عليهم، وتبعتهم قريش إلا قليل، لكم لقيت منه قريش أيام الجهاد في سبيل الله، وهو يحمل راية الرسول، ومن خلفه طلحة والزبير والمجاهدون من الصحابة ..!!..

ولكم يلقى هو من قريش الآن!!

وصعد الإمام عِلي المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثني عليه:"..أتيتموني فقلتم بايعنا"فقلت:"لا أفعل"، وقبضت يدي فبسطتموها، ونازعتكم فجذبتموها..وأكثرتم على حتى ظننت أنكم قاتلي وأن بعضكم قاتل بعض لدى، فبسطت يدي فبايعتموني مختارين، وبايعني في أولكم طلحة والزبير طائعين غير مكريهن..ثم لم يلبثا أن استأذنا في العمرة، واالله يعلم أنهما أرادا الغدرة، فجددت عليهما العهد في الطاعة، وأن لا يبغيا الأمة الغوائل فعاهداني ثم لم يفيا لى، ونكثا بيعتي ونقضا عهدي....

غصب حقى، وتحملت ما نالني من القوم تحفظًا(محافظة) على اجتماع شمل المسلمين وبقاء الدين، فمن يعذرني من طلحة والزبير؟!إنهما بايعاني طائعين غير مكرهين، ثم نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته!اللهم فخذهما بفتنتهما للمسلمين".

فلما جاءت عائشة وطلحة والزبير البصرة قام عثمان بن حنيف عامل البصرة للإمام عِلي، فصعد منبر المسجد وقال:(يا أيها الناس، إنما بايعتكم يد الله فوق أيديكم"فمن نكث إنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما".والله لو علم عِلي بأن أحدا أحق منه بهذا الأمر

ما قبله، ولو بايع الناس غيره لبايع من بايعوا، وأطاع من ولوا، وما به إلى أحد من صحابة رسول الله حاجة، وما لأحد عنه غني، ولقد شاركهم في محاسنهم، وما شاركوه في محاسنه، ولقد بايعه هذان الرجلان(طلحة والزبير)وما يريدان الله، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع، والرضاع قبل الولادة، والولادة قبل الحمل، وطلبا ثواب الله من العباد، وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين!..ألا وإن الهدى ما كانت عليه العامة، والعامة على بيعة عِلي ".

ولقي أبو الأسود الدؤلي طلحة والزبير فقال لهما:"إنكم قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا في قتله، وبايعتم عليا مؤامرين لنا في بيعته، فلم نغضب لعثمان إذ قتل، ولم نغضب لعِلي إذ بويع، ثم بدا لكم فأردتم خلع عِلي ونحن على الأمر الأول، فعليكم المخرج مما دخلتم فيه".

ثم تكلم عمران بن الحصين صاحب رسول الله إلى طلحة والزبير بمثل ما تكلم به أبو الأسود الدؤلي، ثم دخل أبو الأسود الدؤلي وعمران على عائشة فقالا:"يا أم المؤمنين، ما هذا المسير؟!أمعك من رسول الله به عهد؟"قالت:"قتل عثمان مظلوما، غضبنا لكم من السوط والعصا، ولا نغضب

لعثمان من القتل؟!"فقال أبو الأسود:"وما أنت من عصانا وسوطنا؟"فقالت:"يا أبا الأسود بلغني أن عثمان ابن حنيف عامل عِلِي على البصرة يريد قتالي".قال:"نعم.قتالاً أهونه

قطع الرؤوس"!

ووقفت عائشة تخطب الناس فقالت:"كان الناس يتجنون على عثمان رضي االله عنه، ويرزن على عماله ويأتوننا بالمدينة يستثيروننا فيما يخبرون عنهم، فننظر في ذلك فنجده بريئا نقيا وفيا، ونجدهم غدرة كذبة.وهم يحاولون ما يظهرون، فلما قوَاوا كاثروه واقتحموا عليه داره، واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام بلا ُت ة ولا عذر، ألا إن ما ينبغي لكم ولا ينبغي لكم غيره أخذ قتلة عثمان رضي االله عنه، وإقامة كتاب االله ليحكم فيهم".

فاختلف الناس فرقتين:فرقة أيدتها، وفرقة أيدت عثمان بن حنيف..وقال رجل من البصرة:"يا أم المؤمنين إن كنت خرجت مكرهة فاستعيني بنا نُعدك إلى منزلك، وإن كنت خرجت طائعة فعودي".

وقال شاب من أهل البصرة لطلحة والزبير، "خرجتما بأم المؤمنين، فهل جئتما بنسائكما"؟فقالا، "لا"قال:"فما أنا منكم في شيء".

فتقاتل الفريقان، وفشت الجراحات في الفريقين..

فرأي طلحة والزبير أن لا بد من الخلاص من عثمان بن حنيف، فجمعا كل من استطاعا جمعه من الفرسان واقتحموا دار عثمان في ليلة باردة مظلمة والريح ترعد، فقتلوا أربعين من حراسه واستولوا على بيت المال وجلدوا عثمان، ونتفوا شعر لحيته ورأسه وشعر عينيه تنكيًلابه ثم حبسوه، وأرادوا أن يقتلوه، فارتفعت أصوات تحذرهم من أخيه عامل عِلي على المدينة، الذي سيثأر له من أهليهم في المدينة بلا مراء، فأمرت عائشة أن يطلقوا سراحه ويتركوه هائما في التيه!!ثم أعملوا القتل في أنصار عِلي بالبصرة وزعموا أنهم قتلة عثمان، حتى قتلوا ستمائة رجل!!فثار لهم ستة آلاف فارس !!..كما قتلوا عددا من الموالي حراس بيت

المال، فأثاروا عليهم كل الموالي!

وذهب عثمان بن حنيف إلى أمير المؤمنين وهو يستريح في موضع على طريقه إلى البصرة، فلما رآه يبكي

أراد الإمام أن يهون فقال له مداعبا:"ويحك يا عثمـان بـن حنيف، أرسلناك وأنت شيخ كثيف الشعر، فعدت إلينـا بـلا شعر كغلام أمرد!".

الفصل الحادى عشر

هموم أمير المؤمنين

كان هم الإمام عِلي أن يوحد الأمة، ويوطد أركـان الدولة الجديدة، ويحمي حدودها، وينشر مبادئ الإسلام فـي الآفاق.

وكان يعرف أن قوة الأمة تنبع من وحـدة الكلمـة، وجمع ما تشتت من شملها..

وكان همه كرم الله وجهه أن يقيم مبادئ العدل، وأن يشيع مكارم الأخلاق، وأن يجعل المسلمين جديرين بأن يكون لهم في رسول الله أسوة حسنة، ومحمد رسول الله والذين معه من صحابته رحماء بينهم أشداء على الكفار.

وكان هم أمير المؤمنين رضي الله عنـه أن يختـار ولاة يعلمون الناس الدين، ويدافعون عن الحقوق والحرمات، ويستأدون الناس ما عليهم من واجبات، وأن يكونوا من أولي العزم، حاسمين ورعين ينفعون بتقواهم سواد الناس، ولا من أولي القربي أو ذوي الخطوة، ولا جلادين يضربون النـاس، ويتسلطوا على رقاب العباد!..

وكان هم الإمام أن يحفظ لأهل الذمة حقوقهم، ويقتضى منهم ما عليهم من واجبات، وأن يعاملهم بالقسط والرحمة، فلا يبخسهم أشياءهم.

وكان همه أن يعلم المسلمين أن أهل الذمة إخوانهم، وقد أوصى بهم الله ورسوله، وحسب المسلم أن يعرف ما قاله الرسول عن الذميين عامة، "أنهم في ذمة الله ورسوله". فمن واجب المسلم الحق أن يتقي الله فيهم، وألا يخفر ذمة الله ورسوله!

وكان هم الإمام أن يعود بالناس إلى شجاعة الرأي، وصدق النصيحة، كما كانوا أيام الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي عهد أبي بكر وعمر، فالشورى واجبة شرعا، ولا خيار لولي الأمر فيها، بل إنها لتلزمه، وإلا استبد برأيه على الناس، وهذا الاستبداد هو ما يأباه الله ورسوله، وهو الذي لعنا مقترفيه!!

إلا أن المستشار مؤتمن كما نص الحديث الشريف، فمن واجب من يستشار أن يحسن المشورة، ويخلص فيها وبصدق، ولا يبغي بها إلا وجه الله ومصلحة الأمة فحسب.

وفي الحق أن أمير المؤمنين كرم الله وجهه استشار حتى أسرف عليه المشيرون، وتطوع آخرون بالمشورة والرأي دون سؤال..وعودهم الإمام على الرغم من هيبته أن يبدوا له حتى هواجس النفوس، ورأى أن هذا أجدى من القمع ومن كبت الرأي!

وكان من هم الإمام أن يحض الناس على التفكير والتدبر، وعلى ألا يطيعوا بلا فهم كالأنعام، وألا يخروا على آيات الله إذا ذكروا بها صما وعمياناً، وإلا كانوا شر الدواب!.

إن الله خلق لهم الحواس والمشاعر والعقل ليروا ويسمعوا ويتدبروا..فيعرفوا الحسن والقبيح بذاته، وبالعقل، وهو هكذا يعرف قبل أن يحدده الشرع!

فالإمام همه أن يرتفع بمستوى العقل والإرادة في الإنسان.

أمير المؤمنين همه أن تقوم الإمرة على العدل، والورع والتقوى، وأن يتساوى الناس:كل وعمله.والله يبلوهم ليعرف أيهم أحسن عملاً، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.وقد قال تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

والإمام كمال قال مرارا وكرر تكرارا لم يجد في القرآن ولا في السنة ولا فيما يقرأ من كتب الأولين، ولا فيما علمه الرسول من علم، أن للعرب من أولاد إسماعيل فضلاً على غيرهم من أولاد أخيه إسحق، وكلاهما كان رسولاً نبيا، وكلاهما ولد إبراهيم.

ومن أجل ذلك أحب الموالي وأهل الذمة الإمام كرم الله وجهه، كما أحبه أهل الورع وأهل التقوى من العرب، وإن كانت قريش على الرغم من مرور جيل بأسره، لم تنس له ما صنعه سيفه البتار ذو الفقار بمهج سادتها إذ هم مشركون كفار!..

ويالله ما كان أكثر هموم الإمام أمير المؤمنين!!

فهؤلاء هم المنافقون أيضا، أظهروا الإسلام وتظاهروا بالإيمان، وهم يبطنون لأمة محمد شر العداء..وإنهم ليؤججوا الخلافات، وكلما أشعلوا نار الحرب أطفأها الله، ولكنهم عادوا فأضرموها، حتى لَسَعَت ألسنتها قلب الإمام، فيستعبر ويبكي، وينذر الله ألا يهدأ حتى يقضي على حزب الشيطان، مهما يجلب على الناس بخيله ورجله!!

وكان حزب الشيطان من شُعَبٍ عديدة: من هؤلاء الذين مازالوا ينقمون عليه أنه قتل ذوي قرباهم من رؤوس الكفر في المغازى الإسلامية أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن الحاسدين، ثم الذين يخافونه على دنياهم، إلى هؤلاء المنافقين الذين يشعرون أمام بصيرته أن خراب نفوسهم قد تكشف فجأة، إلى المغالين في حبه، الذين ينتحلون آراءه ويعملون نقيضها!..

وكان جيش أمير المؤمنين مؤلفًا في أغلبه من أهل الورع والتقوى، وممن عودهم الإمام حرية التفكير، وأخذهم بالصراحة في التعبير عن الرأي فكان كل مقاتل في هذا الجيش يجد لنفسه حق مجادلة القائد..لكل منهم رأيه المستقل، وكأنه أمة وحدة!..

وما من أحد منهم يذعن للأمر أو النهي إلا إذا عرف عِلّتَه وحكمته، واقتنع بجدواه، على خلاف ما هو مألوف في الجيوش في ذلك الزمان، وفي كل زمان ومكان!..

من الحق أنهم اجتمعوا في حب الله ورسوله، دفاعا عن العدل، وعن حق الإنسان في المساواة والكرامة والحياة الكريمة، تحت راية الإمام عِلي..ولكنهم على الرغم من ذلك

تعودوا ألا يمضوا خطوة، وألا يأخذوا شيئًا أو يدعوا شيئًا، إلا إذا اقتنعوا وفقهت عقولهم ما يفعلون!..هم يفعلون ما يؤمرون على أن يفهموا سبب الأمر ومغزاه!!

سأله رجل وهم في الطريق إلى البصرة:"يا أمير المؤمنين إلا شيء نريد؟"قال:"أما الذي نريد وننوى فإصلاح إن قبلوا منا".قال:"فإن لم يقبلوا؟"قال الإمام:"ندعوهم ونعطيهم من الحق ما نرجو أن يرضوا به".قال:"فإن لم يرضوا؟"قال أمير المؤمنين:"ندعهم ما تركونا".قال الرجل:"فإن لم يتركونا؟"قال:"نمتنع عنهم"..قال:"نعم".

واقتنع الرجل بكلام أمير المؤمنين، فتابع السير..

وكان هم أمير المؤمنين أن يضمن حياة الناس، والإنفاق عليهم وعلى مصالح الأمة بعد أن نهب عمال عثمان المعزولون ما ائتمنوا عليه من أموال الدولة جميعا، حتى والي أذربيجان!كل واحد جاء بما نهبه من بيت مال ولايته!!

***

جاء عليا أحد رجاله فقال:"يا أمير المؤمنين، ما أرى عائشة وطلحة والزبير اجتمعوا إلا على حق".فقال:"إن الحق والباطل لا يعرفان بالناس ولكن اعرف الحق تعرف أهله،

واعرف الباطل تعرف من أتاه"فقال:"فهلا أكون كعبد الله بن عمر وسعد يعرفان فأعتزلكم جميعا؟"فقال الإمام:"إنهما خذلا الحق، ولم ينصرا الباطل.متي كانا إمامين في الخير يتبعهما الناس"!!فأقسم الرجل أن يتبع أمير المؤمنين وحده!

وأرسل الإمام إلى طلحة والزبير، ابن عمه ووزيره عبد الله بن عباس وقال له:"قل لهما إن أخاكما يقرئكما السلام ويقول لكما:هل وجدتما عليّ حيفاً في حكم أو استئثارا في فيء؟فلما أتاهما وسألهما قالا له:"لا ولا واحدة منهما"..وأضاف الزبير:"قل له إننا مع الخوف الشديد، والتقوى، لنطمع في الملك"!

وعجب الإمام لهذا الرد!كيف يمكنه أن ينقذ الأمة من الشقاق وهؤلاء النفر ينهضون ضده؟!

قال الإمام يبعث بعض أصحابه همومه:"بليت بأطوع الناس في الناس:عائشة، وبأدهي الناس:طلحة، وبأشجع الناس:الزبير، وأكثر الناس مالا يعلي بن أمية، وبأجود قريش عبد الله بن عامر"فقام إليه رجل من الأنصار، فقال:"والله يا أمير المؤمنين لأنت أشجع من الزبير، وأدهي من طلحة، وأطوع فينا من عائشة، وأجود من ابن عامر، ولمال الله أكثر

من مال يعِلي بن أمية.ولتكونن كما قـال الله عـز وجـل: (فسينفقونـها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون)".

وما برح عِلي يرسل إلى طلحة والزبير، يحـاول أن يثنيهما عن القتال، وهما مصران على قتاله لأمر ما!..

حتى علم الإمام عِلي أن معاوية أرسل إلى كل مـن طلحة والزبير كتابا حمله مروان ابن الحكم، ودعا كل واحد منهما أمير المؤمنين!..قال معاوية في كتابه إلى الزبير:"إلى الزبير بن العوام أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان.أما بعد فإني قد بايعت لك أهل فأجابوا، فدونك الكوفة والبصـرة لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنــه لا شــيء بعـد هـذين المصرين [1] وقد بايعت لطلحة بن عبيـد الله مـن بعـدك، فأظهر الطلب بدم عثمان، وادعوا الناس إلى ذلـك، ولـيكن منكما الجد، أظفركم الله وخذل مناوئكما".

وتلقى طلحة الكتاب نفسه إلا أنه قال له فيه أنه أخـذ البيعة من بعده للزبير!!

فلما تيقن الإمام عِلي أن كتاب معاوية أنـتج آثـاره، وأشعل الأطماع في أعماق الرجلين، وقف يخطـب النـاس

---

[1] المصر هو المكان أو الدولة أو الولاية.

فقال:"قد علم الله أني كنت كارها للحكومة بين أمة محمد ❐ وعلى آله وسلم، ولقد سمعته يقول: (ما من والٍ يلي شيئًا من أمر أمتي إلا أتي به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه على رؤوس الخلائق، ثم ينشر كتابه فإن كان عادلا ً نجا، وإن كان جائرا هوى).حتى اجتمع علىَّ مَلَؤُكُم وبايعني طلحة

والزبير وأنا أعرف الغدر في وجهيهما والنكث في أعينهما، ثم استأذناني في العمرة، فأعلمتهما أن ليس العمرة يريدان، فسارا إلى مكة واستخفا عائشة وخدعاها، وشخص معهم أبناء الطلقاء (وهم الكفار الذين دخلوا في الإسلام يوم فتح مكة حين قال لهم الرسول اذهبوا فأنتم الطلقاء كأبي سفيان وابنه معاوية وأكثر بني أمية)فقدموا البصرة، فقتلوا بها المسلمين، وفعلوا المنكر.فيا عجبا لاستقامتهما لأبي بكر وعمر، وبغيهما علىَّ !وهما يعلمان أني لست دون أحدهما، ولو شئت أن أقول لقلت!ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشام كتابا يخدعهما فيه، فكتماه عني وخرجا يوهمان الطغاة أنهما يطلبان دم عثمان، والله ما أنكرا علىَّ منكرا، ولا جعلا بيني وبينهما نَصَفاً(إنصافاً)وإن دم عثمان لمعصوب بهما ومطلوب منهما!

يا خيبة الداعي إلى ما دعا!وبماذا أجيب؟!والله إنهما لعلى ضلالة صماء، وجهالة عمياء، وإن الشيطان قد ذمر (حشد)لهما حزبه، واستجلب لهما خيله ورجله، ليعيد الزور إلى أوطانه، ويرد الباطل إلى نصابه!اللهم إن طلحة والزبير قطعاني وظلماني، وألبا علي، ونكثا بيعتي، فاحلل ما عقدا وانكث ما أبرما، وأرهما المساءة فيما عملا وأملا..!

وإني لعلى بصيرتي ما التبست علي.وإنها للفئة الباغية!..وإني لراضٍ بحجة الله عليهم، وعذره فيهم، إذ أنا راعيهم فمعذر إليهم فإن تابوا وأقبلوا فالتوبة مبذولة والحق عليهم، وعذره فيهم، إذ أنا راعيهم فمعذر إليهم فإن تابوا وأقبلوا فالتوبة مبذولة والحق مقبول، إن الله لا يظلم الناس وإن الله لا يضيع عمل عامل..وإن أبوا أعطيتهم السيف، وكفى بالله شافيا من الباطل، وناصرا للحق".

وأرسل إلى الزبير وطلحة:"أعرفتماني بالمدينة، وأنكرتماني بالبصرة؟!فما تريدان"؟!

فلم يسفرا عما يريدان، فقال:"واعجبا لطلحة!ألّب الناس على ابن عفان، حتى إذا قتل أعطاني بيعته، بيمينه

طائعا، ثم نكث!اللهم لا تمهله!وإن الزبير نكث بيعتي، وقطع رحمي، وظاهر على عدوى، فاللهم اكفنيه بما شئت"!

***

ولما استيأس أمير المومنين علي من أن عائشة وطلحة والزبير، سيجيبونه إلى السلام، أو إلى حقن الدماء، ورأى ما صنعوا آنفًا بعامله على البصرة عثمان بن حنيف، وقتلهم أنصاره، ولما رجعت رسله من عند عائشة وطلحة والزبير يؤذنونه بالحرب لا محالة!قال:"إني قد راقبت هؤلاء القوم كى يرعووا، أو يرجعوا، ووبختهم بنكثهم، فلم يستجيبوا، وأخرجوا ابن حنيف عاملي على البصرة بعد الضرب المبرح، والعقوبة الشديدة، وقتلوا رجالاً صالحين، ثم تتبعوا منهم من نجا، وقتلوه صبرا!ما لهم قاتلهم الله أنى يؤفكون؟!وقد بعثوا إلى أن أبرز للطعان، وأصبر للجلاد، وإنما تمنيك نفسك أماني الباطل، وتعدك الغرور!لقد كنت ما أهدد بالحرب ولا أرهب بالضرب.فليرعووا فقد رأوني قديما، وعرفوا نكايتي، فكيف رأوني؟!..أنا أبو الحسن الذي فللت حد المشركين، وفرقت جماعتهم!وبذلك القلب ألقى اليوم عدوي، وإني لعلى ما وعدني ربي من النصر والتأييد، وعلى

يقين من أمري وفي غير شبهة من دينــي.أيهـا النــاس إن الموت لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب، ليس عن الموت محيد ولا محيص.من لم يقتل مات، والذي نفس عِلــي بيـده لألف ضربة بالسيف أهون من موتة على الفراش"!

فلما أخذ الجنود أماكنهم، واستعدوا للقتال، قام الإمـام عِلــي فلبس الدرع، وقلنسوته المصرية البيضاء وقال لرجالـه:"يـا

أيها الناس إذا هزمتموهم فلا تجهزا على جريح، ولا تتتبعوا موليا، ولا تطلبوا مدبرا، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، ولا تهتكوا سترا، ولا تفرقوا شيئًا من أموالهم إلا ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كراع (كغراب أي الدواب)أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم.ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن".

وعزم الإمام عِلي أن يبدأ القتال.

ورأى عائشة تتقدم الصفوف داخل هودجها المـدرع على جمل ضخم، وقد ألبسوه جلود النمور، وفوقها الزرد!

وقد أمرت الزبير بن العوام، أن يتولى هـو قيـادة الجيش، وسمته أمير الجيش، وجعلت تصـدر الأوامـر، وإذ برجل من أصحابها يخرج من الصفوف وينحاز إلى عسكر

الإمام قائلاً:"تقلدت سيفي أريد نصر الزبير وطلحة، فإذا عائشة هي التي تأمر وتنهي، وإذا الأمر أمرها، فأيقنت أن هؤلاء قوم لعنهم الرسول ❐ حين قال: (لعن الله قوما ولو أمرهم امرأة!).

وتحفز الجيشان ولكن أمير المؤمنين أمر أصحابه:"لا تبدءوهم بقتال".

وأخذ يدعو الله في أغوار نفسه أن ينقذ الأمة من هذا البلاء، وأن ينقذ مهج المسلمين من أسياف المسلمين، وأن يلهم عائشة وطلحة والزبير أن يثوبوا إلى الصلح!

ورأي أن الأمر يحتاج إلى محاولة أخيرة، وإنه ليثق في تقوى ابن عمته الزبير، وإذا هو ذكّره بما يعظه!..

***

ولا بد لما هو كائن أن يكون!

فقد تراءى الجمعان واقتربا..فقال الأحنف بن قيس وكان قد بايع عليا بالمدينة:إن قومنا بالبصرة يزعمون أنك إن ظفرت عليهم قتلت رجالهم وسبيت نساءهم"!قال:"ما مثلي يخاف هذا منه!وهل يحل هذا إلا لمن تولى وكفر؟وهم قوم مسلمون؟!".الإمام يسمي من بايعوه وخرجوا

عليه:الناكثين!..ولم يتهمهم بالكفر.فقال المغيرة:"اختر مني واحدة من اثنتين:إما أن أقاتل معك بأربعة آلاف رجل، وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف".قال الإمام:"اكفف عنا عشرة آلاف سيف".

فنادى المغيرة حلفاءه من معسكر عائشة، وقومه من جيش عِلي ، فلم يبق أحد إلا الإجابة، واعتزل بهم، فلما انتهى القتال، بايعوا كلهم علِيا..

وخرج الزبير على فرسه في عدة الحرب، فقال الإمام عِلي :"أما إنه لأحرى الرجلين إن ذكر بالله أن يذكر!".

وخرج طلحة، فخرج إليهما فدنا منهما عِلي،

فقال:"لعمري لقد أعددتما سلاحا وخيلاً ورجالاً!!لا تكونا (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا)!ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دائكما:فهل من حدث أحلَّ دمي!؟"فقال طلح:"الانتظار على دم عثمان".

فدهمت المرارة قلب الإمام..أهو طلحة الذي يقول هذا أمام الناس، وما من أحد يجهل أنه قد حرض على قتل عثمان؟!..

قال الإمام ووجهه تغشاه ابتسامة ساخرة مشفقة:"يــا طلحة!أهو أنت من يطلب دم عثمان؟!فلعن الله قتلة عثمان!يا طلحة، أتيت بامرأة رسول الله ❐ تقاتل بها، وخبأت أمرأتـك في البيت!أما بايعتني؟!قال:"بايعتك والسيف على عنقى"!

قال لطلحة والزبير:"استحلفا عائشة بحق الله وبحـق رسوله على خصال أن تصدق فيها:هل تعلم رجلاً من قريش أولـى منـي بـالله ورسوله؟وإسـلامي قبـل كافـة النـاس أجمعين؟كفاني رسول الله كفار العرب بسيفي ورمحى، وعلى براءتي من دم عثمان، وعلى أني لم أستكره أحدا على بيعة، وعلى أني لم أكن أحسن قولاً في عثمان منكما".

فرق قلب الزبير، ,أشرقت عيناه بالدمع، ولـم يقـل شيئًا!

أما طلحة فصاح:"كرهناك!نحن الثلاثة أنـت واحـد ونحن اثنان!"

فقال عِلِيّ:"ألم تعلم أني ما أكرهت أحدا على البيعة؟الآن ليس
لكما غير ما رضيتما به!كان لكما أن تكرهاني، وألا ترضيا بي قبل الرضى، وقبل البيعة، إلا أن تخرجاني مما بويعـت عليه بحدث، فإن كنت أحدثت حدثًا فسموه لي!.وأخرجتم أمكم

وأم المؤمنين عائشة من بيتها، وتركتم نساءكم!!فهذا أعظم الحدث منكم!أرضيتم لرسول الله أن تهتكوا سترا ضربه عليها، وتخرجوها منه؟!".

قال طلحة:"إنما جاءت للإصلاح".قال الإمام:"هي لعمر الله إلى من يصلح لها أمرها أحوج!أيها الشيح اقبل النصح، وارض بالتوبة".

فأشاح عنه طلحة..

وعاد الإمام إلى أصحابه فقال:"إن شأنهما مختلف، فأما الزبير فما أحسبه يقاتلنا وإن قاده اللُّجاج!وأما طلحة فسألته عن الحق فأجابني بالباطل، ولقيته باليقين فلقيني بالشك، فوالله ما نفعه حقي، ولا ضرني باطله، وهو مقاتل غدا فمقتول في الرعيل الأول"!

وانتظر الإمام ساعات، ورأى أن يعاود الحوار فخرج هذه المرة إليهما وهو حاسر، فقال أصحابه:"ألا نحرسك؟"فقال:"حرس امرءا أجلُه".فقالوا:"لا تخرج وأنت بقميص واحد وحاسر!""فقال "لقد قاتلت مع النبي وأنا حاسر، أكثر مما قاتلت وأنا دارع.إنما أنا ذاهب إلى الزبير حواري رسول الله، وابن عمته"!!

وتقدم الإمام وصاح:"أين الزبير"؟

فخرج إليه، ووقف كل واحد منهما ينظر إلى صاحبه:الزفرات تتصاعد حرى، وفي الأعماق جيشان مضطرم من الحب.

وهاجت في قلبيهما الأشجان، وجاش في أعماق كل منهما إشفاق مشوب بالحنين والأسى..فبكيا..ثم تعانقا..

قال الإمام علي من خلال الدمع:"ما أخرجك أنت يا زبير؟"قال الزبير:"أنت"!ولم يجد ما يرد به فقد اختنق صوته في غصة، وشرق حلقه بالدموع!..

قال الإمام:"أتذكر يا ابن العمة يوم مررت مع رسول الله، فنظر إلي، فضحك وضحكن، فقلت أنت:لا يدع ابن أبي طالب غزوره.فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:إنك لتقاتله وأنت له ظالم؟فعلام تقاتلني؟!".

شرد الزبير برهة ووجم، ثم تنبه فقال:"اللهم نعم، وقد كنت أُنسيتُها ولو ذكرتها ما خرجت إليك".

وتأمل الزبير حاله هنيهة، وكفكف دمعه ثم قال:"ولكن ارجع الآن؟هذا والله هو العار الذي لا يغسله

الدهر!قال:"يا زبير ارجع بالعار، خير من أن ترجع بالعـار والنار".

وعاد الإمام عِلي إلى أصحابه فقالوا معاتبين:"يا أمير المـؤمنين، مـررت إلـى رجـل فـي سـلاحك وأنـت حاسر!"قال:"أتدرون من الرجل؟" قالوا:"لا!فمـا يبـين مـن الدروع إلا عيناه".قلنا:"ذلك الزبير ابن صفية عمـة رسـول الله، أما أنه أعطى الله عهدا ألا يقاتلكم.إني ذكرت له حديثاً قال رسول الله فقال:"لو ذكرته ما أتيت".

فقال رجل من أصحاب الإمام:"ر ب يوم خـرج فيـه الزبير بسيفه يريد أن يبايع لعِلي بدلاً من أبـي بكـر..فمـا غيره؟!"وقال سواه من أصحاب الإمام:"الحمد الله، مـا كنـا نخشي في هذه الحرب غيره، ولا نتقي سواه"وقال ثالث:"إنـه لفارس رسول الله وحواريه، ومن عرفت شجاعته وبأسـه ومعرفته بالحرب، فإذا قد كفاناه الله فلا نعد سواه إلا صرعى حول الهودج".

وأخرج الزبير من طيات ثيابه، كتابا كان الإمام عِلي قد أرسله إليه هو وطلحة منذ أيام، ولم يردا عليه!كتب فيـه الإمام:أما بعد فقد علمتما أني لم أرد الناس حتى أرادونـي،

ولم أبايعهم حتى بايعوني، وإنكما لممن أراد وبايع، وأن العامة لم تبايعني لسلطان خاص.فإن كنتما بايعتماني كارهين فقد جعلتما لي عليكم السبيل، بإظهاركما الطاعة، وإسرار كما المعصية، وإن كنتما بايعتماني طائعين فارجعا إلى الله، إنك يا زبير لفارس رسول الله ❐ وحواريه،

وإنك يا طلحة لشيخ المهاجرين، وإن دفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه، كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقرار كما به، وقد زعمتما للناس هنا أني قتلت عثمان، فبيني وبينكما فيه بعض من تخلف عني وعنكما من أهل المدينة.بل أنت يا طلحة من ألَّب عليه، وأنت يا زبير خذلت عنه!..وزعمتما للناس هنا أني أويت قتلة عثمان، فهؤلاء بنو عثمان معكم، فليدخلوا في طاعتي ثم يخاصموا إلى قتلة أبيهم.وما أنتما إن كان قتل ظالما أو مظلوما؟!وقد بايعتماني، وأنتما بين خصلتين قبيحتين:نكث بيعتكما، وإخراج أمكما عائشة أم المؤمنين"!

أحد وشعر الزبير في أغوار نفسه أن الحق مع عِلي ليحلموحده، وأنه هو وصاحبه طلحة على باطل!..ما حرض على قتل عثمان كما حرض طلحة وعائشة!!..إن طلحة

بالملك!فيما أنت وهذا يا زبير وأنت حواري رسول الله؟!إنه ما قال لأحد غيرك:"فداك أبي وأمي"!!قالها يوم أحد وأنت تصد عنه الرماة!أهذا هو وفاؤك للرسول، وإنك لتعلم حبه لعِلي ، ومكان عِلي منه!!

إن عليا لأعلمنا بكتاب الله وسنة رسوله، ولقد بايعناه طائعين، هذا حق!إنما ينكث طلحة للملك، وهو لا يخفي هذا؟فلم تنكث أنت يا حواري رسول الله؟! أيعبث معاوية بعد كل نضالك وتقواك وورعك!؟لكن أيترك معاوية الخلافة لغيره؟!ولكن معاوية من الطلقاء، الذين ظلوا على الشرك والكفر حتى فتح مكة، فجاءوا أذلاء إلى رسول الله ❐ يسألونه عما هو صانع بهم فقال لهم:"اذهبوا فأنتم الطلقاء".

وهؤلاء لا حق لهم في الخلافة، فكيف يطمع فيها معاوية وهو طليق وابن طليق..

لك الحق يا عِلي يا ابن الخال!لك الحق فليبايعك أولاد عثمان، ثم يطلبوا منك أن تقيم الحد على قاتل أبيهم!!فيم تقود هذه الآلاف من الرجال المسلحين يا زبير، لم يراق هذا الدم كله؟!..إنه للخوف على ما في يديك من متاع الدنيا يا ابن العوام!؟..أما هو كذلك!؟أفي سبيل هذا تعرض

الآلاف للقتل والأمة للفتنة؟!وما أنت بمخلد بعد في هذا المتاع والمال؟!أما قال كرم الله وجهه لك وللناس:"لا بأس بالغنى لمن اتقى!!"فأين تقواك يا حواري النبي؟!

لقد قلت أمس للناس يا زبير:"وطنوا نفسكم على الصبر، فإنه يلقاكم إذا رجل لا مثل له في الحرب ولا شبيه، ومعه شجعان الناس".

أترفع سيفك يا زبير على هذا الرجل الذي لا شبيه له؟أو بعد أن حاربتما معا، وجاهدتما أعداء الله معا، ورفعتما ذكر الإسلام معا، تحت راية رسول الله؟..

أبعد هذا ترفع سيفك في وجه عِلي وقد كرم الله وجهه؟!!

لقد ذكرك عِلي بقول للرسول كنت قد نسيته.وهأنتذا يا ابن العوام تذكر أنه رآك وعلِيا تعتنقان عند مقدم عِلي من اليمن، فسألك:"أتحبه؟"فقلت:"لم لا وهو ابن خالي؟"..فقال:"ستقاتله وأنت ظالم له".

هكذا تنبأ النبي!!لا..يا رسول الله صلى الله عليك وعلى آلك وسلم، لن أقاتل علِيا أبدا!!. ولكن من هذا الفارس الشيخ يقود خيل عِلي ابن أبي طالب؟!..أما هو عمار بن ياسر؟!يا رسول!!أتراني قد كتب

على□ ألا أبرح هذه الدنيا حتى أبوء بغضبك!!؟أما قلت يا رسول الله ذات يوم لعمار أول عهدنا بالمدينة ونحن نبني أول مسجد:"يا عمار، تقتلك الفئة الباغية!"أأكون من هذه الفئة الباغية!!لا يا رسول الله صلى الله عليك وعلى آلك وسلم!!!أيها النبي..حواريك يستغيث الله والرسول!!

ومضى الزبير منكسرا إلى عائشة، فقال لها:"ياأماه، ما شهدت موطنًا في جاهلية ولا إسلام إلا ولي فيه رأي وبصيرة إلا موطني هذا، إنا يا أم المؤمنين لعلى باطل!".

قالت عائشة:"يا أبا عبد الله خفت سيوف بني هاشم!".وقال ابنه عبد الله:"أتترك الحرب؟والله إنها لسبة لن نغسل رؤوسنا منها..".قال:"يا بني.لا تعد هذا مني جبنًا، فوالله ما فارقت أحدا في جاهلية ولا إسلام!".قال ابنه:"فما يردك؟".

قال:"يردني ما إن علمته كسرك".

فأمرت عائشة أن يقوم بأمر الناس مقامه ابنه عبد الله بن الزبير، وهو ابن أختها أسماء ذات النطاقين، وعينته أميرا على الجيش.وكانت قد عينته من قبل للصلاة...

وانصرف الزبير ليعود إلى المدينة.

فأتاه رجل اسمه ابن جرموز في بعض الطريق، فضيفه وقال له:"يا أبا عبد الله حدثني عن خمس خصال أسألك عنها".قـال الزبير:"هات".قال ابن جرموز:"خذ‍ُلك عثمان، وبيع‍تُك عـلِيـا، وإخراجك أم المؤمنين وصلاتك خلف ابنك، ورجوعك عـن الحرب".قال الزبير:"نعم أخبرك:أما خذلي عثمان فأمر قـدر الله فيه الخطيئة وأخر التوبة..وأما بيعتي عـلِيـا فـوالله مـا

وجدت من ذلك بدا حيث بايعه المهاجرون والأنصار. وأمـا إخراجنا أمنا عائشة، فأردنـا أمـرا وأراد الله غيـره.وأمـا صلاتي خلف ابني عبد الله فإنما قدمته عائشة أم المـؤمنين، ويقول بنو هاشم إني كنت أعد نفسي مع أخوالي من بنـي عبد المطلب، حتى بلغ ابني عبد الله، فمال بي إلى الجانب الآخر، جانب أمه أسماء وخالته عائشة بنت أبي بكر!وأما رجـوعي عن هذه الحرب فظني بي ما شئت غير الجبن!".

وتحدث الأحنف بن قيس لقومه الذين اعتـزل بـهـم الصراع فقال، "عجبت للزبير ابـن العـوام حامـل رايـة الرسول□يوم فتح مكة، والذي شهر سيفه يوم بويع أبو بكـر مطالبا بالخلافة لعـلِي أن خاله لولا أن علِيا أغمد سيفه حـذر

الخلاف، أيؤلب الناس على عـلِي وهو يعلم فضـلـه؟.عجبــا

للزبير اليوم!عجبا له هذا الذي فرق بين المسلمين حتى ضرب بعضهم رقاب بعض، ثم تركهم ليلحق ببيته!فمن يأتيني بخبره؟".

وكان المغيرة سيد قومه، مطاعا فيهم، يتسابق الناس على إرضائه، فوثب ابن جرموز فقال:"والهفي على ابن صفية!..أضرمها نارا ثم أراد أن يلحق بأهله!قتلني الله **فلم** أقتله!"، وأسرع ابن جرموز إلى ضيفه الزبير بن العوام، فوثب عليه وهو نائم فقتله!فلما أقبل متباهيا برأس الزبير وقوسه وسيفه، قال له بعض قومه:"فضحت والله اليمن آخر الدهر بقتلك الزبير!والله لو قتلته في حرب لعز عِلينا لك ولمسنا عاره، فكيف وهو في جوارك وحرمك؟!".

فلما علم الإمام عِلي بما كان قال:"بشروا ابن حرموز بالنار، فقد سمعت رسول الله ❐ يقول:"بشروا قاتل ابن صفية بالنار!"وكان الزبير وحيد أمه..

وجئ بسيفه إلى الإمام عِلي، فأمسك بالسيف وهزه وهو يتحسر، وفاضت عيناه، وغص حلقه بالدمع، وقال وهو ما زال يهز سيف الزبير:"سيف بطل طالما كشف الكروب عن وجه رسول الله!".فقال أحد أصحاب الإمام:"صدقت يا

أمير المؤمنين!ألا إنه لأول سيف سلَّ في سبيل االله"وصدق حسان حين وصفه:

وكم كربة ذَب الزبير بسيفه

عن المصطفي واالله يعطى ويجزل

ثناؤك خير من فعال معاشر

وفعلك يا بن الهاشمية أفضل

واشتد بكاء الإمام، وبكى الحاضرون حتى اخضلت لحاهم..

***

وخرج الإمام يناشد عائشة وطلحة أن يحقنا الدماء، فكفى ما خسره الإسلام بفقد فارسه الصنديد الزبير بن العوام!.

وكفى ما أهرق من دماء المؤمنين يا أم المؤمنين عائشة، ويا أيها الصحابي الجليل طلحة!!.

أما عائشة فقالت:"جل الأمر عن العتاب".وصممت على القتال..وأما طلحة فقد أعاد ما قاله لعلي آنفًا"قد كرهناك!".

ما العمل بعد يا عِلي ، وأم المؤمنين مصـرة علـى القتال، ويصر معها طلحة إصرارا؟!..ما هو ثأر عثمان مـا يطلبون، وإلا فقد قتل كثيرون من قتلة عثمان، ومن بقي منهم فإنما هم في جيش طلحة وعلى رأسهم طلحة نفسه!!.

أصحيح إذن أن أم المؤمنين عائشة تفضل أن تـرى السماء تنطبق علـى الأرض ولا تـراك يـا عِلـي أميـرا للمؤمنين!!!أتريد أم المؤمنين أن تنزع الأمر منك، وتعطيـه طلحة ابن عم أبيها، وزوج أختها الصغرى أم كلثـوم التـي رفضت الزواج من عمر قديما..؟!أمن أجل هذا تراق دمـاء المؤمنين يا أم المؤمنين!يا طلحة!!ويا لأم المؤمنين!!

وما كان الإمام ليذر دعوته إلى حقن الدماء، حتى لقد أوشك أصحابه أن يسأموا، وحتى خشوا أن يظن عدوه بـه الضعف!!

وعاد يكر:"لا تبدأوا أنتم بالقتال!لا ترموا بسـهم، ولا تطعنوا برمح، ولا تضـربوا بسـيف، واعـذروا".وامتثـل أصحابه لما يسمعون.

لكم يشق على الإمام أن يرى مسلما يرفع السيف في وجه أخيه، أو عربيا يقتل عربيا:!..كـل هـذا بشـع وآثـم

وزري!!وسيفتح باب الخلاف بين المسلمين، وبين العرب، وتأتي عصور كقطع الليل المظلمة..ظلمات من فوقها ظلمات، فإذا الواحد منهم يشرب دم أخيه، ويقتات بأشلائه، وإذا الإنسان الذي شرفه الله، وخلقه على صورته، وجعله خليفته في الأرض، قد أصبح إما وحشاً مفترسا، أو فريسة ممزقة!!

لا يا أم المؤمنين!!لا يا طلحة!!لا يا أيها الذين مازالوا يريدون سفك دماء إخوانهم."إنكم إن أنتم بايعتمونا، فعلى خير، وتباشير رحمة، ودرك ثأر، وإن أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه، كان علامة شر، وذهاب هذا الثأر!".يا أم المؤمنين ويا طلحة..ويا من تبعهما من المؤمنين.."كونوا مفاتيح خير كما كنتم!آثروا العافية تعافوا، لا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له، وتتعرض له الأمة جميعا، فلا يبقي منها أحد إلا صرعه البلاء".

***

وأوشك بعض أصحاب عائشة أن يلقوا السلاح، وإذ بسهم يقتل أحد أصحاب عِلي..فقول الإمام:"اللهم فاشهد!..لا

ترموا بسهم ولا تطعنوا برمح ولا تضربوا بسيف.

وأعذروا[1]". ويقتل من أصحاب الإمام رجل ثان وثالث، والإمام يصبر ويصابر ويحتسب ويقول لأصحابه:"أعذروا إلى القوم".

ويكلف أحد فتيانه بأن يرفع القرآن الكريم ويدعو أصحاب عائشة إلى كتاب الله فتنهال السهام على الفتي، ويسقط صريعا يخضب دمه كتاب الله.

وتتوالى السهام، فيقول محمد بن أبي بكر:"إلى متي نعذر يا أمير المؤمنين؟!لقد والله أعذرنا وأعذرت، وإنهم ليرموننا بالسهام، ويقتلوننا رجلاً رجلاً، والله لتأذنن لنا في لقاء القوم أو لتنصرفن قبل أن تقتلنا سهامهم ونحن ننظر!".

ونظر الإمام فوجد السهام تنهمر على أصحابه، فأعطى الراية ابنه محمد بن الحنفية، وأذن بالقتال، واندفع إلى الأعداء صائحا في رجاله:"تقدموا"..وإنه في أعماق نفسه ليذكر ما حذر به طلحة والزبير ورجالهما من قبل:"ثم إن الأمر الذي كنت أحذركم منه قد وقع، وإن الذي وقع لا

---

[1] أعذر أصبح ذا عذر.

يدرك!وإنها لفتنة كالنار كلما سعرت ازدادت اضطراما. وسأمسك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بدا.فأخر الداء الكي".

وها هو ذا اليوم لا يجد بدا من الكي..إنها

الحرب..والحرب كلما استعرت تزداد اضطراما!..

وتساقط القتلى على الجانبين.عشرات وعشرات.ثم مئات ومئات ,أحيط بطلحة ولكن الإمام حذر أنصاره أن يقتلوه، فمالوا عنه!..

وكلما سكت القتال ذكر الإمام خصمه طلحة بأيامهما معا تحت راية الرسول، دفاعا عن العقيد، وحق الإنسان في الحرية والعدل!

ذكَّره بيوم أحد، ويوم حنين، وأيام أخرى مجيدة!؟أين هذا كله يا طلحة من يومك هذا؟!رب يوم سماك فيه الرسول❐ طلحة الخير، وطلحة الجود، وطلحة الفياض!!

في يوم ما يا طلحة الخير أنفقت أربعمائة ألف درهم دفعة واحدة على فقراء المهاجرين والأنصار!..وهأنتذا اليوم تكسب ألفًا كل يوم من خراج ضياعك، فكم تنفق منها يا طلحة الجود؟!أين أيامك الباهرات تلك من يومك هذا التعس

الحزين، يوم تخرج فيه أم المؤمنين من بيتها الذي أمرها الله ورسوله أن تقر فيه!..يوم تسوق كثيرا من المؤمنين إلى المذبحة؟!

إلا ملك تريده يا طلحة الخير!؟..إن هو إلا مقام صعب معذب للإمامة الورعة، والخلافة الراشدة!!

أتذكر يوم انحنيت لرسول الله، ليصعد على ظهرك صخرة يلوذ بها من الرماة؟!..أجاء الزمن الذي يصعد فيه على ظهرك هذا بدلاً من رسول الله معاوية أو مروان أو

غيرهما من الطلقاء، فتكون مطيتهم إلى الفتنة.

لن يملكوك شيئًا يا طلحة، فلماذا يؤثرك معاوية على نفسه؟!

إن يريد إلا يجعلك مطيته أيها الصحابي الجليل!!

أتذكر يوم تلقيت النبال عن وجه رسول الله ❒ في أحد؟!..أين يومك ذاك من يومك هذا؟!أين موقفك الأول من موقفك الأخير؟!

وأوشك طلحة أن يقتل، فصاح علي في أصحابه:"إياكم وصاحب البرنس.

إياكم وطلحة إياكم أن تقتلوه!".

وزلزل طلحة زلزالاً عنيفًا مما يسمع!!

لقد خرج يقاتل عليًا، فإذا بعليٍّ الذي يحميه!!

وجعل طلحة يفكر في كل مرة!..

لماذا خرج؟لماذا استنهض الناس؟!..وماذا يريد حقـــا!!

وبدأت مشاعر الندم والتوبة تزحف على عزيمته، وتراخت يداه..وتردد في أغوار نفسه تحذير عِلي:إنه سيبوء باللعنة لأنه يفتح بابا للفتنة سيتسع جيلاً بعد جيل، وسيكون أول من يشرع للمسلم أن يقتل أخاه المسلم!!وأول من يفتح على العرب بعد أن تخلصوا من غشاوة الجاهلية باب الفتك والحرب، فيعربد العربي على أخيه العربي، بحثًا عن مغنم

شخصي! وهمس طلحة لعائشة:"ما عدت أعرف أمخطيء أنـا

أم مصيب يا أم المؤمنين!!".

ورأى الإمام تراخى طلحة عن القتال، فأمر أصحابه بأن ينتظروا.فرح الإمام، فربما حدثت المعجزة، فحقنت الدماء، وسدت ذرائع الفتنة، واستقر في أحلام الناس أنـه لا يحق لعربي أن يحارب أخاه، ولا لمسلم أن يطعن أخاه!

وأعاد الإمام التحذير بألا يقتل أحد طلحة الخير أو يسمه بسوء!

وشعر طلحة إلى أغوار نفسه بندامة..فأعلن أن يندم على خروجه لقتال عِلي أمير المؤمنين!!

وبينما الجميع يتنادون بالسلام إذ بسهم في حلقه بغتة، فيسقط من فوره!!

وهمس مروان بن الحكم لنفسه إذ رأي طلحة يسقط:"لا أطلب بثأرى بعد اليوم!فهذا هو الذي حاصر عثمان واشتد عليه حتى قتله!"..ثم قال لأحد أبناء عثمان:"لقد كفيتك ثأر أبيك من طلحة".

وفي الحق أنه ما من أجل هذا وحده غدر مروان بحليفه طلحة..ولكن مروان نظر في الأمر بدهائه ومكره الخبيث، فوجد الزبير قد أعلن من قبل أنه لن يحارب عليا، وها هو ذا طلحة يعلن الشيء نفسه، ولربما بايع عليا!!فلئن حدث هذا، لاستقر الملك لعِلي ولبني هاشم، ولفقده معاوية وبنو أمية!!..فإن كانت الأخرى، وانتصر طلحة، فسيؤول إليه الأمر، وستؤيده عائشة!وكلاهما يرى أن معاوية

لا حق له في الخلافة لأنه من الطلقاء:طليق وابـن طليـق، وإذن فسيفقدها بنو أمية على الحالتين!!.

وإذن فليصرع هو طلحة في المعركة وليبـؤ عِلـي بدمه!!

ونظر طلحة إلى دمه الذي ينزف، وندم هائل يضغط على صدره، وقال متطهرا ممـا فـرط منـه فـي أمـر عثمان:"اللهم خذ لعثمان مني حتى يرضى".

واستعرت المعركة من جديد، وخاضت الخيـل فـي دماء الرجال، ورأى الإمام أنه ما من سـبيل لحقـن الـداء بعد..فالجنون والغيظ والاحتدام والانفعالات المدمرة هي التي تحرك سواعد الرجال!!ورآهم يتسـاقطون صـرعى حـول الجمل، فصاح:"اعقروا الجمل، فإنه إن عقر تفرقوا".

وحمل بعض أصحاب الإمام عِلي الجمـل، فعقـروه فسقط، فانهزم أصحاب عائشة، وفروا عنها، ووقعت هي في الأسر!

***

وجئ بمروان بن الحكم وعمرو بن عثمان ونفر من رؤساء بني أمية أسرى يرتعدون بعد أن كـانوا قـد فـروا

واختبأوا.فقال مروان وهو يرتعد للإمام:"امدد يدك نبايعك ويبايعك قومي".قال الإمام:"لا حاجة لي فيها.إنها كف يهودية لو بايعتني بها عشرين مرة لنكثت!هيه يا مروان!خفت على رأسك أن تقع في هذه المعممة!".

فقال بعض أصحابه:"يا أمير المؤمنين اقتل هؤلاء الأسرى".فقال رضي الله عنه:"لا أقتل أسير أهل القبلة إذا رجع ونزع".

وفر مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان بن عفان، وعدد من سادات بني أمية، واختفوا في دار بالبصرة..ورأى الإمام جماعة من أصحاب يطاردون الفارين فأرسل وراءهم مناديا يكرر أوامره:"لا تتبعوا موليا، ولا تطلبوا مدبرا، ولا تجهزوا على جريح، لا تدخلوا دارا، ولا تقتلوا أسيرا، ولا تهتكوا سترا، ولا تقربوا شيئًا من أموالهم إلا ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله.من ألقى السلاح فهو

آمن، ومن دخل داره فهو آمن".

ودعا الإمام إليه محمد بن أبي بكر فقال:"انظر هل وصل إلى أم المؤمنين شيء من مكروه".فجاءها فضرب

الهودج بيد فقالت:"من أنت!"قال:"أقرب الناس منك قرابة، وأبغضهم إليك!أنا محمد أخوك!يقول لك أمير المؤمنين هل أصابك شيء؟".

قالت:"ما أصابني إلا سهم لم يضرني".فقال لها:"أما سمعت الرسول يقول:علي مع الحق، والحق مع علي؟ثم خرجت تقاتلينه"قالت:"فليغفر الله لي!".وقال لها عمار بن ياسر:"أين أنت اليوم يا أم المؤمنين والعهد الذي عهد إليك".فقالت:"إنك والله قوال بالحق!".

وقال لها الإمام:"يا أم المؤمنين.أرسول الله أمرك بهذا؟ألم يأمرك بأن تقري في بيتك؟والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا عقائلهم وأبرزوك".

ثم نظر إلى جنودها وقال:"يا جند المرأة، يا أصحاب البهيمة، رغا فأجبتم، وعقر فانهزمتم!دينكم نفاق، وأخلاقكم رقاق!يا أهل البصر والبصيرة. آالله أمركم بجهادى أم على الله تفترون؟أما إني لا أقول لكم رغبة ولا رهبة منكم.غير إني سمعت رسول الله ❐ يقول:"تفتح أرض يقال لها البصرة، أقوم الأرضين قبلة، وقارئها أقرأ الناس، وعابدها أعبد الناس، وعالمها أعلم الناس، ومتصدقها أعظم الناس صدقة،

وتاجرها أعظم الناس تجارة، يستشهد عند مسجد جمعها الآلاف، الشهيد منهم يومئذ كالشهيد معي يوم بدر".

ثم توجه إلى عائشة فقال:"كيف أنت الآن يا أم المؤمنين؟".قالت:"بخير"قال:"يغفر الله لك".قالت:"ولك".

ورأى أن يرسل عائشة إلى أعظم بيت في البصرة تقيم فيه ريثما يجهزها للرحيل إن أرادت..وسار بها أخوها محمد إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعي، وهو زوج صفية بنت الحارث، وكان عبد الله مع عائشة فقتل في المعركة، وكان أخوه عثمان مع عِلي، وتسلل إليها عدد من الجرحى فأقاموا في الدار نفسها، فأمر عِلي بألا يتعرض أحد لهم..

ومشت عائشة إلى حيث سيرها الإمام، فرأت أشلاء القتلى طافية على وجه الدماء..وأغمضت عينيها، وعضها الندم، وقالت وهي تصرخ:"ليت أمي لم تلدني!".

وتناهت إليها أصوات فاجعة غاضبة..وجاءها القعقاع معاتبا، فقالت من خلال دموعها في ندم عظيم:"ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين عاما".

ووقف عِلي على جثمان طلحة فقال:"إنا الله وإنا إليه راجعون، واالله لقد كنت كارها لهذا، وأنت واالله كما قال القائل:

فتي كان يدنيه الغني من صديقه

إذا هو ما استغني ويبعده الفقر

كأن الثريا علقت في يمينه

وفي خده الشِّعرى [١] ، وفي الآخر البدر

ووجد الإمام جثمان محمد بن طلحة المعروف بمحمد السجاد لكثرة صلاته، فقال:"أما واالله قتلك برك بأبيك!رجمك االله يا محمد..لقد كنت في العبادة مجتهدا".

وصلى على القتلى من الجانبين، ودعا لهم بالرحمة.وبدأ الصلاة على صرعاه.

ثم ذهب إلى عائشة حيث كانت ما برحت تمر بالقتلى، ويتعثر جملها بالأشلاء، فوجدها تبكى أحر بكاء، حتى لقد بلل الدمع خمارها..

وأدرك الإمام أنه الندم!..

---

(1) نجمة.

قالت:"ليته لي من رسول الله بنون عشرة كلهم ثكلتهم ولم يكن يوم الجمل!!".

فواساها الإمام وقال:"يغفر الله لك يا أم المؤمنين!".

فقالت: "ليتني مت قبل يوم الجمل!".

فلما استقرت عائشة في المنزل الذي أنزلها فيه الإمام، ذهب إليها ومعه عدد من أصحابه، وكان المنزل قصرا كبيرا، له حديقة، وفناء واسع، وله طوابق، وبه عدد كبير من الحجرات، فوجد الإمام في بهو القصر نسوة يبكين، فلما رأينه صحن صيحة واحدة:"هذا قاتل الأحبة".وقالت صفية صاحبة المنزل وهي امرأة قتل ولداها أحدهما من أصحاب عائشة، والثاني من أصحاب الإمام، كما قتل زوجها:"أيتم الله منك بنيك!".

ولم يقل الإمام شيئًا، إلا إنه دعا الله لهن بالصبر، وحسن العوض، وعظم الأجر..

وسأل عن غرفة عائشة فأومأن إلى حجرة بالدار، فدخل عليها، فقال لها:جبهتنا [1] صفية.أما إني لم أرها منذ كانت جارية (فتاة)"..ثم خفت صوته فلم يسمع من قوله

---

[1] جبهه: استقبله بالمكروه

شيء، إلا أن عائشة ارتفع صوتها بقولها معتذرة:"لم أفعل كذا".

فلما خرج أمير المؤمنين صاح النسوة في وجهه مرة أخرى:"قاتل الأحبة".فقال لعائشة:"ألا تكفين عني النسوة اللائى يزعمن أني قاتل الأحبة؟ لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في الدار".

وأومأ بيده إلى ثلاث غرف، ففتحت فإذا بواحدة فيها مروان بن الحكم ومعه جرحى من بعض شباب قريش، وفي الثانية عبد الله بن الزبير، ومعه آل الزبير جرحى، وفي الثالثة رئيس أهل البصرة الذي كان يدور مع عائشة أينما دارت ومعه جرحى من أهله!

فسكت بعض النساء، وكفت عنه عائشة الأخريات، وحمدت له أنه قال لجنوده:"لا تجهزوا على جريح، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ولا تتبعوا مدبرا، سنة يستن بها بعد يومكم هذا".

فلما ابتعد عائدا إلى داره لحق به أحد أصحابه، فقال له:إن رجلين وقفا على باب عائشة يغلظان لها القول، فأمر

الإمام بهما فجلد كل منهما ثمانين جلدة!!وطابت نفس عائشة..

***

وجهزها الإمام بخير جهاز من مركب وزاد ومتاع، وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها، إلا من آثر البقاء في البصرة وانضم إلى الإمام.

واختار لها أربعين سيدة من شريفات نساء البصرة ومقاتلاتها، ألبسهن ملابس الرجال وسلحهن بالسيوف والدروع، وأمرهن أن يلزمنا، وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر، فلما رأت ما أعده الإمام لها قالت:"جزى الله علِيا كل خير، جزاه الله الجنة".

وخرجت فودعت الناس وقالت:" يا بني لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين عِلي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وبين أحمائها، وإن علِيا لمن المصطفين الأخيار".

فقال الإمام:"صدقت والله وبرات.ما كان بيني وبينها إلا ذاك.وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة".

وشيعها الإمام عِلي أميالاً، وسرح أبناءه معها يوما..كل ذلك تكريما لها وإعزازا، فطفقت تدعو للإمام:"جزى الله علِيا

الجنة". وكان بعض أصحابه قد حاول أن ينال من النسوة اللائي سببنه فقال:"لا تؤذوا النساء وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم، فالنساء ضعيفات، ولقد كنا ننهي عنهن وهن مشركات.وكان الرجل ليضرب المرأة بالهراوة، فيعير بها هو وولده من بعده، وكان هذا وهن مشركات ، فكيف وهن مؤمنات ؟ ! لقد حاربن الرجال فحاربناهم، وأما النساء والذراري فلا سبيل لنا عليهن، لأنهن مسلمات، وفي دار هجرة.فليس لكم عليهن سبيل، فأما ما أجلبوا عليكم به واستعانوا به على حربكم، وضمه عسكرهم وحواه فهو لكم، وما كان في دورهم فهو ميراث على فرائض الله لذراريهم فليكن هذا سنة لمن يأتي من بعدنا".

فكانت هذه هي أحكام قتال أهل البغي، التي شرحها بعد أجيال وأجيال الإمام الشافعى، واتبعه الإمام أحمد..وتوافق عليها أئمة الدين جميعا.

ولقد أذعن أصحاب الإمام علي كرم الله وجهه لأوامره، واستمعوا نصحه، فجعلوا يمرون بالذهب والفضة في معسكرهم والمتاع، فلا يعرض أحد لما كان من السلاح الذي قاتلوا به، والدواب التي حاربوا عليها. ما لم تكن ملكًا لبيت المال، كما أمرهم الإمام.

ولكن أصحاب الإمام عِلي كانوا ممن ألفوا السؤال عن كل شيء، وقد عودوهم أن يحاوروا، وألا يأتوا أمرا حتى يقتنعوا به.حتى لقد أسأموه بإلحاحهم في السؤال، وكثرة الجدال، قبل أن يفعلوا ما يؤمرون!

قال له بعضهم:"يا أمير المؤمنين!كيف حل لنا قتالهم ودمهم، ولم يحل لنا مالهم وسبي نسائهم!؟".فقال الإمام عِلي:"ليس على الموحدين سبي ولا يغنم من أموال إلا ما قاتلوا به أو عليه، فدعوا ما لا تعرفون. والزموا ما تؤمرون!".فراجعوه، وأكثروا عليه فقال ضائقًا بهم:"هاتوا أسهمكم واضربوا أيها المؤمنين على أمكم عائشة، أيكم يأخذها؟!".فنزعوا قائلين:"نستغفر الله".فتنفس الصعداء قائلاً:"وأنا أستغفر الله".

وبعد أيام اجتمع نفر من أهل قريش فيهم مروان بن الحكم، وكانوا كلهم أسرى أطلقهم الإمام عِلي، فقال بعضهم لبعض:"واالله لقد ظلمنا علِيا، لقد بايعناه ونكثنا بيعته من غير حدث، ولقد أظهره االله عِلينا.فما رأينا أكرم سيرة منه، ولا أحسن عفوا بعد رسول االله.تعالوا حتى ندخل ونعتذر إليه فيما صنعناه".

وشفعوا عنده ابن عمه عبد االله بن عباس، فلما استقبلهم أمير المؤمنين.جعل متكلمهم يتكلم فيتعثر من الحرج، فقال الإمام لهم:"أنصتوا أكفكم!..إنما أنا بشر مثلكم.فإن قلت حقًا فصدقوني، وإن قلت باطلاً فردوا عَلي.أنشدكم االله أتعلمون أن رسول االله قبض وأنا أولى الناس به، وبالناس من بعده؟".قالوا:"اللهم نعم".

قال:"فعدلتم عنه وبايعتم أبا بكر، فأمسكت ولم أحب أن أشق عصا المسلمين، وأفرق بين جماعاتهم، ثم إن أبا بكر جعلها لعمر من بعده فكففت، ولم أهج الناس، وقد علمت أني كنت أولى الناس باالله ورسوله ومقامه، فصبرت.فلما قتل عمر وجعلني سادس ستة، لم أحب أن أفرق بين المسلمين، ثم بايعتم عثمان، فطغيتم عليه، وقتل عثمان وأنا جالس في

بيتي، فأتيتموني وبايعتموني كما بايعتم أبا بكر وعمر، ولكنكم وفيتم لهما ولم تفوا لي!

فما الذي منعكم من نكث بيعتهما ودعاكم إلى نكث بيعتي؟".

قالوا:"يا أمير المؤمنين كن كالعبد الصالح يوسف إذ قال:لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين".

فقال الإمام عِلي ضاحكًا وهو يشير إلى مروان بن الحكم:"لا تثريب عليكم اليوم، وإن فيكم رجلاً لو بايعني بيده لنكث بالسته!..ولكن لا بأس بهؤلاء إذا تابوا إلى الله توبة نصوحا، وأخلصوا واستقاموا وأصلحوا".

قبل أمير المؤمنين منهم البيعة، وتعاهدوا أن يكونوا رسل خير إلى معاوية، ليدخل معهم في الجماعة، فما أحوج هذه الأمة إلى وحدة الكلمة، إلا أنه لم يثق في بيعة مروان فردها!

وفكر الإمام في معاوية:همه الأكبر اليوم..ليته ينيب، بعد أن أناب هذا النفر من قريش، فيجنب الأمة الشقاق!!..ما طمع معاوية في الخلافة وهو من الطلقاء الذين لا حق لهم

في الخلافة؟!فما من أحد من صحابة رسول الله يمكن أن يبايعه؟!!

وحدث الإمام بعض أصحابه عما يرجوه من إنابة معاوية، فنصحوه أن يقودهم فيصدم بهم معاوية وجند الشام..

وتحدث رجل منهم عن عمر بن الخطاب فلامه لأنه استعمل معاوية على دمشق، وأبقاه بدلاً من عزله واكتفي بأن قاسمه أموالاً كسبها بغير حق!!واشتد صاحب الإمام في نقد عمر رضي الله عنه حتى ناله بكلمات تأذى لها الإمام

فقال:"لله در عمر بن الخطاب، فقد قوم الأود [1]، وأقام السنة، ذهب نقى الثوب، قليل العيب، أصاب خيرها، وسبق شرها، أدى إلى الله طاعته، واتقاه بحقه".

ثم جعل يدعو الله:اللهم اجعل الحياة أول كريمة تنتزعها في كرائمي وأول وديعة ترتجعها من ودائعك عندي.اللهم إنا نعوذ بك أن نذهب عن قولك أو نتابع أهواءنا دون الهدى الذي جاء من عندك".

***

وبدأ ينظر في أمر معاوية ويعد كتابا جديدا له..

---

(1) الإعوجاج.

لكم أرسل إليه من قبل!!مهما يكن من شيء فسيظل يرسل إليه حتى ينيب.

وأخذ يتذكر كتبه إلى معاوية، وردوده الجافية عليه.في أول كتاب قال:"من عبد الله أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان.أما بعد فقد علمت إعذارى فيكم وإعراضى عنكم، حتى كان ما لا بد منه، ولا دفع له (يعني أمره مع عثمان)، والحديث طويل، والكلام كثير، وقد أدبر ما أدبر، وأقبل ما أقبل، فبايع من قبلك، وأقبل إلى في وفد من أصحابك".

فلما رد معاوية متحديا ببيت من الشعر القديم معلنًا عليه الحرب، أرسل إليه الإمام ناصحا.فرد معاوية متحديا! حتى كتب إليه الإمام رسالة طويلة جاء فيها:"عندي السيف الذي أعضضته بجدك(عتبة والد هند أم معاوية)وخالك وأخيك في مقام واحد.وإنك والله ما علمت الأغلف القلب، المقارب العقل(ضعيف) والأولى أن يقال لك:إنك رقيت سلما أطلعك مطلع سوء عليك لا لك، لأنك نشدت غير ضالتك، ورعيت غير سائمتك، وطلبت أمرا لست من أهله ولا من معدنه، فما أبعد قولك من فعلك!...".

وكان قد أرسل إليه مرة أخرى:"فمن الآن فتدارك نفسك وانظر لها، فإنك إن فرطت حتى ينهض إليك عباد الله، أرتجت عليك الأمور ومنعت أمرا هو خير لك"..

وكان قد كتب له:"أما إكثار اللجاج في عثمان وقتله، فإنك إنما نصرته حيث كان النصر لك (باتخاذه ذريعة لما تريد)، وخذلته حيث كان النصر له!".

ولقد علم معاوية بما كان من أمر طلحة والزبير، وكثرة القتلى، وقول الناس:"ما رأينا صرعى مثل يوم الجمل".فانكسر واغتم !

وأرسل إلى الإمام يسأله أن يقره على الشام، فبايعه..وإلا اضطر أن يحاربه، ويقود إليه جيشًا من مائة ألف، لا يعرفون أحدا من أهل الفضل أو السابقة في الإسلام، ولا يطيعون غير معاوية الذي أغدق عليهم الأموال!.

الإمام وهدد معاوية بأن جيشه يفوق جيش علي، وأنه وعليا بعد متساويان فكلاهما من بني عبد مناف، فكتب إليه:"فأما طلبك الشام فإني لم أكن لأعطيك ما منعتك أمس، وأما قولك إن الحرب يوم الجمل قد أكلت العرب إلا حشاشات أنفس بقيت، ألا ومن أكله الحق فإلى الجنة، ومن

أكله الباطل فإلى النار، وأما استواؤنا في الحرب والرجال، فلست بأمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة.وأما قولك أنا بنو عبد مناف، فكذلك نحن، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطليق، ولا المحق كالمبطل، ولبئس الخلف خلفًا يتبع سلفًا هو في نار جهنم!..ولما أدخل الله العرب في دينه أفواجا، وأسلمت له هذه الأمة طوعا أو كرها كنت ممن دخلتم في دين الله إما رغبة أو رهبة، على حين فاز أهل السبق بسبقهم، وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم، فلا تجعلن للشيطان فيك نصيبا، ولا على نفسك سبيلًا

وانتظر الإمام جواب معاوية..فلم يعد للإمام هم أخطر منه!وإنه لهم الهموم!!

***

الفصل الثاني عشر
الصبر والمصابرة

لبث الإمام علي كرم الله وجهه في البصرة أياما يتفقد أمورها، وينصح أهلها، وينظر في أمور الكيل والميزان والتجارة وأحوال الناس، ليصلح شئونهم.
روى الحسن البصرى:"كنت جالسا بالبصرة -وأنا حينئذ غلام – أتطهر للصلاة، إذ مر بي رجل راكب بغلة شهباء متعمم بعمامة سوداء، فقال لي:"يا حسن! أحسن وضوءك يحسن الله إليك في الدنيا والآخرة.يا حسن! أما علمت أن الصلاة مكيال وميزان؟".فرفعت رأسي فتأملت فإذا هو أمير المؤمنين عِلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه، فأسرعت في طهوري، وجعلت أقفو أثره إذ حانت منه التفاته فقال لي:"يا غلام ألك حاجة؟".قلت:"نعم يا أمير المؤمنين.تفيدني كلاما ينفعني في الدنيا والآخرة".قال:"يا غلام إنه من صدق الله نجا، ومن أشفق من ذنبه أمن الردى، ومن زهد في هذه الدنيا قرت عيناه بما يرى من ثواب الله غدا".ثم قال:"يا غلام ألا أزيدك؟".قلت:"بلى يا أمير المؤمنين".قال:"إن

سرك أن تلقى الله غدا وهو عنك راض فكن في هذه الـدنيا زاهدا وفي الآخرة راغبا، وعليك بالصدق في جمع أمـورك تنج مع الناجين غدا، يا غلام إن تضع هذا الكـلام نصـب عينيك، ينفعك الله به".ثم أطلق عنان البغلة من يده، فجعلـت أقفو أثره، إذ دخل سوقًا مـن أسـواق البصـرة، فسـمعته يقول:"يا أهل البصرة يا أهل تدمر، يا عبيد الـدنيا وعمـال أهلها، إذا كنتم بالنهار تخدمون الدنيا، وفي الليـل تنـامون، وفي خلال ذلك عن الآخرة تغفلون، فمتي تحرزون الـزاد،

وتفكرون في المعاد؟".

فقام إليه رجل من السوق فقال:"يا أمير المؤمنين إنه لا بد من طلب المعاش فكيف نصنع؟".فقال:"أيها الرجـل إن طلب المعاش من وجهه الحلال لا يشغلك عن الآخرة، فـإن قلت لا بد لنا من الاحتكار، لم تكن معذورا".فتـولى الرجـل وهو يبكي.

فقال أمير المؤمنين:"أقبل عَلى يا ذا الرجل أزدك تبيانًا، إنه لا بد لكل عامل من أن يوفي يوم القيامة أجر عمله، فمن كـان عمله للدنيا وحدها، فأجره النار".

ثم خرج من السوق والناس في رنة بكاء، إذ مر بواعظ يعظ الناس، فلما أبصر أمير المؤمنين سكت ولم يتكلم بشيء، فقال كرم الله وجهه:"فكم وإلى كم توعظون فلا تتعظون!قد وعظكم وزجركم الزاجرون.وحذركم المحذرون، وبلغكم المبلغون، ودلت الرسل على سبيل النجاة، وقامت الحجة، وظهرت المحجة، وقرب الأمر والأمد، وسيعلم الذين ظلموا إلا منقلب ينقلبون.أيها الناس إنه لم يكن الله تعالى في أرضه حجة ولا حكمة أبلغ من كتابه، ولا مدح الله أحد منكم إلا من اعتصم بحبله، وإنما هلك من هلك عنده من خالفه واتبع هواه!واعلموا أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، والله ما هو شيء قلته من تلقاء نفسي، ولكني سمعت رسول الله ❐ يقول:"ما من عبد جاهد نفسه فردها عن معصية الله، إلا باهى به كرام الملائكة، ومن باهى به كرام الملائكة فلن تمسه النار.فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم"..انتهي كلام الحسن البصرى.

***

قدم الإمام عِلي من البصرة إلى الكوفة في رجب سنة ست وثلاثين، ومعه أشراف البصرة، فخرج الناس إليه قبل

أن يدخلها يتلقونه فرحين، يهنئونه بالنصر، ويدعون له بالبركة.

وإنه ليمسح عرقه عن جبهته، إذ قال له أحد أشراف الكوفة:"الحمد الله يا أمير المؤمنين الذي أعز وليك، وأذل عدوك، ونصرك على القوم الباغين الطاغين الظالمين".
فشكره الإمام.

فوثب رجل آخر، فقال متقربا للإمام متوددا إليه:"أي واالله يا أمير المؤمنين الحمد الله الذي نصرك على الباغين الظالمين الكافرين المشركين".فقال له الإمام غاضبا:"ثكلتك أمك!ما أقوالك بالباطل، وأجرأك على أن تقول ما لا تعلم!ليس القوم كما تقول!..
لو كانوا كافرين مشركين، لسبينا نسائهم، وغنمنا أموالهم، ولما صاهرناهم ولا وأرثناهم".

وقادوا الإمام إلى قصر الإمارة لينزل فيه، ولكنه قال لهم:"لا أنزل القصر، ولكني أنزل الرحبة".وهي ساحة المسجد الجامع، فنزلها وأقبل حتى دخل المسجد فصلى ركعتين، وانشغل بعض أهل الكوفة بأن يقيموا في الرحبة

منز ً لاصغيرا لأمير المؤمنين، يؤدي إلى المسجد، وكان قد أوصاهم أن يكون منزله كأفقر بيت في الكوفة!..

وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، وقال:"وأما بعد يا أهل الكوفة فإن لكم في الإسلام فضلاً ما لم تبدلوا وتغيروا، دعوتكم إلى الحق فأجبتم، وبدأتم بالمنكر فغيرتم..ألا إن أخوف ما أخافه عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة.ألا إن الدنيا قد ترحلت مدبرة، والآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل واحدة منها بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا.اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب بلا عمل.الحمد لله الذي نصر وليه، وخذل عدوه، وأعز الصادق المحق، وأذل الناكث المبطل.عليكم بتقوى الله، وطاعة الله، وأطيعوا أهل بيت نبيكم الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه، من المنتحلين المدعين المغالين الذين يتفضلون بفضلنا، ويجاحدوننا أمرنا، وينازعوننا حقنا، ويدافعوننا عنه، فقد ذاقوا وبال ما اجترحوا، فسوف يلقون غيا.ألا إنه قد قعد عن

نصرتي رجال منكم أنا عليهم عاتب، فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون حتى يعتبوا [١] أو نرى منهم ما نرضى".

فقام إليه صاحب الشرطة فقال:"يا أمير المؤمنين، إني والله لأرى الهجر وإسماع المكروه لهم قليل.والله لئن أمرتنا لنقتلنهم".

فعجب الإمام وقال لصاحب شرطته:"سبحان الله!جزت المدى، وعدوت الحد، وأغرقت في النزع!!".فقال صاحب الشرطة:"يا أمير المؤمنين بعض الغَشْم (الظلم) أبلغ في أمور تصيبك من مهادنة الأعادي".فقال:"ليس هكذا قضى الله.

قال تعالى: (النفس بالنفس).فما بال الغَشْم؟!وقال تعالى: (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانًا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا) والإسراف في القتل أن تقتل غير قاتلك.وذلك هو الغشم، وقد نهى الله عنه"!

فقام إليه رجل من الأزد ممن تخلف عنه فقال:"يا أمير المؤمنين.

---

[1] أعتبه: سره بعد ما ساءه، والاسم منه العتبى.

أرأيت القتلى حول عائشة والزبير وطلحة بم قتلوا"؟قال:"بما قتلوا من شيعتي وعمالي، وقتلوا أخا ربيعة رحمة الله في عصابة المسلمين لأنهم قالوا لهم:لا ننكث كما نكثتم ولا نغدر كما غدرتم!

فوثبوا عليهم فقتلوهم، فسألتهم أن يدفعوا إلى قتلة أخواني أقتلهم بهم، ثم كتاب الله حكم بيني وبينهم، فأبوا على ، فقاتلوني وفي أعناقهم بيعتي ودماء ألف رجل من إخواني، فقاتلتهم بهم.أفي شك أنت من ذلك؟قال:"قد كنت في شك فأما الآن فقد عرفت واستبان لي خطأ القوم، وإنك أنت المهدى المصيب".

فسأله رجل عن مصير من قتل في هذه الحرب، أشهيد هو؟فقال كرم الله وجه"رجوت الله ألا يقتل في هذه الحرب منا أو منهم أحد نقى قلبه إلا أدخله الله الجنة".

وتصايح الناس معجبين بهذه السماحة الرائعة الخارقة:"الله درك يا إمام!".

ودخل عليه وهو في المسجد في زحام مستقبله جماعة من أشراف الفرس الذين أسلموا، وكانوا يقيمون بالكوفة والمدائن وما حولها، فرحب بهم الإمام، وشرعوا

يتكلمون جميعا معا في ذات الوقت، في تحية حارة صادقة للإمام، فابتسم لهم الإمام وقال:"إني لا أفقه عنكم، فأسندوا أمركم إلى أرضاكم في أنفسكم".فقدموا رجلاً منهم فقال:"والله يا أمير المؤمنين لقد زنت الخلافة وما زانتك، ورفعتها وما رفعتك، وهي كانت أحرج إليك، وهي كانت أحوج إليك منك إليها".فشكره الإمام ثم سأله:"إلا ملوككم كان أحمد عنكم؟"قال:"أحمدهم سيرة كسرى أنو شروان".قال الإمام:"إلا أخلاقة كان أغلب عليه؟". فأجاب:"الحلم والأناة".قال الإمام:" هما توأمان ينتجهما علو الهمة".ثم سأله "أخبرني عن سيرة ملوك فارس".قال:"مازالت سيرتهم في عظم أمورهم واحدة حتى ملكنا كسرى بن هرمز، فاستأذن بالمال والأعمال وخالف أوائلنا وخرب الذي للناس، وعمر الذي له واستخفت بالرعية، فأوغر نفوس فارس، حتى ثاروا عليه فقتلوه، فأرملت نساؤه، ويتم أولاده"!فقال الإمام:"إن الله عز وجل خلق الخلق بالحق، ولا يرضى من أحد إلا بالحق، وفي سلطان الله تذكرة مما خول الله.وإنه لا تقوم مملكة إلا بتدبير، ولابد من إمارة.ولا يزال أمرنا متماسكًا ما لم يشتم آخرنا أولنا، فإذا خالف آخرنا أولنا وأفسدوا، هلكوا وأهلكوا".

ولم يغادر الإمام مجلسه هذا حتى أمر بعزل بعض الولاة، واستعمال آخرين.

***

أمير اتخذ الإمام عِلي المسجد الأعظم بالكوفة مقرا للخلافة..فمن ركن هادئ من هذا المسجد الجامع، كان المؤمنين يدير شئون الدولة، وينظر في أمور الرعية..

من هذا الركن الهادئ كان الإمام يعلم الناس ويعظهم، كما تعود أن يصنع من قبل في ركن هادئ من المسجد النبوي الشريف، أيام كان لا يثقل كاهله أعباء الحكم، ولا يعنيه إلا أن يأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر، ويفقه الناس في أمور الدين والدنيا، ويعلمهم ما جاء به الإسلام متمما لمكارم الأخلاق.

من هذا الركن الهادئ من بيت الله الذي أسس على التقوى في الكوفة كانت الكتب تجري بين الإمام بكل زهده وخشونة ملبسه وورعه، وبين قصر الخضراء في دمشق، حيث يعيش معاوية بن أبي سفيان، كما يعيش أباطرة الرومان!

وفي أول جمعة، صلى الإمام بالناس، وجعل خطبة الجمعة قصيرة، سنة عن رسول الله ، فقد كان الرسول يكره الإطالة في خطبة الجمعة وقد علم الصحابة أن يوجزوا فيها، وهكذا تعود الخلفاء الراشدون والصحابة جميعا الخطب القصار التي تشق على المصلين ولا تسئمهم، كما علمهم أن يصلوا بالناس صلاة أضعفهم، فلا يطيلوا.

قال الإمام عِلي في خطبة أول جمعة صلاها بالناس في الكوفة:"الحمد الله أحمده وأستعينه وأستهديه وأومن به وأتوكل عليه.وأعوذ باالله من الضلالة، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، انتخبه لأمر هو اختصه بنبوته، أكرم خلقه، وأحبهم إياه، فبلغ رسالة ربه، ونصح لأمته، وأدى الذي عليه.أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله، وأقربه إلى رضوان الله، وخيره في عواقب الأمور عند الله، وبتقوى الله أمرتم، وللإحسان والطاعة خلقتم، فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه، فإنه حذر بأسا شديدا، واخشوا الله، واعلموا في غير رياء ولا سمعة، فإن من عمل لغير الله إلى من عمل له،

ومن عمل مخلصا تولى الله ثوابه.,وأشفقوا من عـذاب الله، فإنه لم يخلقكم عبثًا، ولم يترك شيئًا من أمركم سدى، قـال رسول الله ❐: (ما من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، وما من شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنـه).إن الله تعالى قد علم أعمالكم، وكتب آجالكم، فلا تغتروا بالـدنيا فإنها غرارة لأهلها، مغرور من اغتـر بهـا، وهـي إلـى فناء.(وإن الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون). أسـأل الله منازل الشهداء، ومرافقة الأنبياء، فإنما نحن بــه ولــه".لـم تستغرق خطبة الإمام دقائق.

ثم صلى بالناس فلم يطل، ذلك أنه كان بالقول والفعل يعلم الناس السنة الشريفة، وهي تحتم على الذي يؤم المصلين أن يراعى قدرة أضعفهم على الاحتمال، فلا يشـق علـيهم بالإطالة..

وبعد الصلاة التفَّ نفر من المصلين حول الإمام كرم الله وجهه، عيسى أن يسمعوا موعظة من مواعظـه، ولكنـهقال لهم:"أنتم وجوه العرب عندي ورؤساء أصحابي فأشيروا على أمر هذا الغلام المترف!".يعني معاوية.

كان الإمام معذبا من أمر معاوية، وما أحدثه من شقاق، وما جهر به من عصيان، وما يفتح من أبواب للفتنة تراق فيها دماء المسلمين بسيوف المسلمين!!

فقال أحد كبار المهاجرين:"إن معاوية أترفه الهوى، وحببت إليه الدنيا فهانت عليه مصارع الرجال، واشتهى آخرتهم بدنياه.والرأي أن ترسل إليه ثقة من ثقاتك بكتاب تدعوه إلى بيعتك مرة أخرى، فإن أجاب كان له ما لك وعليه ما عليك، وإلا جاهدته وصبرت لقضاء الله حتى يأتيك اليقين".

وتململ بعض من بالمجلس، فكم ذا أرسل الإمام إلى معاوية، وهو مصر على الشقاق!!الكتب وردودها تكرر المعنى، أحيانا الكلمات..ولا جدوى!!

فنظر الإمام حو له، فوجد جرير بن عبد الله يهم بالكلام، وجرير هو عامل عثمان على همدان:

لقد عزل عِلِيّ كثيرا من عمال عثمان، ولكنه أبقي جرير ابن عبد الله لما يعرف من أمانته وورعه، مع حسن نهوضه للأمر، فكتب إليه حينئذ"أما بعد، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا

مرد له، وما لهم دونه من والٍ، ثم إني أخبرك عنـا وعمـن سرنا إليهم، من جمع طلحة والزبير بعد نكثهما ببيعتهما، وما صنعا بعاملي عثمان بن حنيف، إني هبطـت مـن المدينـة بالمهاجرين والأنصار، حتى إذا كنت ببعض الطريق، بعثت إلى الكوفة الحسن ابني، وعبد الله بن العباس ابـن عمـي، وعمار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عبادة، فاستنفرتهم بحق الله ورسوله، فأجابوا، وسرت بهم حتى نزلت بظهر البصرة، فأعذرت في الدعاء، وأقلت في العثرة، وناشدتهم عقد بيعتهم، فأبوا إلا قتالي، فاستعنت الله عليهم، فقتل من قتـل، و ولّـوا مدبرين إلى مصيرهم، فسألوني ما كنت دعوت إليـه قبـل اللقاء، فقبلت العافية، ورفعت عنهم السيف، واستعملت عليهم عبد الله بن عباس"..فقام جرير حينئذ فقرأ كتاب الإمام عـن أهل ولايته ثم قال:"أيها الناس، هذا كتاب أمير المؤمنين عِلي بن أبي طالب، وهو المأمون على الدين والدنيا، وكان مـن أمره وأمر عدوه ما قد سمعتم، ولقد بايعه السابقون الأوائـل من المهاجرين والأنصار، وبايعه التابعون بإحسـان، ألا وإن البقاء في الجماعة، والفناء في الفرقة، وعِلي بن أبي طالـب

حاملكم على الحق ما استقمتم له، فإن ملتم أقام ميلكم".فقال الناس:"سمعا وطاعة".

جرير في مجلس الإمام يريد الآن أن يتحدث.. ولكن الإمام أشار إليه أن ينتظر حتى يتحدث شيخ المهاجرين عمار بن ياسر.فقال عمار:"يا أمير المؤمنين.لقدقاتلك بعض من بايعك فأعطاك الله فيهم ما وعد في قوله جل وعز: (ثم بغى عليه لينصرنه الله)

وقوله:"يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم).وقوله: (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه)وقد كانت لنا الكوفة، والبصرة علينا، فأصبحنا على ما تحب، بين ماض مأجور، وراجع معذور، وإن بالشام الداء العضال، رجلاً لا يسلمها أبدا إلا مقتولاً أو مغلوبا، فعاجله قبل أن يعاجلك".

وقبل أن يتحدث جرير قام الأشتر، وكان الإمام قد استعمله على الكوفة بدل أبي موسى الأشعري، فقال:"يا أمير المؤمنين، إنما لنا أن نقول قبل أن تقول، فإذا عزمت فلم نقل.فلو سرت بنا إلى الشام بهذا الجمع لم يلقوك بمثله، فإن القلوب اليوم سليمة، والأبصار صحيحة".

ولكن الإمام كان لا يريد أن يبدأ بـالحرب، وكـان حريصا على إنقاذ مهج المسلمين من سيوف المسلمين!

من أجل ذلك عزم عِلي أن يعاود الكتابة إلى معاوية، وفكر فيمن يحمل رسالته، وإذ بجرير بن عبد الله ينظر مرة إلى الإمام في انتظار أن يفرغ من الكلام من هم أكبر منـه سنا، أو أسبق منه في الإسلام.

فلما جاء دوره قال:"يا أمير المؤمنين، أرسلني إلـى معاوية فإن أكثر من معه من قومي، فلعِلي أجمعهـم علـى طاعتك":فقال الأشتر"يا أمير المؤمنين لا تبعثه فـإن هـواه هواهم".قال الإمام:"دعه يتوجه، فإن نصح كـان ممـن أدى أمانته، وإن داهن كان عليه وزر مـن اؤتمـن، ولـم يـؤد الأمانة"!

وسكت كرم الله وجهه مليا وهو يتأمل وجـوه مـن كانوا في مجلسه..وشرد فكره في مناوئيه من بني أمية، وهو يتأمل موقف أهل الشام ثم قال:"يا ويحهم مع مـن يميلـون ويدعونني؟!فوالله ما أردتهم إلا على إقامة حق، ولا يريـدهم غيري إلا على باطل".

ثم التفت إلى جرير وقال:"يا جرير ما من عبد أنعم الله عليه بنعمة إلا كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام فيها بما يحب الله عز وجل، عرض نعمته للبقاء، ومن قصر فيما يحب الله فقد عرض نعمته للزوال".ثم أخبره أنه أرسل من قبل إلى معاوية يدعوه إلى البيعة فرد المرة بعد المرة بقوله:"أقرني على عملي، وادفع إلى قتلة ابن عمي أبايعك".

وأضاف الإمام:"أيشرط على معاوية الشروط في البيعة؟!ويسألني أن أدفع إليه قتلة عثمان؟!فما معاوية والطلب بدم عثمان؟!إنما هو رجل من بني أمية، وبنو عثمان أحق بالطلب بدم أبيهم، فإن زعم أن أقوى على ذلك منهم، فليبايعني وليحاكم لي".

إن الإمام ليصبر على معاوية وأهل الشام، حتى ليحسبه الجاهل خائفًا!!ولكنه الحرص على دماء المسلمين ووحدتهم، والخشية من انتصار الباطل!..قال كرم الله وجهه:"ما شككت في الحق منذ رأيته، لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه بل أشفق من غلبه الجهال ودول الضلال...من وثق بماء لم يظمأ".

فقال له بعض من سمعه:"يا أمير المؤمنين ما سمعنا قبل اليوم مثل هذا!!إنه أفضل تفسير لقوله تعالى: (وأوجس في نفسه خيفة موسى) وأفضل تبرئة لنبي الله من الشك في أمره"!

***

قبل أن يبرح جرير الكوفة إلى دمشق، دعا معاوية أهل الشام بغتة إلى بيعته أميرا للمؤمنين!..وأغرى الناس بالأموال الطائلة!

فلما بايعه أهل الشام، ثار عليه بعض من به من المهاجرين والأنصار والتابعين وقالوا:"ليس من قتل عثمان بأعظم جرما ممن بايع معوية أمير للمؤمنين"!..وأفتوا بأن معاوية طليق فلا يحق له أن يكون خليفة!!

وأغرق معاوية بعضهم بالأموال والعبيد والإماء، فسكتوا عنه.لم يبايعوه ولم يلوموه!

ثم أرسل إلى الإمام خطابا متحديا:"أما بعد، فإنا كنا نحن وإياكم يدا جامعة، وألفة أليفة، حتى طمعت يا ابن أبي طالب فتغيرت، وأصبحت تظن نفسك قويصا على من عاداك بطغام أهل وأوباش أهل العراق، وحمقى الفسطاط، الحجاز،

وغوغاء أهل مصر، وأيم الله لينجلين عنك حمقاها، ولينقشعن غوغاؤها انقشاع السحاب.قتلت عثمان بن عفان، ورقيت سلما أطلعك الله عليه مطلع سوء عليك لا لك، وقتلت الزبير وطلحة، وشردت أم المؤمنين عائشة، وخيل إليك أن الدنيا قد سُخِّرت لك بخيلها ورجلها، وإنما تعرف أمنيتك لو قد زرتك في المهاجرين من أهل الشام بقية الإسلام، فيحيطون بك من ورائك، ثم يقضي الله علمه فيك، والسلام على أولياء الله".

ها هو ذا معاوية يتحداه مرة أخرى، ويستفزه للقتال!!

ولكن الإمام لا يريد أن يضرب المسلمون بعضهم رقاب بعض مرة أخرى، وكفى ما سال من دماء يوم الجمل، وكفى شقاقًا والروم يتربصون الدائر بالمسلمين والعرب!

وكظم الإمام غيظه من هذا الوالي المتمرد الذي يجهر بمخالفة الجماعة، ويعلن الثورة، ويصر على البغي

إصرارا!.. آلى الإمام على نفسه أن يصبر، ويدعو إلى الوفاق

ما وسعه الصبر.

إن معاوية ليعتز بما عنده من مال ورجال، وإنه ليدعو إلى العصبية الجاهلية التي قضى عليها الإسلام.

إن معاوية ليخشي أن يسترد الإمام منه ومن عصبيته ما أخذوه من بيت المال بغير حق، فيرده إلى المسلمين لينفق في وجوه المصالح العامة، ويسد به حاجات المحرومين!!

مهما يكن من أمر معاوية يا ولي الله فليكن في الرد عليه ما يدحض مزاعمه، ويلزمه حجة الطاعة!

وكتب الإمام إلى معاوية:"أما بعد، فقدر الأمور تقدير من ينظر لنفسه دون جنده، ولا يشغل بالهزل من قوله، فناج نفسك مناجاة من يستغني بالجد دون الهزل، فإن في القول سعة!.وأما ما ذكرت من أنا كنا وإياكم يدا جامعة، فلقد كنا كما ذكرت، ففرق بيننا وبينكم إن الله بعث رسوله منا فآمنا به وكفرتم!ثم زعمت أني قتلت طلحة والزبير، فذلك أمر غبت عنه ولم تحضره، ولو حضرته لعلمته، فلا عليك، ولا العذر فيه إليك،

وزعمت أنك زائري في المهاجرين، وقد انقطعت الهجرة حين أسر أخوك في بدر، وإن أزرك فجدير أن يكون الله بعثني إليك، للنقمة منك والسلام".

ولم يرد معاوية!..

لقد حسب أنه سيرهب الإمام عِلي ، أو يستفزه لقتاله، ولكنه بهِت إذ وجده يرد على التحدى والاستفزاز، بالكلمات، لا بالطعنات!..

ولم يمهل الإمام عصابة البغي..

كل المهاجرين والأنصار معه، إلا نفرا قليلاً اصطنعهم معاوية، أو اعتزلوا إيثارا للعافية!وكان ممن اعتزلوا سعد بن أبي وقاص، وهو أحد المبشرين بالجنة.

أرسل معاوية إلى سعد بن أبي وقاص، يغريه بعِلي ، وقدر معاوية أن انضمام سعد إليه سيجذب إلى معسكره عددا من المهاجرين والأنصار يحتج بهم على أهل الورع والتقوى من أصحاب عِلي !

كان ابن سعد قد حاول أن يقنع أباه أن يدعو إلى نفسه لما رأى موقف معاوية من الإمام عِلي ، فقال سعد:"لا أفعل.إني سمعت رسول الله يقول إن تكن فتنة، فخير الناس فيها الخفي التقي ، واالله لا أشهد هذا الأمر أبدا".وأمر أهله ألا يخبروه بشيء من أخبار الناس حتى تجتمع الأمة على إمام لا يخرج عليه أحد، كما اجتمعت من قبل على

الخلفاء الثلاثة.غير أن معاوية طمع في تأييد سعد فأرسل إليه يدعوه إلى الطلب بدم عثمان، فلم يقبل سعد منه الدعوة، ولم يخرج من بيته وقال:"ما بكيت من الدهر إلا ثلاثة أيام:يوم قبض رسول الله ❐، ويوم قتل عثمان، واليوم أبكى على الحق".

ثم كتب إلى معاوية ينصح له أن يدع دم عثمان، وأن يعدل عما هو آخذ فيه، ويقرعه لأنه يصاول عِليا، ويقارن نفسه به، ويقول في آخر كتابه:"اليوم من عِلي بن أبي طالب خير منك حيا وميتًا".

***

عاد الإمام يكتب إلى معاوية:"أما بعد، فإن القضاء السابق، والقضاء النافذ، ينزل من السماء كقطر المطر، فتمضي أحكامه عز وجل، وتنقذ مشيته بغير تحاب المخلوقين، ولا رضا الآدميين، وقد بلغك ما كان من قتل عثمان رحمه الله، وبيعة الناس إياي، ومصارع الناكثين لي، ولقد أتاني أبوك حين قبض رسول الله ❐ وبايع الناس أبا بكر، فقال:أنت أحق بهذا الأمر، فابسط يدك أبايعك.فأبيت ذلك مخافة الفرقة لقرب عهد الناس بالكفر والجاهلية.فإن

تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه تصب رشدك، وإلا تفعل فسيغني الله عنك.فادخل فيما دخل فيه الناس، وإلا فأنا الذي عرفت، وحولي من تعلمه والسلام".

وأرسل الكتاب مع أحد الذين دافعوا عن عثمان يوم الدار.

فلما قرأ معاوية الكتاب اغتم، وأخفاه عن أهل الشام.فقام رسول علي في الناس خطيبا ومعاوية حاضر بالمسجد الجامع في دمشق فقال:"يا أهل الشام.إن أمر عثمان أشكل على من حضره:عابه قوم فقتلوه، وغدر به قوم فلم ينصروه!..وقد بايع الناس عليا من على منبر رسول الله بيعة عامة، من رغب عنها رد إليها صاغرا داحرا، فانظروا في ثلاث وثلاث ثم اقضوا على أنفسكم:أين الشام من الحجاز؟وأين معاوية من علي؟وأين أنتم من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان"؟

فغضب معاوية، وخشي ما قد يفعله هذا الكلام ببعض الناس، فنادى رسول علي ، فصرفه من فوره.وقال:"أعلم عليا أن رسولي إليه على إثرك"!

وأرسل معاوية رسولاً إلى عِلي في الكوفة، فأخبر الناس أن معاوية قد أعد مائة ألف من الفرسان يريدون رقبة عِلي، ووصف لهم بكاء أهل الشام على قميص عثمان!

فوثب إليه رجل من أنصار الإمام فقال:"إنا والله ما نخاف رجالك ولا خيلك، أما بكاء أهل الشام على قميص عثمان، فوالله ما هو بقميص يوسف، ولا حزن يعقوب، فأما قتالهم أمير المؤمنين، فإن الله يصنع من ذلك ما أحب".

وأحسن الإمام إلى رسول الله معاوية كما أحسن إليه أصحاب الإمام، وأخذوا يحاورونه في أمر معاوية وبغيه، حتى شك الرجل في أمر معاوية، وترك الشام وأقام بالعراق نصيرا للإمام.

وعاد إلى معاوية جواسيسه الذين بثهم في العراق فحكوا له ما شهدوه من إجماع الناس على أن عِليا أبرأ الناس من دم عثمان، وأن طلحة والزبير هما اللذان حرضا عليه!!

ثم وصفوا له مقدم الإمام إلى الكوفة فقالوا:"فرح الناس بمقدمه، فحملوا إليه الصبي الصغير، ودبت إليه العجوز، وخرجت إليه العروس، سرورا به وشوقاً إليه"..

كل من جاء من العراق إلى الشام كان يقول لمعاوية عن الإمام عِلي : "احذر، فقد تركته ولا هم له إلا أنت والشام"!

وكلما سمع معاوية هذا القول عن الإمام من رجل قال لشرطته: "أخرجوه لا يفسد عِلينا أهل الشام".

***

أقام الإمام عِلي بالكوفة وأرسل إلى عمال الولايات يطلب منهم حسابا عن الأموال التي تحت أيديهم.. وفزع من ذلك الأشعث بن قيس والي أذربيجان، وقال لخاصته: "جاءني كتاب عِلي ، وهو آخذى بمال أذربيجان وأنا لاحق بمعاوية".

فقال أصحاب الأشعث له: "أتدع مصرك وجماعة قومك، وتكون ذنبا لأهل الشام؟ الموت خير لك من ذلك". ولكنه نهب ما في بيت المال ولحق بمعاوية!

قال الإمام لجرير بن عبد الله: "يا جرير، انطلق إلى معاوية بكتابي هذا وكن عند ظني فيك، وأعلم يا جرير أنك ترى من حولي من أصحاب رسول الله ❐ وفيهم أهل بدر وأني اخترتك عليهم، لقول رسول الله ❐: (خير ذى يمن جرير بن عبد الله).

فاذهب إلى معاوية بكتابي هذا ورسالتي فإن دخل فيما فيه المسلمون، وإلا فانبذ إليه بالحرب!وأعلمه أني لا أرضى به أميرا، والعامة لا ترضى به واليا".وما كان كتاب الإمام إلا مثل الذي سبقه من كتب.

وحمل جرير ما كتبه الإمام إلى معاوية:"أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام، لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماما كان ذلك الله رضا، فإذا خرج منهم خارج ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبي قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وأولاه الله ما تولّى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا!وإن طلحة والزبير بايعاني بالمدينة ثم نقضا بيعتهما، فكان نقضهما كردتهما، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما، حتى جاء الحق، وظهر أمر الله وهم كارهون.فأدخل فيما دخل المسلمون، فإن أحب أمورك إلى العافية، إلا أن تتعرض للبلاء، فإن تتعرض للبلاء قاتلتك، واستعنت بالله عليك.وقد أكثرت الكلام في قتلة عثمان، فادخل في الطاعة، ثم حاكم القوم إلى، أحملك وإياهم

على كتاب الله، فأما تلك التي تريدها فهي خدعة الصبي عن اللبن، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان.وأعلم يا معاوية أنك من الطلقاء، الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تعقد معهم الإمامة، ولا تعرض فيهم الشورى، وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جرير ابن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة السابقة فبايع، لا قوة إلا بالله".

لما قدم جرير على معاوية، وجده على سرير الملك في قصره الضخم، ووجد دون معاوية حجابا، ومن حوله الأتباع.

وعجب جرير مما يرى!!

أين هذا كله مما خلفته يا جرير وراءك في الكوفة،حيث دست الملك هو ركن هادئ من المسجد الجامع، اتخذه الإمام مقرا للخلافة، ومنبرا للوعظ، وشرعة للعلم في آن واحد؟!هذا يا جرير هو فرق ما بين الملك العضوض في دمشق، والخلافة الورعة والإمامة التقية المستبصرة في الكوفة!..هنا ملك يجذب إليه أهل الدنيا بالرشوة، وهناك إمام يخيف أهل الدنيا بعدله، ويرضى أهل التقوى بورعه وفضائله!

ولاحظ جرير أن معاوية قرأ كتاب الإمام لنفسه، ولم يخبر أحدا بما فيه، ولم يعقب عليه، بل بان على وجهه الكدر، والتفكير!

حتى إذا نودي للصلاة خرج معاوية في موكب فخم وحرس كبير إلى جامع دمشق، فلما صلى الناس، صعد جرير المنبر، حيث كان قميص عثمان المخضب بدمه مازال منصوبا، ومعاوية في كل صلاة يشير إليه، ويحرض الناس على من الانتقام لعثمان عِلي بن أبي طالب..!!

وكان لجرير عند الذين يحيطون بمعاوية منزلة خاصة وأكثرهم من قوم جرير..وجرير سيد قومه.

وأوجس معاوية خيفة مما عسى أن يقوله جرير، على حين أمسك الناس أنفسهم وتطلعوا إلى ما سيقوله سيد قومه.فحمد الله وأثنى عليه، وصلى وسلم على محمد وآله، ثم قال:"أيها الناس، إن أمر عثمان قد أعيا من شهده فما ظنكم بمن غاب عنه.وإن الناس بايعوا علِيا، وإن طلحة والزبير كانا ممن بايع، ثم نقضا بيعته، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل السيف.وقد كان في البصرة أمس روعة ملمة، إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء

للناس!وقد بايعت الأمة عليًا، فادخل يا معاوية فيما دخل فيــه الناس، فإن قلت:إن عثمان ولاَّني ولم يعزلني فإن هذا لو كان

لم يقم الله دين، وكان لكل امرئ ما هو فيه".

وشعر معاوية بما صنعه كلام جرير فــي قلـوب الناس، فقال:"يا جرير مهلاً أبلعني ريقي".

ثم إن معاوية استشار حاشيته، فأشاروا عليـه بـأن يستعين بعمرو بن العاص، ونصحوا معاوية أن يرضيه كيلا يعتزله كما اعتزل عثمان في آخر حياته، فكتب معاوية إلــى عمرو وهو بفلسطين على مسيرة أيام من دمشق."أما بعد، فقد كان من أمر عِلي وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقدم جريـر بن عبد الله في بيعة عِلي، وقد حبست نفسي عليـك، فأقـدم على بركة الله والسلام".

وأبطأ عمرو بن العاص في الرد على معاوية.

كان يعرف أنه في حاجة لدهائه، فرأى أن يدعه ينتظر بعض الوقت، لينال منه ما يريد!

وضاق معاوية بالانتظار فدعا إليه جرير بن عبد الله وقال له:"إني قد رأيت رأيا".اكتب إلى عِلي أن يجعـل لــي الشام ومصر، فإن حضرته الوفاة لم يجعل لأحد من بعده في

عنقه بيعة، فإن رضي بهذا الشرط أسلمت الأمر، وكتبت إليه بالخلافة".

فلما وصل كتاب جرير إلى الإمام كتب إليه:"إن معاوية إنما أراد ألا يكون لي في عنقه بيعة، وأن يختار من أمره ما أحب.لقد أشاروا علىَّ وأنا في المدينة أن أستعمله على الشام وحده، فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني أتخذ المضلين عضدا، فإن بايعك الرجل، وإلا فأقبل"!

وانتظر الإمام ردا، فلما أبطأ الرد، طالبه أصحابه بأن يقودهم إلى الشام ولكنه قال لهم:"إن زحفي على أهل الشام وجرير عندهم إغلاق للشام، وصرف لأهله عن خير أرادوه، ولكني قد وقَّتُّ له وقتًا لا يقيم بعده إلا أن يكون مخدوعا أو عاصيا!ولا أكره لكم الإعداد.والرأي عندي مع الأناة".

***

أما عمرو بن العاص، فإنه لما جاءه كتاب معاوية استشار ولديه في الأمر، فقال له أكبرهما وهو الصحابي عبد الله بن عمرو:"أرى والله أن نبي الله قبض وهوعنك راض، وكذلك الخليفتان من بعده، فأقم في منزلك، فلست مجعولاً

خليفة، ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية علـى دنيـا قليلة".وقال ابنه الأصغر محمد:"أرى أنـك شـيخ قـريش وصاحب أمرها بالحق، فالحق بجماعة أهل الشام واطلب بدم عثمان تستمل إليك بني أمية جميعا".فقال عمرو لولديه:"أمـا أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لديني، وأما أنـت يـا محمد فأمرتني بمـا هـو لـدنيا ". وسـأل غلامـه وردان فقال:"اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت:مع عِلي الآخرة بلا دنيا، ومع معاوية الدنيا بلا آخرة.فأنت واقف بينهما وأرى أن تقيم في منزلك فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك".

ولكن عمرو بن العاص لحق بمعاوية فـي دمشـق، فقابله هناك ابن أخيه فقال له:"يا عم!ألا تخبرنـي بـأي رأي تعيش في قريش وقد أعطيت دينك لغيرك!"فقال عمرو:يا ابن أخي!إنه لأمر الله دون معاوية وعِلي ..لو كنـت مـع عِلـي وسعني بيتي، ولكني مع معاوية".فقال الفتي:"إنك تريد دنياه، وهو يريد دينك يا عماه!"

وعلم معاوية بقول الفتى، فطلبه ليوقع به، ولكن الفتى فر إلى الإمام عِلي ، وأخبره بما كان، فضحك كرم الله وجهه، وحمد للفتى شجاعة رأيه وأصبح الفتى من أشياعه.

وأدرك الإمام عِلي أن عمرو بن العاص سيطلب إلى معاوية ولاية مصر، فما بارحت فكر عمرو قط منذ عزله عنها عثمان، ولقد غاظه هذا العزل، حتى مضى يحرض الناس على قتل عثمان!

وما من شك لدى الإمام في أن معاوية قد أبرم الصفقة مع عمرو، فأرسل الإمام إلى عمرو:"أما بعد، فإنك قد جعلت دينك تبعا لدنيا امرئ ظاهر غيه، مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه، ويسفه الحليم بخلطته، فاتبعت أثره، وطلبت فضله كاتباع الكلب للضرغام، يلوذ إلى مخالبه، وينتظر ما يبقي إليه من فضل فريسته، فأذهب دنياك وآخرتك!ولو بالحق أخذت، أدركت ما طلبت، فإن يمكنني الله منك ومن ابن أبي سفيان أجزكما بما قدتما، وإن تعجزاني وتبقيا في الدنيا بعدي، فما أمامكما شر لكما!

***

قال الذين شهدوا مقدم عمرو بن العاص على معاوية في قصره بدمشق:إن ابن العاص قدم وهو يبكي كما تبكى المرأة ويقول:"واعثماناه!أنعى الحياء والدين!يا أهل الشام اطلبوا بدم الخليفة المقتول".

ومعاوية لا يلتفت إليه!

فقال له ابناه:"يا أبتاه، ألا ترى إلى معاوية لا يلتفت إليك؟.انصرف إلى غيره!".

فوثب عمرو إلى معاوية قائلاً:"والله لعجب لك! تطلبني فأرفدك بما أرفدك، وأنت معرض عني!والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن في النفس ما فيها، حيث تقاتل من نعلم سابقته وفضله وقرابته، ولكن إنما أردنا هذه الدنيا!".

وكان معاوية قد أعرض عنه، ولم يبد اللهفة إلى لقائه، لكيلا يغلو عمرو فيما يطلبه!

على أنهما بعد أن تكايدا بعض يوم تصافيا، وأغدق عليه معاوية مالاً كثيرا، وإماء حسانًا، وجعل له المكانة الأولى في حاشيته، واسترضاه حتى رضي!

ثم أقبل عليه معاوية ذات صباح فقال له:"يا أبا عبد الله، طرقتني في ليلتي هذه أخبار ليس لي فيها حيلة، فأشر

على: منها أن قيصر زحف بجماعة من الروم، ليغلب على
الشام ويسترده، ومنها أن عِليا قد استعمل علِى مصر قيس
بن

سعد بن عبادة وهو يعدل عندي مائة ألف فارس، وإنه في
موقعة هذا لأثقل خلق الله عِلينا مخافة أن يقبل عِلي بن
أبي طالب في أهل العراق ويقبل قيس في أهل مصر، فأقع
بينمها ولات حين مناص!ومنهما أن علِيا يتهيأ ليجئ
إلينا فما عندك؟".فقال عمرو في ثقة بالغة بدهائه:"ليس
كل ما ذكرت

عظيما يا معاوية".

وصدم معاوية، فقد تمنى أن يخاطبه عمرو كما

يخاطبه أهل الشام بلقب الخلافة"أمير المؤمنين!".

وأدرك عمرو ما يدور بخلد معاوية، فسكت وعيناه

تلتمعان، وضحكة ساخرة مطمئنة تغمر أساريره!

قال معاوية:هيه يا عمرو بن العاص!هات ما
عندك".قال عمرو:"فأما قيصر فأهد إليه من وصائف الروم
ومن الذهب والفضة، والرقائق من نسيج قبط مصر واطلب
إليه الموادعة، تجده إليها سريعا، وأما قيس بن سعد بن عبادة
فالرأي أن تكتب إليه فمنيه بما يشاء، وانظر بما يجيب، ولي
بعد ذلك رأي في أمره وأمر مصر.وأما عِلي، فو الله إن له

في الحرب لحظًا ما هو لأحد من الناس.وأنه لصاحب الأمر!".

فقال معاوية:"صدقت ولكني أقاتله على ما بأيدينا ونلزمه دم عثمان".فقال عمرو:"واسوءتاه!إن أحق الناس ألا يذكر عثمان لأنا وأنت!"قال معاوية:"ولم؟!".قال عمرو:"أما أنت فخذلته ومعك أهل الشام، واستغاثك فأبطأت عليه، وأما أنا فتركته عيانا وهربت إلى فلسطين، وحرضت عليه!".قال معاوية:"دعك من هذا!".

وصمت معاوية مليا..

وبغتة وثب إلى عمرو فقال له:"هلم وبايعني!".

فضحك عمرو ضحكة عريضة ماكرة، والتمعت عيناه، وأحس بانتصار الذي سنحت له الفرصة النادرة فجأة فانتهزها!

وقال:لا والله لا أعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك!".قال معاوية:"سل تعط".قال عمرو:"مصر"..!.

وبهت معاوية!!إنه هو نفسه يحلم بمصر، ولو أن عليا أعطاه مصر لسكت عنه، واعترف بخلافته!!

وقال معاوية:"ألم تعلم أن مصر كالشام؟!".قال."بلى، ولكنها إنما تكون لي إذا كانت لك.وإنما تكون لك إذا غلبت عليا على العراق، وقد بعث أهلها بطاعتهم إلى عِلي!فانظر في أمرك".وخرج!

ودخل عتبة بن أبي سفيان على أخيه معاوية بما يريده عمرو فقال:"أما ترضى يا أمير المؤمنين أن تشتريعمرو بن العاص بمصر إذا هي صفت لك؟!ليتك لا تغلب على الشام؟!".

فبعث معاوية إلى عمرو، فكتب له عهدا بأن يوليه مصر..وكتب في أسفل العهد:"لا ينقض شرط طاعة".فكتب عمرو:"ولا تنقض طاعة شرطًا"!

وبدأ عمرو يمارس عمله:فاقترح على معاوية أن يكتب إلى قيس بن سعيد بن عبادة.

إنه رأس الأنصار اليوم..وإنه لكذلك منذ حمل راية الأنصار يوم فتح مكة، وكان النبي يحبه، ويكبره.وقد أرسل عليا ينزع راية الأنصار من أبيه سعد حين سمعه يتوعد أهل مكة باستباحة الحرمات.

كتب معاوية إلى قيس:"إن كنتم نقمتم على عثمان رضي الله عنه في أثَرةٍ رأيتموها، أو ضربة سوط ضربها، أو شتيمة رجل، أو في تسيير آخر، أو في استعماله الفتى (الفتيان)، فإنكم قد علمتم -إن كنتم تعلمون - أن دمه لم يكن يحل لكم، فقد ركبتم عظيما من الأمر، وجئتم إدا.فتب إلى الله يا قيس بن سعد!فإن استطعت أن تكون ممن يطالب بدم

عثمان فافعل.تابعنا على أمرنا، ولك سلطان العراقين إذا ظهرت أنا ما بقيت أنت.ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان، وسلني غير هذا مما تحب.فإنك لا تسألني أمرا إلا أوتيته!واكتب إلى برأيك فيما كتبت به إليك.والسلام".

فأحب قيس ألا يتعجل حرب معاوية كما أوصى بذلك الإمام!ثم إن قيسا لا يقل دهاء عن معاوية وعمرو، فآثر ملاينتهما ليرى ما يكون من خطتهما!فكتب إلى معاوية:"أما ما سألتني عن متابعتك، وعرضت على من الجزاء، فقد فهمته، وهذا أمر لى فيه نظر وفكرة، وليس هذا مما يسرع إليه، وأنا كافٍ عنك.ولن يأتيك من قبلي شيء تكرهه".

فرد عليه معاوية مغضبا:"أما بعد، فقد قرأت كتابك، فلم أرك تدنو فأعدك سلما، ولم أرك تباعد فأغدك حربــا، وليس مثلي يصانع المخادع، ومعه عدد الرجال، وبيده أعنة الخيل، فلأملأنها عليك خيلاً ورجلاً!".

فرد عليه قيس:"أما بعد، فإن العجب من اغترارك بي، وطمعك في، واستسقاطك رأيي!أتسومني الخروج من طاعة أولي الناس بالإمرة، وأقولهم للحق، وأهداهم سبيلاً وأقربهم إلى رسول الله ﷺ وسيلة؟!.وتأمرني بالدخول في طاعتك، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم للزور، وأضلهم سبيلاً وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله ﷺ وسيلة؟!ولد ضالين مضلين، طاغوت من طواغيت إبليس!!وأما قولك إني ماليء عليك مصر خيلاً ورجلاً، فوالله لئن لم أشغلك بنفسك، حتى تكون نفسك أهم إليك، إنك لذو جد(حظ)".

فلما وصل كتاب قيس إلى معاوية صدمته حدته، فتشاور هو وعمرو فيما يصنعان، ليستخلصا من بين يدي قيس، وليوقعا به عند عِلي .

وانتهيا إلى مكيدة قال عنها معاوية:"ما ابتدعت مكايدة قط أعجب عندي من مكايدة كدت بها قيس بن سعد عند عِلي حين امتنع مني قيس قلت لأهل الشام:لا تسبوا قيس بن سعد، ولا تدعوا إلى غزوه، فإنه لنا شيعة تأتينا كتبه ونصائحه.ألا ترون ما يفعل بأهل خِربتا، يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، ويؤمن سربهم".

وخِربتا قرية في البحيرة في سكان غربي التي دلتا النيل.اعتصم بها عشرة آلاف مقاتل من القبائل العربية استوطنت مصر بعد الفتح.وقد رفضوا البيعة للإمام، وأرسلوا إلى عامله على مصر قيس بن سعد:"إنا لا نقاتلك، فابعث عمالك، فالأرض أرضك، ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس".فوافقهم قيس، ولم يقهرهم على البيعة.غير أن رئيسهم مسلمة بن مخلد الأنصاري، نهض فدعا إلى الطلب بدم عثمان.فأرسل إليه بن سعد:"ويحك!أعَلى تثب؟!فوالله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر، وإني قاتلك".فبعث إليه مسلمة:"إني كاف عنك ما دمت أنت والى مصر".

ثم بعث قيس إلى أهل خربتا بالمهادنـة، علـى أن يؤدوا إليه ما على الأرض من خراج، فهادنوه، ولم ينازعـه أحد.

وكان قيس رجلاً شجاعا، حصيف الرأي، عظيم الثقة والاعتداد بنفسه، حتى لقد رفض أن يدخل مصر بجند..ذلـك أن الإمام عِلي دعاه فقال له:"سر إلى مصر فقـد وليتكهـا، واخرج إلى رجلك، واجمع إليك ثقاتـك، ومـن أحببـت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند، فإن ذلك أرهب لعدوك وأعز لوليك، فإن أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلـى المحسـن، واشتد على المريـب، وارفـق بالعامـة والخاصـة".فقـال سعد:"رحمك الله يا أمير المؤمنين!

قد فهمت ما قلت.أما قولك:اخرج إليها بجند، فوالله لـئن لـم أدخلها إلا بجند لا أدخلها أبدا، فأنا أدع ذلك الجند لك، فـإن أنت احتجت إليهم كانوا منك قريبا.وإن أردت أن تبعثهم إلى وجه من وجوهك كانوا عدة لك.وأنا أصير إليها بنفسي وأهل بيتي، فأما ما أوصيتني به من الرفق والإحسان، فإن الله عز وجل هو المستعان على ذلك".

فخرج بأهله في سبعة نفر من أصحابه..

فلما دخل مصر، صعد منبر المسجد الجامع بالفسطاط (مسجد عمرو)، فأمر بأن يقرأ علِى الناس كتاب أمير المؤمنين:"بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عِلي أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين.سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله هو.أما بعد فإن الله عز وجل بحسن صنعه وتقديره وتدبيره اختار الإسلام دينًا، وبعث به الرسل عليهم السلام إلى عباده، وخص به من انتخب من خلقه، فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة، وخصهم به من الفضيلة أن بعث إليهم محمدا ، فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة، لكي يهتدوا، وجمعهم لكيما لا يتفرقوا، وزكاهم لكيما يتطهروا، ورفههم لكيما لا يجوروا.فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله عز وجل صلوات عليه ورحمته وبركاته، ثم إن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين، عملاً بالكتاب والسنة وأحسنا السيرة، ولم يعدوا السنة، ثم توفاهما الله عز وجل، رضي الله عنهما.ثم ولَّى بعدهما والٍ.فأحدثت أحداثًا، فوجدت الأمة عليه مقالًا فقالوا، ثم نقموا عليه فغيروا.ثم جاءوني فبايعوني، فأستهدى الله عز وجل بالهدى، وأستعينه على التقوى.ألا وإن

لكم على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، والقيام عليكم بحقه والتنفيذ لسنته، والنصح لكم بالغيب,والله المستعان، وحسبنا الله ونعم الوكيل.وقد بعثت إليكم قيس بن سعد بن عبادة أميرا، فآزروه وكاتفوه، وأعينوه على الحق، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم. والشدة على مريبكم، والرفق بعوامكم وخواصكم، وهو ممن أرضى هديه، وأرجو صلاحه ونصيحته..أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملاً زاكيا، وثوابا جزيلاً ورحمة واسعة.والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

وبعد أن تلى كتاب أمير المؤمنين قام قيس خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه وصلى وسلم على محمد وآله، وقال:"الحمد الله الذي جاء بالحق، وأمات الباطل، وكبت الظالمين.

أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا، فقوموا أيها الناس فبايعوه على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله، فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم".

فقام الناس وبايعوا، واستقامت له مصر، إلا أهل تلك القرية من أعمال البحيرة، فلما توادعوا وتهادنوا، أحس معاوية وعمرو استغلال سياسة قيس للإيقاع به عند علي،

عسى أن يعزله عن مصر، فيسهل امتلاكها، ويتولاها عمرو كما وعد معاوية، ويفلت معاوية من وقوعه بين جند مصر وجند العراق!فاختلقا كتابا من قيس إلى معاوية أذاعاه على الناس!

جاء في هذا الكتاب المختلق"بسم الله الرحمن الرحيم، للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد..سلام عليك، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو.أما بعد.فإنني لما نظرت رأيت أنه لا يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلما محرما برا تقيا.فيستغفر الله عز وجل لذنوبنا، ونسأله العصمة لديننا، ألا وإني قد ألقيت إليكم بالسلم، وإني أجبتك إلى قتال قتلة عثمان إمام الهدى المظلوم.فعول علي فيما أحببت من الأموال والرجال أعجل إليك".

فشاع بين أهل الشام أن قيس بن سعد بايع معاوية أميرا للمؤمنين!

فلما بلغ الإمام عليا عجب له، وقال"إني والله ما أصدق بهذا على قيس ".

فقال له عبد الله بن جعفر:"يا أمير المؤمنين، دع ما يريبك إلى مالا يريبك.

اعزل قيسا عن مصر.فوالله لئن كان هذا حقــًا لا يعتزل لك إن عزلته!".

فإنهم لكذلك، إذ جاء كتاب من قيس بن سعد:"بسم الله الرحمن الرحيم.أما بعد فإني أخبر أمير المؤمنين أكرمـه الله إن قبلي رجالاً معتزلين قد سـألوني أن أكـف عـنهم، وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر النـاس، فتـرى ويـروا رأيهم، فقد رأيت أن أكف عنهم وألا أتعجـل حـربهم، وأن أتألفهم فيما بين ذلك لعل الله عز وجـل أن يقبـل بقـولهم، ويفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله".

فقال عبد الله بن جعفر:"يا أمير المؤمنين، ما أخوفني أن يكون هذا ممالأة لهم منه، فمره يا أمير المؤمنين بقتالهم".

فكتب أمير المؤمنين إلى قيس:"أما بعد، فسـر إلـى القوم الذين ذكرت، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون، وإلا فناجزهم إن شاء الله".

فرد قيس بن سعد أمير مصر:"أما بعـد، يـا أميـر المؤمنين، فقد عجبت لأمرك!.أتأمرني بقتال قوم كافين عنك، مفرغيك لعدوك؟إنك منذ حاربتهم سـاعدوا عليـك عـدوك،

فأطعني يا أمير المؤمنين، واكفف عنهم، فإن الرأي تـركهم، والسلام، .

فلما قرأ أمير المؤمنين هذا الكتاب على بنيه وخاصةأهل مشورته، لم يتمالك عبد الله ابن جعفر أن قال:"يا أميـر المؤمنين.ابعث محمد بن أبي بكر على مصر يكفك أمرهـا، واعزل قيسا، والله لقد بلغني أن قيسا يقول:والله إن سلطاناً لا يتم إلا بقتل مسلمة ابن مخلد لسلطان سوء، والله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر وإني قتلت مسلمة.

فاعزله يا أمير المؤمنين، وولِّ مكانه محمد بن أبي بكر".

وكان عبد الله أخا محمد بن أبي بكر لأمـه وأقـرب الناس إليه، فلاحظ أن شيئًا دخل نفسه من أميـر المـؤمنين الإمام عِلي منذ استعمل قيس بن سعد وكان محمد بـن أبـي بكر في آخر حكم عثمان قد ولي أمر مصـر، لمـا طلبـه المصريون وسيره إليها عثمان، لولا مكر مـروان السـيئ، ومكيدته التي أدت إلى حصار عثمان رضي الله عنه، كمـا ذكرنا آنفًا، عند الحديث عن مقتل ذى النورين!

استجاب أمير المؤمنين عِلي بن أبي طالب لمشـورة عبد الله بن جعفر فعزل قيسا!

بعث أمير المؤمنين محمد بن أبي بكر إلـى مصـر وأرسل معه كتابا بولايته فلما قدم به غضب قيس لـــعزلـه، وقال:"ما بال أمير المؤمنين!؟مـا غيره؟أدخـل أحـد بينـي وبينه؟أصدق في ما أذاعه معاوية وحزبه؟"وقال له محمد:"لا واالله ولقد أقسم لنا إنه لا يصدق بهذا عنك.أقم وهذا السلطات سلطانك!"". قال قيس:"لا واالله، لا أقيم ساعة واحدة".

وخرج قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري من مصر عائدا إلى موطنه:المدينة.. ولكنه خرج مغاضبا، وذاع خبره في المدينة، فجاءه حسان بن ثاب فقال:"نزعك عِلي ابن أبـي طالب، وقد قتلت عثمان فبقي عليك الإثم ولم يحسن ابن أبي طالب لك الشكر".فوثب إليه قيس قائلاً:"اخرج عني فواالله لولا أن ألقى بين رهطي ورهطك حربا لضربت عنقك".

وفي المدينة شعر قيس أن مروان بن الحكم والأسود بن أبي البخترى ونفـرا مـن بنـي أميـة يـأتمرون بـه ليقتلوه.وجاءه من أقصى المدينة رجل يسعى بخير كيـدهم، فخرج قيس إلى الكوفة، وبث حديثه إلى أمير المؤمنين، وما كان من كيد معاوية وعمرو، فصدقه وعلم أنه كان يقاسـي أمورا عظاما، فأبقاه بالقرب منه، وأشركه معه في الأمر كله.

ولم يكد معاوية وعمرو يفرحان أن أوقعا بين عِلي
وقيس، حتى اغتما حين علما أن قيسا لحق بعِلي، وأنه الآن
لمن أقرب شيعته وأصحابه إليه.

وهو الآن أحد قواد الجيش الذي يجهزه عِلي للزحف
على الشام!

وأرسل معاوية إلى مروان والأسود يؤنبهما، فقد بعثهما إلى
المدينة ليخذلا الناس عن عِلي لا ليمده بمثل قيس!كتب
معاوية لهما:"أمددتما عِليا بقيس بن سعد ورأيه ومكانه،
فوالله لو أنكما أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان ذلك بأغيظ
لي من
إخراجكما قيس بن سعد إلى عِلي ".

وكان قيس من أرجح الناس عقلاً، ومن أحكم أهل
زمانه، ومن أدهي العرب وأحسنهم رأيا ومكرا، وأصوبهم
نظرا، وكان مهيبا طويل القامة، حتى لتكاد قدماه تمسان
الأرض وهو على صهوة جواده!!

وكان الأنصار لا يخالفون له حكما ولا يعصون له
أمرا..وكذلك الأعراب الذين كانوا في حلف رهطه قبل
الإسلام!

وظل معاوية يتغيظ على مروان والأسود، لأنهما تركا قيسا يعود إلى عِلي!!

فلما رأي عمرو حال معاوية، أبطأ عليه بالمشورة، ولكنه جعل يشكك في ولاء مروان وذكَّر معاوية بغضب مروان

لما علم بأن معاوية كتب عهدا بأن يولي مصر ابن العاص، إذ عجب مروان من أن يشتري معاوية رجلاً مهما يكن خطره، بمصر، فقال:" ما بالي لا أشتري!".وطمع في أن يكتب له معاوية عهدا بالإمارة على بلد كمصر!فما هو بأقل شأنا من عمرو بن العاص!!فلما أبى معاوية ذلك عليه، وقال له:"اسكت يا ابن العم فإنما يشتري لك الرجل"فخرج إلى المدينة.زاعما أنه سيخذل أهل الحجاز عن عِلي!! ولكنه خرج منكرا ما بين عمرو ومعاوية!!

ورأى عمر لمعاوية ألا يعول في الحجاز على مروان بعد، وأن يبعث الكتب والرسائل إلى أهل المدينة وأهل مكة، وأصحاب السطوة والهيبة من المهاجرين والأنصار يستنصرهم، ويخذلهم عن عِلي .

وفكر عمرو بن العاص في أم المؤمنين عائشة وقال:"ليتها قتلت يوم الجمل!لكانت قد ماتت بأجلها.وكنا جمعنا الناس كلهم حولنا للأخذ بثأرها!".

فلما سمعت أم المؤمنين بهذا بعد أن قرت في بيتها بالمدينة، جهرت بسخطها على أهل الشام ومعاوية وعمرو، وتمنت لو أنهم أغمدوا السيوف، فلا تشهد الأمة يوما آخر كيوم الجمل!

لقد ظلت عائشة رضي الله عنها لا تتمالك نفسها من البكاء ندما، كلما ذكرها أحد وكانت توجه الناس ليستفتوه، وتقول عنه"هو أعلم الناس بالسنة".

كتب معاوية إلى أهل مكة والمدينة:"إنما نطلب بدم عثمان حتى يدفع إلينا عِلي قتلته فنقتلهم بكتاب الله فإن دفعهم إلينا كففنا عنه، فأما الخلافة فلسنا نطلبها".

فغضب أهل مكة والمدينة وأجمعوا على رجل من القريتين عظيم ليرد عنهم فأرسل إلى معاوية ردا غليظاً جاء فيه:"أخطأت مواضع النصرة، وتناولتها من مكان بعيد!وما أنت والخلافة يا معاوية، وأنت طليق، وأبوك من

الأحزاب؟!فكف عنا يا معاوية، فليس لك فينا ولي ولا نصير".

ولكن عمرو بن العاص لم ييأس، ونصح معاوية بأن يكتب إلى الذين اعتزلوا الصراع، فكتب لهم.فذكر لهم ثأر عثمان، واستنهضهم ضد قتلته وأنهي الكتاب إلى كل واحد منهم بقوله:"أنا لست أريد الإمارة عليك ولكني أريدها لك!".

أما عبد الله بن عمر فكتب إلى معاوية:"لعمري ما أنا كعلي في الإسلام والهجرة، ومكانه من رسول الله ❐.ولكن حدث أمر لم يكن إلينا فيه من رسول الله❐ عهد، ففزعت إلى التوقف والاعتزال، وقلت، إن كان هذا فضلاً تركته.وإن كان ضلالة فشر نجوت منه!..فأغن عني نفسك!".

وكان قد جاء في كتاب معاوية إلى سعد بن أبي وقاص:"أما بعد، فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى، الذين اختاروه على غيره.وقد نصره منهم طلحة والزبير، وهما شريكاك في الأمر والشورى ونظيراك في الإسلام، وخفت لذلك أم المؤمنين، واستشهد في ذلك طلحة والزبير، فلا تكرهن ما رضوا ولا تردن ما قبلوا، فإنما نريدها شورى بين المسلمين".

وشعر سعد أن هذا الكتاب يختلف عـن أول كتـاب بعثه إليه معاوية، ففي الكتاب الأخير كيد مثل الفخ!فغضـب سعد وكتب إلى معاوية:"أما بعد.فإن أهل الشورى ليس فـيهم واحد أحق بها من صاحبه.غير أن علِيًا لم يكن فينا ما فيــه، فشاركنا في محاسننا، ولم نشارك في محاسنه، وكان أحقنـا كلنا بالخلافة، ولكن مقادير الله تعالى صرفنها عنه.وقد علمنا أنه أحق بها منا، ولكن لم يكن من الكلام والتشاجر!!فـدع ذا!وأما أمرك يا معاوية، فإنه أمر كرهنا أوله وآخره.وأمـا طلحة والزبير رحمهما الله، فلو لزما بيوتـهمـا لكـان خيـرا لهما.والله تعالى يغفر لعائشة أم المؤمنين".

وعاد سعد بن أبي وقاص يغلق عليه بابـه، ويـأمر أهله ألا يخبروه بشيء من أخبار الناس حتى تجتمـع الأمـة على إمام!!

وأما محمد بن مسلمة الأنصاري فقد سـاءه كتـاب معاوية الذي جاء فيه:"لم أكتب إليك وأنـا أرجـو مبايعتـك ولكني أذكرك النعمة التي خرجت منها، إنك كنـت فـارس الأنصار، وعدة المهاجرين...إنك ادعيت أن رسول الله نـهى عن قتال أهل الصلاة، فهل نهيت أهل الصـلاة عـن قتـال

بعضهم بعضا؟!أم ترى عثمان وأهل الدار ليسوا مسلمين من أهل الصلاة!!أما قومك الأنصار فقد عصوا الله تعالى، وخذلوا عثمان!".

فكتب إليه محمد بن مسلمة:"أما بعد، فقد اعتزل هذا الأمر من ليس في يده من رسول الله ❐ مثل الذي في يدي!وقد أخبرت الناس بالذي هو كائن قبل أن يكون، فلما كسرت سيفي، ولزمت بيتي، لم يصح لي معروف آمر به، ولا منكر أنهي عنه.ولعمر الله يا معاوية إنك ما طلبت إلا الدنيا، ولا اتبعت إلا الهوى، ولئن كنت نصرت عثمان ميتًا، لقد خذلته حيا!ونحن ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار أولى بالصواب منك وممن معك".

***

وانكسر معاوية للردود الثلاثة، وتمني لو فعل كما فعل على فترك هؤلاء الرجال الذين اعتزلوا، ذلك أنهم بإعلانهم خذلان معاوية، وبإزرائهم عليه، ولومه وتقريعه، قد أفقدوه الكثير مما كان يرجوا!..

وتلاحى معاوية وعمر كل منهما يتهم صاحبه إنه هو صاحب الرأي في الكتابة إلى المعتزلين الثلاثة.

واقترح عمرو عليه أن يكتب إلــى عِلــي ملاينــًا،
ومهددا، ومعترفـًا له بفضله، وطالبا بقتلةِ فيضعه في عثمان،
حرج أمام الأمة جميعا!!

فكتب معاوية إلى الإمام عِلي:"أما بعد، فلعمري لـو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برئ من دم عثمـان، كنـت كأبي بكر وعمر وعثمان رضـي االله عنـهم، ولكنـك أغريـت بعثمان المهاجرين، وخذلت عن الأنصار، فأطاعك الجاهـل، وقوى بك الضعيف، وقد أبي أهل الشام إلا قتالك، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإذا دفعتهم كانت شورى بين المسـلمين، وقد كان أهل الحجاز الحكام على الناس وفي أيديهم الحـق، فلما تركوه صار الحق في إيدي أهل الشـام، ولعمـري مـا حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، ولا حجتك عِلي كحجتك على طلحة والزبيـر رحمهمـا االله، لأن أهـل البصرة بايعوك، ولم يبايعك أحد من أهل الشام، وإن طلحـة والزبير بايعاك وأنا لم أبايعك، وأما فضـلك فـي الإسـلام، وقرابتك من النبي عليه الصلاة والسلام، فلعمري ما أدفعـه ولا أنكره.ونحن وأنتم لكما قال شاعر الشام كعب بن جميل:

أرى الشام تكره ملك العراق

وأهل العراق له كارهونا

فقالوا عِلي إمام لنا

فقلنا رضينا ابن هند رضينا

وقالوا ترى أن تدينوا له

فقلنا ألا لا نرى أن ندينا!

وإني لأذكرك بقول الشاعر:

ليس بيني وبين قيس عتاب

غير طعن الكلى وضرب الرقاب

والسلام...

فكتب إليه أمير المؤمنين زاجرا، وناصحا، وواعظًا، ومنذرا، ومعذرا:

"أما بعد، فقد جاءني منك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده فاستقاده.زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان، ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين، أوردت كما أوردوا، وأصدرت كما أصدروا، وما كان الله ليجمعهم على الضلال، ولا ليضربهم بالعمى، وما أمرت فيلزمني خطيئة عثمان، ولا قتلت فيلزمني قصاص القاتل!وأما قولك

أن أهل الشام هم الحكام على الناس فهات رجلاً من قريش الشام يقبل في الشورى أو تحل له الخلافة، فإن سميت كذَّبك المهاجرون والأنصار، وإلا أتيتك به من قريش الحجاز.فأما قولك ندفع إليك قتلة عثمان، فما أنت وعثمان؟إنما أنت رجل من بني أمية، وبنو عثمان أولى بعثمان منك.فإن زعمت أنك أقوى على ذلك، فادخل في الطاعة، ثم حاكم القوم إلى.. وأينا كان أعدى له، أفمن بذل له نصرته فاستقعده، أم من استنصره فتراخى عنه، وبث المنون إليه، حتى أتى قدره عليه؟!وما كنت لأعتذر من إني أنقم عليه أحداثًا، فإن كان الذنب إليه لرشادى وهدايتي له، فرب ملوم لا ذنب له.وما أردت إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله".

"يا معاوية إن الدنيا مشغلة عن غيرها، ولم يصب صاحبها منها شيئًا إلا فتحت له حرصا عليها، ولن يستغني صاحبها بما نال فيها عما لم يبلغه منها، ومن وراء ذلك فراق ما جمع، ونقض ما أبرم!ولو اعتبرت بما مضى، حفظت ما بقي.وأما تمييزك بين الشام والبصرة وذكرك طلحة والزبير رحمهما الله، فلعمري ما الأمر إلا واحد!وأما ولوعك بي في أمر عثمان فوالله ما قلت ذلك عن حق العيان،

ولا عن يقين الخبر.وأما فضلي في الإسلام، وقرابتي من رسول الله عليه الصلاة والسلام، وشرفي في قريش، فلعمري لو استطعت دفعه لدفعته!وأقسم بالله أنه لولا بعض الاستبقاء، لوصلت إليك من قوارع تقرع العظم وتهلس اللحم(أي تذيبه).وأعلم أن الشيطان قد ثبطك عن أن تراجع أحسن أمورك، وتأذن لمقال نصيحتك.فكيف أنت صانع إذا انكشفت عنك جلاليب ما أنت فيه من دنيا قد تبهجت بزينتها، وخدعت بلذتها، وقادتك فاتبعتها، وأمرتك فأطعتها؟.خذ أهبة الحساب، وشمر لما نزل بك، ولا تمكن الغواة من سمعك، فإنك مترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه، وبلغ فيك أمله، وجرى منك مجرى الروح والدم!..ومتي كنتم يا معاوية ساسة الرعية، وولاة أمر الأمة، بغير قدم سابق، ولا شرف باسق.ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء!؟أحذرك أن تكون متماديا في غرة الأمنية، مختلف العلانية والسريرة.وقد دعوت إلى الحرب فدع الناس جانبا، واخرج إلى ، واعف الفريقين من القتال، ليعلم أينا المرين عن قلبه، المغطى على بصره، فأنا أبو الحسن قاتل جدك عتبة وخالك الوليد وأخيك حنظلة شدخًا يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوي!ما

استبدلت دنيا، ولا استحدثت نجيا، وإني لعِلي المنهاج الذي تركتموه طائعين، ودخلتم فيه كارهين!يا معاوية كان رسول الله إذا أحمر البأس، وأحجم الناس، قدم أهل بيته، فوقى بهم أصحابه حر الأسنة والسيوف فقتل ابن عمه عبيدة بن الحارث يوم بدر، وقتل حمزة يوم أحد، وقتل جعفر بن أبي طالب يوم مؤتة، وأراد من شئت ذكرت اسمه مثل الذين أرادوا من الشهادة، (يعني نفسه)ولكن آجالهم عجلت، ومنيتهم أجلت، فيا عجبا للدهر إذ صرتُ يقرن بي من لم يسمع بقدمي، ولم تكن له كسابقتي!لقد خبأ الدهر لنا منك عجبا!فارجع إلى معرفة ما لا تعذر بجهالته، لقد ابتلاني الله بك، وابتلاك الله بي، وأرى نفسك قد أولجتك شرا، وأقحمتك غيا، وأوردتك المهالك، وأوعرت عليك المسالك، فاتق الله في نفسك، ونازع الشيطان قيادك، واصرف إلى الآخرة وجهك فهي طريقنا وطريقك، فانزع عن غيك وشقاقك".

"أما إصرارك على أنه ليس لي ولأصحابي عندك إلا السيف، فلقد أضحكت بعد استعبار!ومتي ألفَيتَ بني عبد المطلب عن الأعداء ناكلين، وبالسيف مخوفين!؟.."

فسيطلبك من تطلب، ويقرب منك ما تستبعد، وأنا مرقل(مسرع) نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، ساطع قتالهم، متسربلين سربال الموت، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم، قد صحبتهم ذرية بذرية، وسيوف هاشمية، قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك وأهلك (وما هي من الظالمين ببعيد)..والسلام لأهله.والسلام على من اتبع الهدى".

***

وهكذا أقام الإمام بالكوفة نحو سبعة عشر شهرا تتردد فيها الرسائل بينه وبين معاوية، وتتكرر المعاني والعبارات.

وقد انفصل معاوية بالشام، وأقام فيه دولة داخل الدولة!!

وشرع معاوية يعبئ أهل الشام للزحف على العراق.واستشار بعض رؤسائهم، فقال أحدهم:إن أبغض الناس إلى الله من يقاتل عِلي بن أبي طالب لقدمه في الإسلام، وعلمه بالحرب".

ففض معاوية مجلس المشورة وأغدق على رؤساء الشام من جديد أموالاً طائلة، ودعاهم من غده ليحشدوا الناس للحرب، فقال قائلهم:"والله ما ننصر إلا الله، ولا نغضب إلا للخليفة، ولا نحامي إلا عن الشام.وقد دعونا قومنا إلى ما دعوتنا إليه بالأمس، وأمرناهم بما أمرتنا به، فمرنا بما تحب وانهنا عما تكره".

وأدرك معاوية أن إغداقه على رؤساء الشام يملكه آراءهم واتباعهم فأغرقهم في الأموال والهبات.

ثم جمع الناس في المسجد، فخطب فيهم:"يا أهل الشام، إنكم قد سرتم لتمنعوا الشام وتأخذوا العراق.ولعمريما للشام رجال العراق وأموالها، وما لأهل العراق بصر أهلالشام وبصائرهم..والقوم ملاقوكم ببصائر أهل الحجاز، ورقةأهل اليمن، وقسوة أهل مصر، وكد أهل العراق، وإنما يبصر غدا من أبصر اليوم، فاستعينوا بالصبر والصلاة".

على ومازال معاوية بهم حتى أقسموا أنهم:"لن يأتوا أوالنساء، ولا يمسهم الماء إلا من احتلام، ولا يناموا الفرُش حتى يقتلوا قتلة عثمان، ومن عرض دونهم بشيء، تفنى أرواحهم".

وأقبل عبد الله بن عمر على معاوية، ففرح به، وسأل معاوية عمرو بن العاص:"ما منع عبد الله بن عمر أن يكون كأخيه عبيد الله؟"فقال عمرو ضاحكًا:"شبهت غير شبيه!إنما أتاك عبيد الله مخافة أن يقتله عِلي بقتله الهرمزان.أما عبد الله فرأي ألا يكون معك ولا لك، ولو كان معك لنفعك، أو عليك لضرك".

***

وعاد جرير بن عبد الله فأخبر الإمام بما رآه من أهل الشام وبكائهم وحلفهم أمام قميص عثمان..قال:"يا أمير المؤمنين إنهم مازلوا يبكون على عثمان ويقولون إن عِليا قتله وآوى قتلته، وإنهم لا ينتهون عن عِلي حتى يقتلوه أو يقتلهم".فقال الأشتر:"يا أمير المؤمنين، قد كنت نهيتك أن نبعث جريرا، أخبرتك بعداوته وغشه.ولو كنت بعثتني كان خيرا من هذا الذي أقام عند معاوية حتى لم يدع بابا يرجو فتحه إلا فتحه، ولا بابا يخافه إلا أغلقه!".فقال جرير:"لو كنت هناك لقتلوك!لقد ذكروا إنك من قتلة عثمان رضي الله عنه!".فقال الأشتر:"لو أتيتهم والله يا جرير لم يعيني جوابهم، ولحملت معاوية على خطة أعجله فيها عن الكفر!ولو

أطاعني أمير المؤمنين لحبسك وأشباهك في محبس لا تخرجون منه حتى تستقيم الأمور".

فخرج جرير، فكتب إلى معاوية بما كان، فطلبه معاوية وأحسن إليه، وأغدق عليه!

وقام أمير المؤمنين خطيبا فقال:"أيها الناس، إنما بايع معاوية أهل الشام، وليس له غيرهم وليّ ولا نصير.وإنكمأهل الحجاز، وأهل العراق وأهل اليمن، وأهل مصر وقد وادع معاوية الروم!!..فإن غلبتموه استعان بهم، ولحق هو وعصبته بأرضهم!إن غلبكم هؤلاء القوم فالغاية الموت، والمفر إلى الله العزيز الحكيم.وقد زعم معاوية أن أهل الشام أهل صبر ونصر.ولعمري لأنتم أولى بذلك منهم، لأنكم المهاجرون والأنصار..والتابعون بإحسان، وإنما الصبر اليوم والنصر غدا".

لقد أخذ أمير المؤمنين نفسه وأصحابه بالصبر والمصابرة، حتى ظن به الخصوم الضعف، وسئم الأنصار، ولم يعد في قوس الصبر منزع..

فلابد مما ليس منه بدّ!..

لابد من قارعة!..

وإذن فما عاد للإمام حيلة إلا الحرب.لكـي يحمـي الإسلام وينقذ السلام!!

الله أنت يا أمير المؤمنين!الحـرب مـرة أخـرى؟!

لك الله يا ولـي الله!

لك الله يا إمام المتقين!!

و هذا ينتهى الجزء الأول من كتاب "علي

إمام المتقين" ويليه الجزء الثاني والأخير..